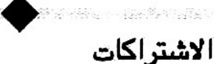
روايات الهلال

فتحي إمبابي



روايات الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العربى والعالمى تصدر عن مؤسسة دارالهلال



الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها مصريا داخل (ج. م. ع) تسدد مقدما نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٥ دولارا - أمريكا وأوروبا وآسيا وأفريقيا ٥٠ دولارا - باقى دول العالم ٦٠ دولاراً.

القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دارالهلال .

بريد الاشتراكات

Email : subscription_dep@yahoo.com



الإدارة

القاهرة :
١٦ شارع محمد عزالعرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) .
المكاتبات :
ص.ب: ٦١العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا: المصور - القاهرة ج. م. ع.
تلكس :
Telex 92703 hilal u n
فاكس :
FAX: 3625469

الإصدار الأول - يناير ١٩٤٩

العدد ٧١١ - مارس (آذار) ٢٠٠٨م - ربيع أول ١٤٢٩ هـ - برمهات ١٧٢٤ ق

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٠٠٠ فلس - الكويت ١,٢٥٠ فلسا - السعودية ١٢ ريالا - البحرين ١.٢ دينار - قطر ١٢ ريالا - الإمارات ١٢ درهما - سلطنة عمان ١.٢ ريالا اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ٤٠ درهما - فلسطين ٣.٥ دولار - سويسرا ٤ فرنكات - السودان ٣.٥ جنيه

البريد الإلكترونى :

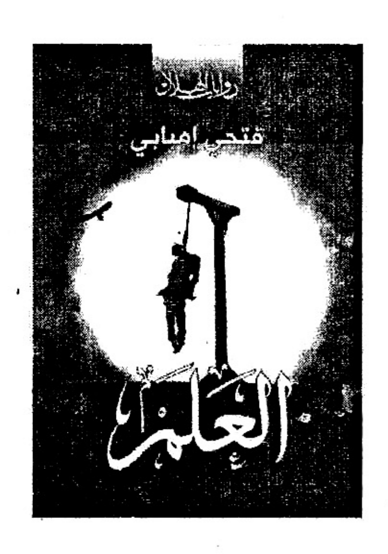
darhilal @ idsc. gov. eg

العلم

فتحي إمبابي

دار الهلال





الغلاف و الإخراج الداخلى

صالح عبد العظيم

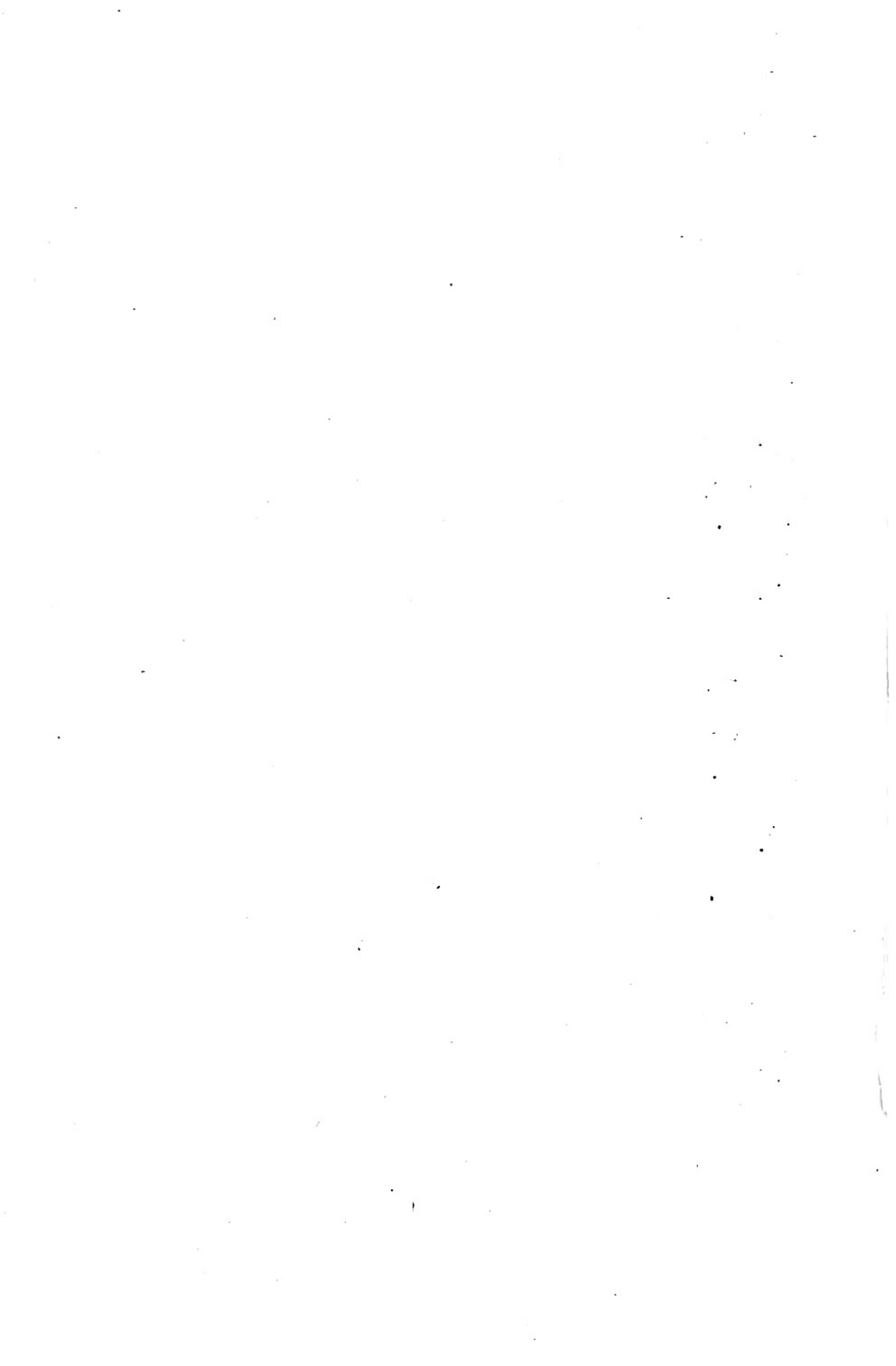


الخطوط للفنان :

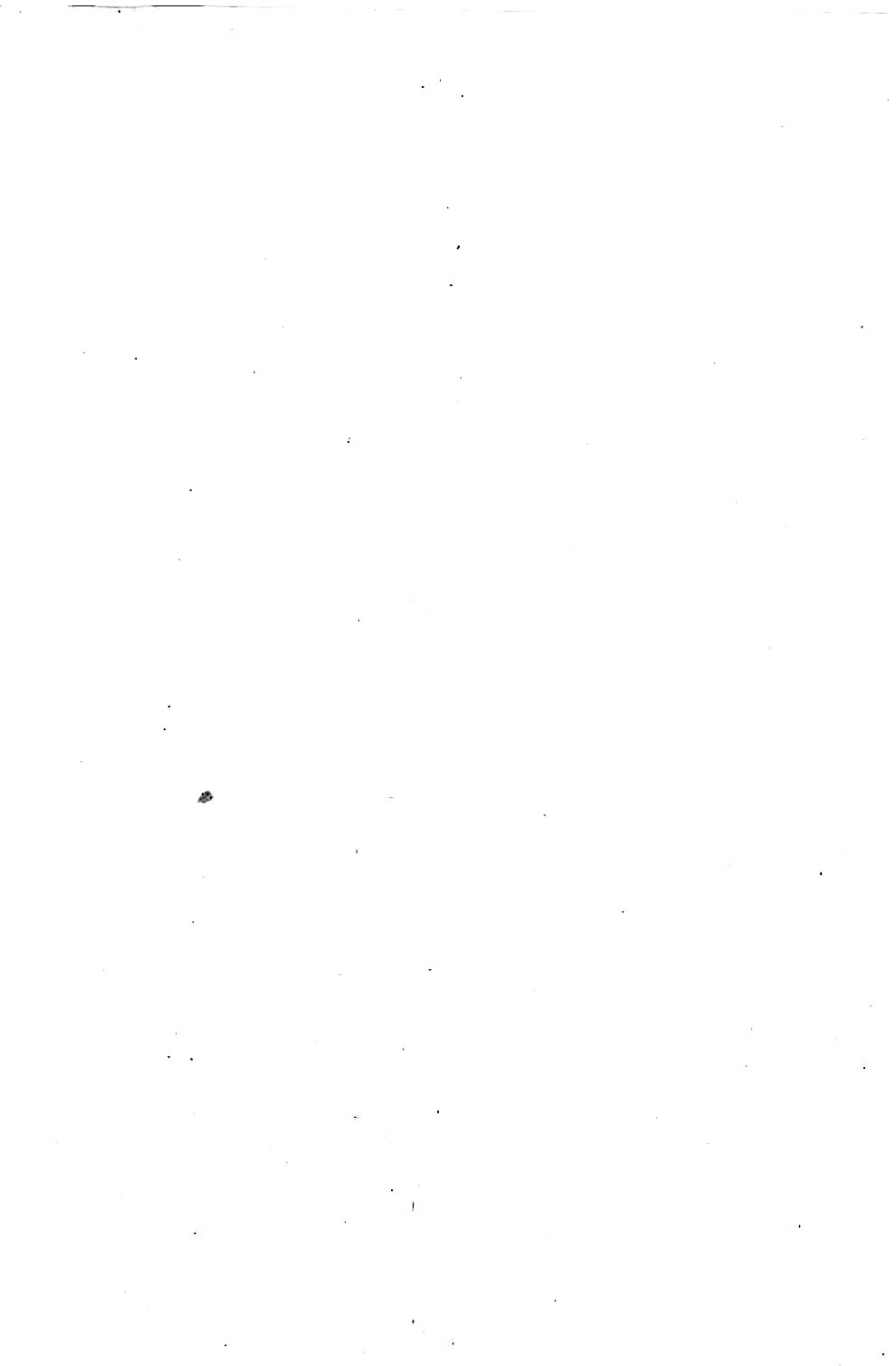
محمد العيسوى

متابعة :

ياسر شعبان



الجزء الأول





فتحي إمبابي

كذاب يا منام الليل
تجيب في عرب طال ياسهم

- 1 -

كانت الشـــمس تصعد وئيداً من وراء خط الأفق. والشارع الممتد طويلا مضاء بمصابيح الطريق الفلورسنت الساطعة. تنعكس على برك المياه التى خلَّفتها الأمطار الغزيرة طوال اليومين الماضيين. ببقع من الضوء المتلألىء على امتداد الطريق الأسفلتى المغسول بمياه الأمطار.

ســـيارتان وحيدتـــان إحداهما من طـــراز «بى أم دبليـــو» والأخرى «بيجو 504» وقفتا أمام الفيلا التى شـــهدت الفضيحة التى تحدثت عنها المدينة طوال الأســـبوعين الماضيين. تحقيقات الشرطة. أبحاث الطب الشرعى الذى أثبت انتحار العروس. التصريح بالدفن مباشرة من المستشـــفى العام. استقالة العريس من عمله بشركة التأمين ونهاية مســـتقبله الزاهر فـــى الوطن. بالأمس قامـــوا جميعا: رجال ونساء وأطفال أسرة بوزوى بتوديعه فى المطار فى طريقه إلى لندن.

اليوم ومنذ الثالثة صباحا والأســـرة تستعد للعودة إلى القبة مســـقط رأســـها. ومن الشـــرفة التى لا تـــزال آثار الحريـــق واضحة عليهـــا. وقفـــت خلـــف النافذة ثريـــا زوجـــة الأخ الأكبر عمـــر تتابع بذهول الأخوين يعدان عدة الرحيل. وعلى زجاج النافذة انعكســـت الأضواء المتلألئة لحمام الســـباحة الذى وعدها به زوجها يوم انتقلا للفيلا منذ شـــهور قليلة. والذى لم يتســـن لها اســـتخدامه حتى

اللحظة. ها هم يرحلون. لن يتبقى سواها وزوجها الذى سيغادر غدا صباحا إلى اليونان. وقبل أن تفكر فيما إذا كان باستطاعتها أن تستلقى بجسدها العارى بين مياهه. تركت عقلها يرحل إلى تلك المجموعة من المايوهات الفاضحة. التى أهداها لها زوجها معلنا عن امتلاكهم حمّام سباحة خاص. دون أن تنسى أنها لم تفكر للحظة فى ارتدائها حتى فى غرفة نومها. ظنت أن حمّام السباحة هذا يحفه شؤم بدأ بانتحار درية. ورحيل ناصر. وها هم (البقية) يتابعون الرحيل. فمتى يأتى دورها.

امتلأت السيارتان بالحقائب. نادى ونيس على حميدة (الأخ الأصغر) أن يستدعى العائلة. لمحت الأب يسير فى المقدمة مهدوما. محنى الظهر. وقد أصابه هرم مفاجئ. يستند على كتف حميدة الطالب فى هندسة الحاضرة الشرقية. تتبعه زوجتاه واحدة خلف الأخرى. جلست أم العريس ناصر مصابة بالشلل من حجم الفاجعة. على كرسى متحرك تدفعه ابنتها الصغرى صديقة. وخلفها الزوجة الثانية وأم ونيس وحميدة تجرجر أقدامها المتعبة.

تابعت خروجهم من الباب الخارجى. كانت ترى أسرة مهزومة وقعت بها فاجعة. ضربة من ضربات القدر الغاشمة.. التفتت أم ناصر تلقى نظرة أخيرة على الفيلا التى كان يتوقع أن يعلن فيها انتصار عائلتها الأكبر. فتلاقت عيناهما. ولمحت ثريا كنتها المشلولة تعود بنظراتها للأرض فى انكسار.. بكت ثريا. وعقلها الواعى غير قادر على استيعاب الأحداث المأساوية التى انتهى إليها زواج ناصر الأخ الشقيق لزوجها. وعروسه درية الضحية.. ضحية من؟ أخوها.؟.. أبوها؟.. أم زوجها هى: عمر؟. مزق رأسها صداع. وعبر نصف وجهها الأيمن شذر من موجات كهربائية اهتزت لها وشعرت بدوار. تراجعت ببطء حتى لا تسقط مغشيا عليها لتجلس على حافة الفراش الذى كانت تتقلب فيه من الفزع ابنتها الصغيرة صباح. ببطء شديد تمددت بجوار الطفلة وأخذتها بين أحضانها. وانثنت بها جنين يرغب

فى العودة إلى بطن أمه. هربا من الخدعة الكبرى التى تُسمَّى بالحياة. فمنذ هذه اللحظة سوف يترسب فى يقينها أنها تشارك الفراش وحشاً مخيفاً لن يتوانى عن أن يلقى بها إلى قارعة الطريق. ووسط أكوام الزبالة. لحظة تنتهى أهميتها بالنسبة له.

من الشارع اخترق زجاج الشرفة الضجيج المتصاعد من محركات السيارتين. بعد دقائق سمعت صوت صرير العجلات ينحت أسفلت الطريق. قليلا ثم غاب. وعاد الصمت يطوق الحى ثانية. لتبقى الأصوات الصلدة لقطرات المطر تطرق زجاج الشرفة. فى محاولتها الأبدية لغسل الحزن والعار الذى يوقعه البشر بذواتهم وبمن يحيط بهم، دون جدوى.

* * * *

كانت السيارتان تنهبان الطريق الساحلية باتجاه الشرق. وكأنه أصبح فى قناعة قائدى السيارتين أنهما أخذا نصيبا كافيا من مصائب الدهر بما يجعل القدر غافلا عنهما. فى السيارة الأولى قاد ونيس السيارة البيان فيو. وبجواره امرأة أبيه وأخته فى الخلف. ووراءهما كانت البيجو يقودها حميدة. وبجواره أبوه الحاج مفتاح وأمه. هذه المرة لم يحاول أحد منهما أن يزعجه بالتخفف من السرعة. حتى عندما تركوا وراءهم مدينة الحضر. وتوغلوا حثيثا فى المنحنيات الخطرة للجبل الأخضر. حيث القيادة متعة لمن يعشق السرعة وهلاك لمن لا يجيدها. وكتلة الصلب المندفعة بسرعة تتجاوز مائة وثمانين كيلو متراً فى الساعة ليست سوى رصاصة مسدس بانتظار الارتطام المروع. وعلى طول الطريق الحديث الذى يخترق الجبل منثنيا مع انثناءاته. صاعدا هابطا مع طياته. عبرت السيارتان مدن الساحل الرئيسية واحدة بعد أخرى. حيث يترك الجبل للبحر سهلا يحف الطريق الدولية من الجانبين. قامت على استصلاحه شركات تابعة لبلدان أوروبا الشرقية. مزارع حديثة مدت إليها أسلاك الطاقة

الكهربائية. تضم كل مزرعة حظائر للماشية ومنازل للملاك. وآباراً تتجاوز أعماقها مئات الأمتار. وبين الفينة والأخرى كانت اللافتات العملاقة تهاجم الراكبين بقوة. معبرة عن وجود خاص خارج الزمان والمكان: وكما استقبلته على طريق المطار وهو قادم من ألمانيا. ها هى تودعه وهو يغادر الحاضرة الشرقية إلى مقر عمله بغرناطة الشرق. مصطحبا أسرته إلى القبة.

«التمثيل تدجيل ولا نيابة عن الشعب»
«لا ديمقراطية بلا مؤتمرات ثورية»
«اللجان فى كل مكان»
«شركاء لا أجراء»

عند مدخل مدينة القبة تبادل الأخوان إشارات ضوئية سريعة بالتحية. وبينما انعطف حميدة جنوبا باتجاه القبة. ظل ونيس منطلقا للأمام باتجاه الشرق.

* * * *

غرناطة مدينة الأندلسيين

على طول الساحل الشمالى للولاية الشرقية يدور بين الجبل والبحر جدل عميق. امتد لمئات الآلاف من السنين. حينا يضن الجبل على البحر بسهل ضيق. فيترك حائطاً صخريا صلدا. يضربه البحر بأمواجه الهائلة كى ما يزيحه قليلا جهة الجنوب. أو يحيله ذرات من الرمال الناعمة. مقتطعا عنوة سهولا وشريطاً ساحلياً ضيقاً. تتكئ عليه أمواجه العارمة وتكفيه كى يستريح من عناء السفر بين عالمين على طرفى نقيض: الشمال والجنوب. إذا كان للتسمية معنى جغرافى. والشرق والغرب. إذا كانت تنطوى على مذاق خاص بالهوية والتقاليد والثقافة.

ويبقى الطريق السريع أعلى الجبل مخترقا قممه لمسافات طويلة. عنيداً خطراً. مستعصياً على الترويض. يمخر عباب

السحب، وهضابه الواسعة، بمنحنياته الحادة، فتجعله على حافة الجبل، مطلا على البحر من ارتفاع سبعمائة قدم، لينفرج فجأة بالموت شاهدا على الطريق السوداء الناصعة بحبات المطر، والبحر فاغر فاه بانتظار ضحاياه.

قرب مدينة النساء يقبع البحر شاسعا رحبا، أسفل الطريق الذى يبدو كأنه يتجه إليه مباشرة، حتى يخال المرء أن السيارة ستستقر فيه رأسا، بعدها ينحدر الطريق لمسافة اثنى عشر كيلو متراً، ليطل بعدها المشهد الخلاب للمدينة التى بناها الأندلسيون.

منذ مئات السنين، ونتيجة لأعوام من الجفاف الشديد حلت بأرض الحجاز، نزحت من نجد فى هجرات متعاقبة مجموعة من قبائل البادية باتجاه مصر وشمال أفريقيا، والحلم بجنة تونس الخضراء يداعب الخيال الصحراوى الذى أمضه وقضى على أبنائه وإبله وأنعامه الجفاف.

ولم تخلف تجريدة البدو من قبائل بنى هلال وبنى سليم، للساحل الشرقى، سوى الخراب وانعدام الأمن، وارتحال سكان السهل الساحلى من المزارعين والرعاة إلى قلب الصحراء هربا من بطش الهلالية ومذابحهم، حتى تحولت المنطقة إلى خرائب جرداء، تحولها أمطار الشتاء والربيع إلى بقع واسعة من البرارى والأدغال المنتشرة بين مساحات شاسعة من العشب الأخضر الزاهى.

من قرطبة أو أشبيلية أو غرناطة، لا أحد يعرف على وجه اليقين، وعلى طريق الحج القادم من الأندلس عبر المغرب وتونس إلى مصر فبحر القلزم فالحجاز، توقف أربعون حاجا من أهل الأندلس المطاردين من الحرب الطاحنة الدائرة بين ملوك الطوائف على أرض الأندلس، درة المغرب العربى وجوهرة الإسلام، ومنبع الحكمة والجمال، بين المسلمين والمسيحيين من أهالى البلاد الأصليين، وبين العرب القرشيين والبربر من المسلمين، وبين حملة النقل والمبشرين بالعقل.

عنـد العقد المهور بين الجبل الأخضر والبحر الأبيض وسهل الفتايح الذى يمتد عشرات الكيلومترات، جذبت أنظارهم الخضرة العشبية الممتدة حتى الأفق. تلمس كبيرهم التربة، الطينة البكر المزهوة بلونها الأحمر الداكن. تذكر بلاده، فقال « وبعد عودتنا إن شاء الله هنا نستقر».

بعد أن زاروا الكعبة المقدسة بمكة أم القرى، وزاروا قبر الرسول عليه الصلاة والسلام متلمسين البركات والشفاعات. وصلوا عليه أفضل صلاة. ووقفوا أمام قبر الشيخين، وطلبوا الشفاعة. فقيل لا شفاعة فى وجود خير الأنام. فحمدوا الله وشكروه. بشفاعة حبيب الله، شدوا الرحال عائدين باتجاه الغرب، حيث استوطنوا البقعة الخضراء الواقعة بين البحر والجبل والسهل. واستصلحوا سهل الفتايح وقاموا على زراعته، بعد مواسم الأمطار الشتوية الغزيرة. فازدهرت المنطقة بالزراعة والرعى.

فى المدينة التى ستصبح عروس البحر، ابتنى الأندلسيون الأوائل بيوتهم على الطراز الأندلسى، عرائش خضراء للكروم، وحدائق تحيطها الأسوار الواطئة تدعو العابرين لقطف قطوف العنب واسترقاق النظر. وفى نهاية كل كرمة ألحق حوش يضم حجرات المعيشة. أما الضيوف فيستقبلون بحجرة مقامة عند مدخل الكرم.

هكذا تشكلت عروس البحر العارية، المدينة التى تبسط على البحر جسدها فى ارتخاء، على سفوحها عششت منازلها الصغيرة، وبين نهديها نامت أحواشها تتخللها طرقها الضيقة، وتتدفق مع الرياح جدائل شعرها الأجعد الحالك المضمخ برائحة الليل..

بعد أعوام طويلة قامت الحرب الكبرى بين قبيلتى العبايدة وأولاد العوايلة، والتى انتهت فى دورتها الأولى بدحر قبائل العبايدة أبناء عمومتهم بهزيمة ساحقة، قام بعدها شيخ العبايدة بتبنى أحد أبناء خصومه، ورباه بين أبنائه تربية الذئب بين قطيع الحملان، وعلمه

أصول الحرب وفنون القتال. وعندما بلغ التاسعة عشرة. حكمت عليه دماؤه بطلب الثأر. فزاهية ابنة الشيخ متعب أحد كبار الزوايدة التى عشقها وهام بها رفضته عن إباء وشمم. وكانت تحب حبيب ابن شيخ العبايدة. قالت تذكره «كيف بالحرة أن بعبد تبتنى».

الذى كان غائبا حضر من فوره. والذى كان تائها عرف طريقه. وبعد مؤامرة واسعة انقض الفتى بليل على شيخ العبايدة وكبيرها وغدر به وقتله غيلة. ولم يكد ينته منه حتى طارد أبناءه. فقتلهم جميعا مستصرخا أبناء جلدته فوقعت هزيمة ساحقة بقبائل العبايدة . وكاد أن يبادوا عن آخرهم. لولا حبيب ابن الشيخ المقتول الذى حاول الهرب من المذبحة. دون جدوى. كان الموت يحيط به من كل جانب. وعندما خرج للصحراء تبعته ثلة من فرسان العوايلة. يقودهم غريمه الذى أحب زاهية وانتقم من العبايدة جميعها. أما غريمه فكان تائهاً فى الصحراء على غير هدى. قتله العطش ودمرته الهزيمة. وعندما بلغوه كان يشرب بوله. فظنوا به الجنون. لحظتها عكف الفتى المنتقم على انتقامه الثانى. لقد حمل الحبيب ابن شيخ العبايدة إلى الفتاة التى أخذها أسيرة حرب. قسيمته وغنيمته. وعبده وأمه وألقى به تحت أقدامها. إذا كان هذا من تركتنى من أجله فَلْنَرَ الآن من السيد ومن العبد.

الجنون مهربه الوحيد. بال حبيب على نفسه أمام عشقه. ومد أصبعه فى بوله يلعقه. بكت الصبية حزنا. وضج الفرسان بالضحك. نكلوا به وهو يضحك ويبكى ثم أطلقوه. إلى الصحراء. وقد عفوا عن أنفسهم أن يحملوا وزر قتل معتوه.

من حافة الصحراء تحرك من فوره حاملا قميص أبيه الملوث بدم الغدر وسيف الخيانة. ميمما شطر العاصمة. رحلة شاقة من الجوع والخوف والعطش. والصراع المميت حول الحياة. بين قطعان الضباع الضالة وذئاب الصحراء. رحلة تجاوزت الألف ميل مات جواده فى

منتصفها فأكملها سيرا على الأقدام. وأمام الوالى العثمانى أحمد القراملى الذى كان يدين لأبيه. طلب المساعدة. مستصرخا حقوق أبناء قبيلته المغدور بهم. فأعلن أهالى تاجورا ومصراتة الانضمام إليه. مشكلين النواة التى كوَّنت ما سمُي بتجريدة حبيب.

بعد عام من وصوله العاصمة تحركت التجريدة التى ضمت فى ميمنتها فرسان الدلاة الذى مده بها الوالى أحمد القراملى. وفى الميسرة خفقت رايات فرسان تاجورا ومصراته الذين وعدوا بالثواب والأجر من عند الله لمن يموت شهيدا. وليس له من فدية. أما الأحياء من التجريدة فلهم بعد الحرب الغنائم والسبايا. وحقوق الفيء.

بعد ثلاثة أشهر من وصول التجريدة الشرق. جرت معارك طاحنة. حلت بعدها الهزيمة بأولاد العوايلة. وطردوا لما بعد حدود الولاية. حيث استوطنوا المناطق الساحلية القاحلة.

الذين رغبوا فى العودة من فرسان التجريدة وزعت عليهم الغنائم والمغانم والعطايا. وقرر البعض البقاء. فاستوطنوا حى المغاربة وسهل الفتايح.

* * * *

- 2 -

كان بانتظاره على مدخل مستشفى الساحل العام. أخته عائشة وزوجها النقيب مفتاح الشهيبى. تحرك ثلاثتهم باتجاه مجموعة العيادات الخارجية. وعندما بدأت زوجة أبيه عمل فحص كامل. قام ونيس بالتوجه لمدير المستشفى لاستلام عمله بقسم الجراحة. أوقفه على مدخل الجناح الإدارى رجل فى الأربعين. صاح به برعونة: وين رايح يا أخ.. بوابة من غير بواب!. وقف مستاءً للعبارات المباغتة. قال مستلهما الصبر.

- نبى الدكتور حمد مدير المستشفى.
- راك الدكتور ونيس بوزوى.
- صحيح.. تبو تقبضوا على.
- تعال الدكتور يستنى فيك واجد.

بين مستشفى الساحل العام ومستشفى القديسة هنريتا الظامئة التى تدرب فيها أثناء نيله إجازته فى الطب. كان الفارق شاسعاً. ورغم الحركة السريعة التى عبرّت بها وحوش زاحفة عن وجودها. إلا أنه تقبل الأمر برحابة صدر. وأمام الدكتور حمد البرغوثى العم الأكبر لزوج أخته عائشة. والذى خيّره بين العمل ممارساً عاماً أو العمل فى قسم الجراحة العامة. اختار الأخيرة معربا عن استعداده لاستلام عمله. وقال: أقصد أين غرفة العمليات؟.

ضحك الدكتور حمد وحدث طبيباً مصرياً يجلس في زاوية جانبية من الغرفة قائلا: إن الدكتور ونيس مستعجل واجد. فقال الطبيب المصرى من الطبيعى أن يفعل فهو تربية ألمان.

ابتسم ونيس وقال معترضا «إنه لا يقبل. صحيح تعلم عند الألمان، لكنه وأشار لصدره « أنا ونيس بوزوى تربية الجبل الأخضر، وبالخصوص القبة. بدك تعتذر لى فورا .» اعتذر الدكتور المصرى بسماحة. والدكتور حمد يقدم كل منهما للآخر: دكتور رفعت بيومى نائب رئيس قسم الجراحة بالمستشفى. الذى ستعمل معه. انظر يديه جيدا واستمع له جيدا. واستدار يحدث دكتور رفعت يخبره أنه بينه والدكتور ونيس بن الحاج مفتاح بوزوى قرابة نسب. وهو مشهود له بالتفوق. لهذا درس الطب فى ألمانيا. ونبى واجد نستفيد منه.

هز الطبيب المصرى رأسه مبتسما وقال يسأله: اسمع يا دكتور ونيس، أنا عارف إنك وصلت اليوم، ومحضرتش سكنك. تحب تستخدم سكن الأطباء؟.

اعتذر موضحا أن لديه سكناً. أجابه: إذن استلم عملك اليوم، وابدأ العمل من بداية الأسبوع. عقب مدير المستشفى: لديك راحة خمسة أيام تستطيع أن تعد نفسك. ينتظرك عمل شاق.

سار فى ممرات المستشفى على أطراف أصابعه. يشعر كأن عليه أن يكون طائرا يلامس الأرض. هنا مرضى. يقف بين الأطباء من غير الوطنيين، وأكثرهم من المصريين والهنود. بعين يقظة محاذرا. هذه أجساد بنى جلدتنا فانتبهوا وحافظوا عليها. وعندما يرتدى ملابس العمليات المعقمة، كان يتحرك بداخلها مثل فاتح. متوجها لمعركة فاصلة. عليه أن يستعمل التماع عقله وبراعة أنامله. التى يجب أن تكون فى ليونة الأفعى، وخفة الفراشة. حادة كالشفرة.. لم يتوتر قط. وهو يشاهد أمامه الجسد الإنسانى نهرا من الحيوية. ينبض الدم فى العروق والأوردة. فتتضاءل الأشياء. وتبزغ

الحياة بأسرارها العميقة، حيث يجب أن يكون المبضع مباشرا، ومساحته أقل ما يمكن، يبرز اللحم الممهور، يسيل منه الدم، وأن تلتئم البشرة بدقة نساج ماهر، وتعود الأوردة ينبض بها الدم ثانية، ويهمس: سيلتئم الجرح.. ما أعظم أن يلتئم.. إنه الجسد الإنساني.. فكر ونيس «لن أتولى أى منصب إدارى.. لن أشترك فى أى عمل سياسى.. لا لجان ثورية، ولا اتحاد اشتراكى.. اشتراكية أو وحدة.. قوالب لا تريحنى.. الجراحة فقط.. هذا الجسد البشرى سأقف ضد فنائه.. سأكون جراحا لا يضاهى.. أنا والله متشابهان، هو يخلق، وأنا أقاوم الفناء».

* * * *

من شقة تواجه البحر في أعلى المدينة المقامة على مدارج العشق والهوى، ساعده زوج شقيقته فى الحصول عليها. هيمن على البرارى مثل صياد فتى، يسعى لرزقه فى الصباح الباكر. كان يلقى من شاطئه الصخرى على المدينة الساحرة شبكة صياد وحيد، يعشق البحر وحورياته.

نهر الارتياح الذى تخلل مسامه ومشاعره، مع الوقت تحول إلى فردوس أرضى من السعادة، لقد بات عاشقا للمدينة - التى أسسها الأندلسيون - المفعمة بالجمال والحيوية. ما إن ينتهى عمله حتى يرحل لتناول طعام الغداء فى فندق قرطبة، ثم يمضى إلى شقته لقضاء القيلولة. وعلى عادة شباب المدن الصغرى يبدأ بعد انقضاء الظهيرة يجوب المدينة: أحياءها وشوارعها، ينهل من تلك الشعلة الملتهبة التى لا تنطفئ من عيون نسائها التى حملتها معهم جداتهم القادمات من شبه القارة الأيبيرية.

هنا تنزاح رياح الضياع التى تدمر السفن الوحيدة السادرة على غير هدى، تلقى مراسيها على جزر الوحدة والألم. هنا وطوال طريقه الصباحى تطل عليه، من وراء الجرد الذى يخبئ واحدة من

العيون الأنثوية مبقيا الأخرى تطل على الطريق والعالم. خصيصا عين وحيدة نافذة تأسرك مثل جزيرة متوهجة بالضوء والخضرة. تضج بحياة البر في عرض بحر صاخب مظلم. وليس سوى طوف مهشم ومئونة نفدت. جزيرة تمد روح المودة. تدعو الملاح التائه فيك للرسو على ضفافها البدوية الحارة القادمة من عمق الصحراء. أن تستلقي على جيد قضها وقضيضها صنعها فنان أندلسي. عرائش الذهب واللجين الساكن على جبهة جارية من أشبيلية. وصوت الحوريات يناديك من شواطئها الناعمة « أيها البحار التائه تعال وستجد ما تريده».

منذ الصباح الباكر تسير الفتيات في الطرقات تشتّم الرياح بنشوة الغزلان. ينثرن العشق على طرقات الأسفلت اللامعة. وواجهات محلاتها الزجاجية التي صفت بضائعها بنظام بديع. تجوبها السيارات بعشق وهوى لا يفتر. رغبة من يتلمس جسد امرأة عارية.. البرودة والدفء والأحياء الواطئة. أسطح المنازل التي تعلو كل منها كتف الأخرى مغسولة بمياه الأمطار لتمسدها أشعة الشمس الذهبية برفق ونعومة. وهي تطل عليها من خلف السحب الثلجية. تتراقص على أناملها الرقيقة حوريات البحر اللائي حملتها النسائم القادمة من البحر القابع برسوخ تحت سماء زرقاء رحبة تفوح بزهور النشوة.

هكذا كل صباح يقف في نافذته صياداً وحيداً يلقي بشباكه على المدينة التي تتوسط هضبة الصحراء. تاركة طرقاتها مفتوحة إلى البحر. صياداً لا يمل طريقه من ميدان الجبيلة إلى حي باب شيحة. يعرج يسارا إلى الحي التجاري حتى يصل الجسر القديم. ثم ينحرف يمينا ليسير بموازاة الوادي ثم يعبر الجسر الجديد. بعد مائة متر تطل ثانوية البنات. هناك يسير الهوينى حتى لا يشتت جماعات الغزلان المتوثبة بالجمال والحياة. متقدما إلى حامية المدينة العسكرية فيتجاوزها يمينا صاعدا لأعلى حيث باب الشرق. ويستمر في سيره حتى يلتقي الجبل.

فيســتدير عائدا إلى مبنى البريد فالجنســية فباب شيحة مرة ثانية. حيث مستشفى الساحل العام.

طــوال طريقه تعبره البنــات زرافات: عشــرات العيون تحدق فى تســاؤل. وأخرى تتطلع فى تألق. ثغور تفتر عن ابتســامات مشرقة. ودودة. وأنامل تربت جدائلها النافرة.. مئات من النظرات. الابتسامات. اللمسات جميعها تحايا مختلسة. يا الله ما أجملك؟؟

- خير .. تحية تهمس بها إحدى عاملات مصنع النسيج الكائن بالساحل الشرقى. يرتج جسده .. ماذا حدث؟..

تلتقــى به عيناها وهو يهم بركوب ســيارته. ويظل يحدق بها حتى تحاذيه. تهتف بالتحيه «خير». يجيب مشــدوها «خير». تعبره وقبل نهاية الطريق تلتفت نحوه وتحييه بابتســامة طيبة. يكاد أن ينكفئ علــى الأرض خائرا.. وعندما ينطلق بســيارته كان يردد: هل حدثت المعجزة؟.. فتاة تدفئنى بالتحية..

* * * *

مثل عصافير السنونو الوديعة حطت الفتيات على نافذته. ومن أسطح الدور المجاورة وشرفاتها. يطلقن عبقهن مثلما يتساقط الثلج الناصع تحت شــمس دافئة. يختلسن أوقات الظهيرة والمساء. يغمرن حجراته المكشــوفة بنظراتهــن المفعمة بالانتظار. يحملــن أطفالا صغاراً يلاعبهن. يضممهن لصدورهن البكر. يغمرنهن بالقبلات. يمررن أناملهــن بين مفارق شــعرهم. وجميعها إشــارات. دوال فى عمليات التواصل والاتصال بين ذكور وإناث عشــائر بدوية تسكن مدن الحداثة. وهو يجلس قبالتهن يبادلنه النظرات. هذا من أجلك. وذلك كى تنتبه. وتلك وحدها لك. وعندما يستلقى راحلا ليوم جديد كان ينام وهو يغرق فى همساتهن وضحكاتهن المغردة:

- لم يأت بعد..

- لا.. توا يجى ..
- ريته غادى على الطريق.
- يضحكلك يا نورا..
تضحك الفتاة وتتلألأ ضحكتها كاللؤلؤ. ولا تكتفى تطارده:
- ليش تبهت فىَّ هكى يا خوى.

ويكتفى بتبادل الابتسامات العابرة. وتتحول الابتسامات إلى تحيات وأحاديث صغيرة شيقة. على طرقات المدينة الأندلسية التى أفاقت من سبات طويل مثل أميرة بحيرة البجع النائمة. وقد خرجت الأميرات اللواتى استيقظن لتوهن: بجعات وغزلان شرعن أجنحتهن مطلقات جدائلهن للرياح القادمة من وراء البحار. بحثا عن أمير منقذ. حائرات مشوشات لا يخالطهن الارتباك أو التردد. هذه المرة غادرن الصحارى الساكنة من سباتهن الذى امتد قروناً طويلة. إلى الطرقات فى سياراتهن الحديثة. يبحثن عن أميرهن المجهول. أهو الضابط الثورى الذي حمل على عاتقه طرد الملك وإعلان الجمهورية. أم الذى تولى تحرير البلاد. كى يدخل البدو وسكان التنك القرن العشرين من آخر بواباته التى توشك على الأفول. وحقول النفط التى فاضت بالذهب الأسود يداعب أحلام الجميع بثراء غير محدود وعالم جديد.

ووسط قانون العشوائية الساحر. يتبادل غرباء ابتسامات تحمل تحايا من خلف نوافذ سيارات منطلقة فى اتجاهات متعاكسة. سؤال بسيط هل أنت الأمير الذى أيقظنى من سباتى؟

تدور المدينة بين عجلات سيارات الفتيات. جوارى سلطان شرقى. فراشات محرمة. تحيل فضاء المدينة إلى عبق من رغبات وأشواق ترسلها عبر آلات التنبيه والإشارات الضوئية. يسطع الجنون على فضاء مدينة يرقص شبابها رقصات غامضة. ثم يتركون بعضهم بعضا بلا إجابات شافية مخلفين الرغبة المجنونة فى متابعة الغزلان اللائى يقدن سياراتهن وحيدات. ويعبرنه وقد تركن به انتظار صدف جديدة. صدف صاغها شيطان الترقب والانتظار.

ممرضات. معلمات. ربات بيوت. وطالبات. عاملات وبنات عائلات ثرية. كانت تدهشه رعونتهن.. تنطلق إحداهن بسيارتها الفيات السبور الحديثة. تلقاه بالطريق. لا تكتفى بالإشارات الضوئية التى ترسلها من المصابيح الأمامية. تعقبها برفع يديها بالتحية وسط المارة والسيارات العابرة. كان يجيب بخجل. وعندما كن يصففن سياراتهن على جوانب الطريق مقتحمات المحلات الجانبية كان الجينز الضيق يهاجمه بأرداف قدت من التفاح.

الأخرى فى سيارتها الرينو البيضاء. وجهها المشرق بدر البدور يطل فى شمس شتوية. جواد على جسد رشيق وعينان مخمليتان. يتورد وجهها بالفرح لرؤيته. يصرع قتيل ابتسامتها المسروقة من وراء أسرتها. الأب العجوز يجلس بجوارها.. تدور بعينيها وراءه إلى الخلف كى ترسل تحيتها خجولة مشرقة.

فى الأماكن المنعزلة تتباطأ أخريات. تتبادلن الأحاديث السريعة. بحثا عن وعد بالحب. والحب عالم من المشاعر والأحاسيس. عالم من الوجد والسهد. تتحقق فيه للمرء كينونته. والحب طريق نهايته الزواج. أو وهم يخدر العقل الواعى. وهو أيضا عباءة من التواطؤ الصامت المسكوت عنه يخفى الغواية. والعيون نظرات ناعسة وفرح خجول. وابتسامات مسروقة. واختلاس الخيانة متعة لا نظير لها. وجموح كموج البحر يتلاطم ولا يهدأ إلا مع غلائل الليل. والمدينة ترحل إلى السبات العميق. وتبقى الفراشات لديه طيوراً جميلة سالمة ضعيفة. يجب أن تبقى طاهرة حتى يحين ميعاد أوبتها إلى أعشاشها بسلام. ومع الوقت تمر الأيام والليالى يتابع عالم من العواطف والانفعالات المشبوبة. تتدفق كسيل يرتطم بالحياة.

وكلما تداعت الأيام. يحل جحيم من نوع خاص فيبدو الكبت نقيا خالصا. وتحل عصابية الليل الطويلة محل لحظات الإشباع العابرة. ويصير ترقب تلك اللحظات لعنة دامية. وجحيما مستعرا. لا يطفئه حديث النوافذ وعالمه.

كانت صباح أولى الفراشات التى اعترضت طريقه. صبية لم تتعد الخامسة عشرة. التقى بها فى حوش أخته عائشة. أثارت المدينة بعيونها الخضراء ووجهها الخمرى. فكانت مميزة وسط أمواج الفتيات وهن فى طريقهن للمدرسة. رغم جسدها المشتهى الناضج. لم يرها سوى طفلة. عمره يضاعف عمرها. ولما تعددت لقاءاتهما عند عائشة. وتعددت أحاديثهما. وظنت نفسها ببساطة أن تكون زوجته. وأشاعت وسط زميلاتها. وهى تلقى بتحيتها له أثناء عبوره لهم فى الصباح. علاقته العاطفية بها دون أن يدرى عن الأمر شيئا. ولما أبلغت أخته عائشة بما بينهما. بوغت وأقسم دون أن تصدقه عائشة. بأن شيئاً بينهما لم يحدث. وتساءل أهى سذاجة أم فجور؟ عنفته عائشة. فلم يجد بداً من مواجهتها. لقد عرض الأمر واضحا ليس فيه لبس. مؤكدا أنه يكبرها. وأنها لا زالت صغيرة. فلم تقتنع. ولم تمض فترة حتى تقدم لها شابان. فسارعت بإخباره حتى تريه كيف أنها أنثى حقيقية مؤهلة للزواج. ودعته أن يتقدم للزواج بها. فرفض. لكنها لم تيأس. وبقيت تطارده. ضغطة الكف الساخن عند اللقاء. الابتسامة الموحية العميقة. كروت البوستال التى ضمت وسط جمال الطبيعة الأخاذ. فتى وفتاة ضم كل منهما الآخر فى وجد..

.. مسكينات.. والله مسكينات.. هذا ما عكف على ترديده. وكأنه كبش وسط قطيع من الشياه لم يبلغ نضوجه. مكتفٍ بذاته. والبقية قطيع من الإناث الوحيدات المسكينات حتى رآها..

* * * *

- 3 -

قبالة حامية المدينة العسكرية. وفى الشارع الضيق الذى يربط مدخل المدينة إلى الجسر الحديدى. عبر ثانوية البنات. يقبع محل صغير أنيق لبيع الملابس والعطور والأدوات النسائية. يدعى «حانوت بغداد» صاحبه شاب صغير يدعى «على». لا يذكر ونيس بالضبط متى وكيف جرى تعارفهما. لكنه متأكد أن الشاب هو الذى سعى لذلك. ابتسامته المشجعة. التحيات العابرة وهو يمر أمام المتجر بالسيارة. أصدقاء قدامى لحهم يجلسون عنده على قارعة الطريق. نادوا عليه عدة مرات «كولا.. بيبسى.. عصير برتقال»..

هذه المرة توقف. صف سيارته وهبط لتحيتهم. يومها تلقاه علي بترحاب مبالغ. واحتفى به كان يعرض عربوناً لصداقة عميقة.

لكن ونيس لم يكن يعلم يوم خطا بقدمه باب حانوت بغداد. الذى ليس فيه للرجال أغراض يقضونها سوى بعض العطور. أنه سوف يشتم بقايا حوانيت العباسين وأسواق بغداد وجواريها.. عدد متواتر من الجلسات حتى بدا كأنه يجلس على مستودع للأسرار الصغيرة.. طالبات المدارس الليلية. عاملات الظهيرة. الفتيات والنسوة المتجولات عصرا.. الجميع يدخلن المحل الصغير. يتسكعن طويلا ويشترين وسط أحاديث خافتة. همسات غير مسموعة. ضحكات مبتورة محورها صاحب الحانوت.

يحل الجد والوجوم على الوجوه للحظات طويلة فتتحدد مصائر علاقات: تحترق قلوب. للانزواء والحسرة. أو تبرز آمال وردية. تحل الابتسامات محل الوجوم. وتخرج الفتيات راحلات في رعونة. تهتز أجسادهن في جرأة وسفور. وأخريات يسرن خلفهن منكسات الرؤوس. وعلى وجوههن حمرة الخجل. وخفر الحياء الذي يطمئن له الشرقيون.

هنا في حانوت بغداد كانت مدينة المستلقية في أحضان البحر تكشف أسرارها.. عشرات القصص تبعث على الفرح والحزن. العذاب والمتعة. الشفقة والغضب.. هذه أغرقها الهوى. وتلك تعشق دون أمل في الاقتران بمن تعشقه. لأن أهلها اختاروا لها آخر. تلفظ أنفاسها ذبيحة. وتلك عاهرة. أما هذه فامرأة هجالة أرمل أو مطلقة. على علاقة بعامل باطون لبناني. تغرقه بهدايا العطور الثمينة. والنقود طلبا لوصاله. أما الأخيرة التي حدثه عنها علي. فقد تقلبت في نزوات عميقة بين أحضان الكثير. بعد حب عنيف سلبها عفافها ورحل بعد أن قضى وطره.. ثمار تقطف قبل نضجها.. أغصان يلقى بها إلى الهشيم. وزهور تسحقها أقدام لا تعرف الرحمة.

أثناء الظهيرة وهو عائد من عمله بالمستشفى نادى عليه علي وشدد عليه بأن هناك ما يريد أن يخبره به. فأجابه بأنه سيمر عليه مساء. قال له لا تتأخر. الموضوع مهم.

ومثل تاجر قماش في بغداد العصر العباسي. أخذه جانبا. ومالا برأسيهما معا. وهمس يخبره أن هناك فتاتين ترسلان له السلام. هتف ونيس يضحك. وقد أخذ الأمر على محمل الهزل: التنين معا.

- شنو يا أخي أنت تبصّر.. كل واحدة بروحها..
- وشنو يبوا؟
- يسألوا إذا كنت مرتبط بواحدة هكي ولا لا..
- لا بعد ما اني مرتبط...
- يقولن إذا ما كنت مرتبط بهكي تزوجها..

ضحك ونيس: تبي نتزوج الاثنين ولا واحدة؟

- شـنـو الاتـنين، واحـدة يا أخـي.. يمـكـن ما تـعـرفـهـن؟..

- أعرف كـيـف؟ حـتـى ما ريتـهـم؟

- يا راجـل..

- يا راجل شـنـو.. اقـول لك ما أعـرفـهـم.

- باهـــي يا ســيـدي.. الأولـة صاحـبـة الـســيارة الـريـنــو الـبـيـضـاء.. هادكـاهـي مـعـلـمـة تـخـرجـت من جـامـعـة الـعـاصـمـة.

- هـادي الـلـي الخـجـولـة..

قال عـلـي مـنـدهـشـا: شـنـو خـجـولـة هـادي..

- والله خـجـولـة.. أنت ما تـصـدقـنـي.

- أصدقـك واجـد. وانـت لـيش تـضـحـك عـلـي.

- والـتـانيـة هـادي غـنـيـة واجـد..

- منـو تـكـون.

- بنـت الـزروق أغـنـى راجـل فـي الـســاحـل الـشـرقـي، درسـت الحـقـوق فـي جـامـعـة الـقـاهـرة.. تـعـرفـهـا..

- من شـنـو اعـرفـهـا ؟

- تـضـحـك عـلـيّ.. حـتـى انـت تـشـاور لـيـهـا كـل يوم..

نـظـر إلـيـه مـحـدقـا: كـيـف عـرفـت..؟

- يا راجـل تـسـكـن قـدامـك.

- كـيـف عـرفـت أنـي أشـاور لـيـهـا كـل يوم؟

- هـي تـقـول.. شـنـو تـظـن شـيء يـسـتـخـبـى عـلـى عـلـي؟

- يا أخـي كـيـف تـتـكـلـم أنـت. راك حـكـيـت لـهـم عـنـي.

- أنا نـشـهـد الله كـلـمـة عـنـك مـا نـطـقـت. هـن يـجـن عـارفـات يا رجـال..

- كـيـف؟

- كـيـف .. هـن يـجـن يـقـولـون ونـيـس هـاذكـاهـي ولـد بـوزوي وأخـو عـمـر بوزوي مــن الـقـبـة. وتـو يـعـيش هـنـا. ويـقـولــون ونـيـس هـاذكـاهـي طـبـيـب حـصـل فـي شــهـادتـه من ألمانـيـا. تـرى والله حـتـى ما أعـرف عـنـك شــئ بُكّل . هـن الـلـي يـجـن ويـحـكـن..

الأميرات النائمات اللائى استيقظن مؤخرا. يبحثن بأنفسهن عن أمير نائم فى حاجة لمن توقظه.. فكرة دافئة وجريئة أزعجته وحشيتها.

قال لعلى : لا أستطيع. سأله عما لا يستطيعه. قال لا أستطيع وكفى. وغادر المحل مسرعا. وعلي يسأله إذا ما كان متزوجا فى القبة أو ألمانيا قول وما تتعبنا معاك. قال وليش تتعب معاى؟
قال علي بغضب يا أخى لما الصبايا يتعبن معاك تتعبنى أنا الآخر. صح ولا لا. قال ونيس بابتسامة عريضة: يا أخى لا بتعبك ولا بتعبهن. تشاو..

* * * *

فى ظهيرة ناعمة لمحها تسير بجوار صباح فى طريق عودتهن من المدرسة. طويلة ممشوقة. وجه قمرى وبشرة وردية. عيون سوداء تنم عن بحر من الهدوء الصلب. التقت عيونهم. ورحل كل منهما وقد انطبع فى ذاكرته الآخر. غمرته راحة دامت وهلة قصيرة. لقد اختفت. ظل ينتظر ظهورها فى الأيام التالية. بحث عنها دون أن يتمكن من رؤيتها. وود لو يسأل عنها صباح. لكنه فضل الصمت. وبقيت حلماً يبحث عنه فى الفضاء المنوم بالسكون. فى المرة الثانية لمحها تغادر المدرسة الثانوية. دار دورة واسعة محاولا أن يلتقى بها بعيدا عن عيون الفتيات. لكنها اختفت كأن الأرض ابتلعتها. لقد فقدها ثانية. وعادت للحياة رتابتها. وعاد مستسلما لآلام الانتظار ومشقته لفتاة لا يعرف حتى اسمها.

ومضت ثلاثة أسابيع قبل أن يراها مرة أخرى. هذه المرة التقت عيونهم فى استقامة. وكأنهما على لقاء عابر سريع. لقد عجلت بالعبور للرصيف المواجه للمدرسة ودخلت مباشرة الدرب المواجهة. عرف ساعتها لماذا تبتلعها الأرض. تابعها مسرعا حتى علم موقع منزلها الكائن قرب الجسر القديم.

هـذه الليلـة لم يسـتطع النـوم. كان قلقا كمن سـيجلس صباحا أمام طاولة الامتحانات. وظل يترقب مجيء الصباح والقلق يتلاعب به. استيقظ باكراً يستعجل الساعات والدقائق. وراح يذرع الدرب بسـيارته ببطء. وما إن ينتهى حتى يدور ملتفا حول الطريق الرئيسـية منعطفا مباشرة أمام الميناء إلى الشارع المؤدى للجسر القديم. وعندما ينعطف للدرب يصبح وحيدا وسط الأعداد القليلة من الطالبات المتوجهات إلى مدارسهن.

زاد توتـره باقتراب موعد المـدارس وازدياد أعدادهـن وكثرت حركة قدميه بين مكبح السـيارة ومعجل السرعة. وما إن يغادر الدرب حتى ينطلق بسرعة جنونية ملتفا فى طرقاتها الخارجية عائدا للدرب.

عندما لمحها كان الوقت قد فات. التقت نظراتهما ثم غابا. لعن توتره فقد جاءت اللحظة مفاجأة. ولم يتمكن من أن ينقل لها رسائله.

بالمستشـفى لعن نفسه. وبخها على ضعفها. ها هو يتخلى عن الهدوء والسـكينة اللذين عاد بهما من ألمانيا ليسـقط صريع كبت شرقى.

النساء والسـيارات والعام الدراسى يوشك على الانتهاء. ولم يكن ليجد فكاكا. هذه الظهيرة. والشـمس فى منتصف السماء تحكى قصتهـا. عاد إلى منزلـه بالخيبة مقهـورا يتقلب فى فراش القلق. يعد خطواته بين النافذة والفراش ينظر البحر. لم يسـتطع أن يمنع نفسـه عن الخروج. يبحث عنها وحدها. ويحوم حول منزلها طوال اليوم دون جدوى ولما بلغه اليأس ذهب إلى حانوت بغداد وجلس أمامه ينظر العابرين فى سأم.

فى اليوم التالى استدعاه الدكتور حمد البرغوثى. ذهب وهو ملول. قال له هناك وفد ألمانى قادم من وزارة الصحة الألمانية. وهناك رسالة من العاصمة يطلبون منك ملاقاته ومصاحبته فى مهمته.

تســاءل عن المهمة الملقاة على عاتقه، قال الدكتور حمد إنهم يريــدون منه أن يصاحــب الوفد فــى زيارته إلى كل مــن العاصمة والحاضــرة الشــرقية. وألقى إليــه تذاكر الســفر وبطاقــات حجز الفنادق، وأضاف تستطيع أن تغادر المستشفى من الآن. كانت مهمة مفتوحة تبدأ من الغد. وفى الخارج فهم أنه ســيعمل مترجماً على أسوأ الأحوال.

* * * *

- 4 -

من العاصمة هاتف ونيس أخته صديقة، أن عليها أن تعد نفسها لمصاحبته لحفل الاستقبال الرسمي الذي سيقيمه القنصل الأول للوفد الألماني ومرافقيه بعد غدٍ بالحاضرة الشرقية. فكرت كثيرا، قبل أن تباغته بالرفض بسبب من التهيب، قالت: شنو أسوى مع هادول المازجرية.

ضحك ضحكة طويلة وقال متعجبا: هادول المازجرية، القنصل الأول يدعو خوك ونيس بوزوى لعشاء رسمي، وتوا أنتى تقولى لى هادول المازجرية، لازم تجى معاى.

- ما أجى.

- هذا حفل عشاء كل راجل يروح ومعه المرة تبعه.

- شنو من إمتى صرت المرة تبعك، تبى تدير كدبة عليهم، أنا ما أحب الكذب بُكّل.

- يا أمة الإسلام.. شنو أسوى مع الغبية هادى.. يا صديقة، المرة تبعه قصدى زوجته، صديقته، وهكى.

- وأنا ما زوجتك ولا صديقتك.

- ما خلصت .. أنتى أختى.

- يا سلام .. تقول صحيح.

- والله نقول صحيح، المهم أن الزاجل ما يروح إشكابلى.

قالت ساخرة: لا.. أنا عندى ضيوف يجن عندى بكرة غادى، إذا كان ضرورى أنا نخطبلك ونزوجك فى 24 ساعة. باهى.

- أيوااا توا نديروا فى هزار.. ما فى حل .. باهى، ما بروح واللى يصير يصير.

- أقول لك.. خود ثريا.

- إذا أنت ما رضيتى كيف ترضى ثريا.

- أنت جى تتغدى معنا هاداك اليوم، وتوا أنا نقنع فيها.

قال وهو يغلق الخط: حتى ولو مشيتى على حبل كيف الحاوى ما ترضى.

* * * *

بعد يومين جلس فى بهو الصالة قبالة السلم الداخلى، يسأل أخته عن ضيوفها، لمحها تقف على منتصف الدرج الذى كان يحمل جسد درية المحترق بنيران الغاز منذ شهور قليلة، أصابه الوجوم فانثنت أخته تنظر حيث ينظر، ندت عنها صيحة دهشة.

كانت تقف وجلة مترددة تنظر إليهم وقد غمرها الارتباك إزاء نظرات الإعجاب التى امتلأت بها عيونهم. شعرها الملموم بكامله للوراء تاركا جبينا ناصعا من الفضة، وجهها الوردى مرصع بخدين من التفاح، شعرها المنسدل غزيراً للخلف، ثوبها المصنوع من الجبير المشكل من زهر الليمون ولونه، معلق من عنقها برباط عريض يغطى نهدين ممتلئين كفرخى يمام، تاركا كتفين عاريين، وظهر لوحين من الرخام الأبيض الصافى. من أسفل النهدين الملمومين بحزام من القطيفة الزهرية ينسدل الفستان لأسفل تاركا صندلاً من الستان الموشى بفصوص الماس، يكشف عن أصابع قدميها المطليين بطلاء الأظافر. صاح بها ونيس: يا الله وين كان كل هاذكاهى الناس يصيروا مجانين. قاطعته صديقة تخبره أن على أصدقائه الألمان أن يقدروا نساءنا أيضا، وصرخت: أعطونا فرصة يا رجال وطننا.

ومثل عذراء يطرى جمالها نزلت بقية الدرج تكسو وجهها حمرة. تساءلت إذا كانوا يسخرون منها. ضحك معبرا عن استنكاره. موضحا أنه سيعانى من السير بجوارها لفرط أناقتها.

أطرقت برأسها إلى الأرض.. عانت كثيرا قبل أن تقرر الذهاب معه. وبين الاستغراق فى الرتابة وانتهاز فرصة يندر أن ترد إلى عالمها المحدود. قررت أخيرا المغامرة. لم يبق لديها سوى أن تدفعها صديقة دفعا إلى الخروج. أن تحصل لها على موافقة الشايب. وعندما انتهت كل التراتيب الطقوسية. لم يبق سوى اختيار ثوبها. وطوال الظهيرة قلبت عشرات الفساتين والأحذية التى لم تستخدم سوى مرات نادرة. بعضها لم يسبق ارتداؤه. إلى أين يمكن أن تذهب به وكلها موديلات من روما وباريس.. أخيرا هذا الفستان العذب. فهل أساءت الاختيار؟ قالت: لن أذهب إذا كان هذا يضايقك.

ضرب جبينه بانفعال: إنها تتصرف كالأطفال. قال بجدية: ينبغى عليها استخدام قلادة من الفضة بدلا من كل هذا الذهب الذى تلف به عنقها وساعدها. واستطرد: لو فعلت لاكتملت فتنتك.

صعدت ثريا وعادت تحيط عنقها بعقد من الماس أبرز عنقها العاجى. وعندما غادرا الفيلا سويا كان ونيس بوزوى يحدث نفسه عن المفاجآت التى تتوالى عليه. بينما ثريا تشعر للمرة الأولى أنها سيدة فاتنة تعامل بشكل راق.

* * * *

فى الحفل الليلى لم تخف زوجة رئيس الوفد التى توثقت علاقتها بونيس إبان مرافقته للوفد فى العاصمة لمدة تجاوزت أسابيع إعجابها بثريا. سألته على مدخل الحديقة الداخلية للفيلا هل هى صديقته؟. ضحك وقد أعجبته المفارقة. ورأى فى عينى ثريا تساؤلا. فمال يخبرها بما تظنه السيدة. ابتسمت وسرها أن يراها البعض لا

تزال فتاة. وعقبت الألمانية إنهما مناسبان كل للآخر. عادت ضحكته ثانية ينفى ما تظنه. موضحا أنها زوجة أخيه. ند عن السيدة اعتذار، ولامته لكونه كان يجب أن يخبرها. أوضح أنها لم تعطه الفرصة. قالت: أوه وماذا أفعل. إنها جميلة. من فضلك بلغها اعتذارى.

ترجم لها أقوال السيدة. هزت رأسها وتقدمت إلى الداخل حيث الأثاث الفيكتورى العتيق. تتناثر فى أرجائه كميات من الزهور تبعث على الألفة والارتياح.

فى غرفة الاستقبال كانت ثلاث أسر ألمانية تقيم فى الحاضرة الشرقية وفتاة مراهقة فى الرابعة عشرة. جلست ثريا ضائعة لا تدرى ماذا ينبغى عليها أن تفعل. وقد شعرت بالثقة تهرب منها وونيس يتحدث معهم عنها. ولما جاء اسم زوجها عمر بانت الدهشة على وجوه الرجال. وحلت على وجوههم مشاعر الاحترام والإكبار مع ارتفاع حدة الحديث. وونيس ينظر إليها ويبتسم. فجأة وقف رجل وتقدم إليها وانحنى يسلم عليها بحرارة وحدث ونيس بكلام أخذ يترجمه لها.

قال إنهم يعربون عن سعادتهم بوجودها بينهم. فهم يقدرون زوجها ويحترمونه. وعقب ونيس: ها هو عمر بلغت شهرته الألمان.

ارتبكت ولم تدر ماذا يمكن أن تقول. قال وملامح وجهه ثابتة. تبعث فيها الاطمئنان. بأن لا تهتم. أن تقول أى كلام فلن يفهموا شيئا. سأقول إنك سعيدة بقدومك هنا. قالت له أن يقول ما يراه مناسبا. ففعل.

قال أحد رجال الأعمال الألمان: من المؤسف أن يعامل رجل فى مكانة السيد بوزوى بهذه الطريقة. فهو مهدد بالتأميم. واستدار يحدثها بأن هذه معاملة فظة خشنة. واستطرد متسائلا: كيف يتركوه يعمل بكل هذه الطاقة. ثم يحاسبونه على نشاطه ويفكرون فى الاستيلاء على أمواله..

ترجم لها ونيس ما قاله الرجل. تساءلت كيف يعلمون كل هذه التفاصيل. أجابها ونيس بأن زوجها رجل مشـهور فى عالم الأعمال والمقاولات. لا يخفى عنه شىء بالبلد. سأخبرهم أنه فى أوروبا يمارس أعمالاً خاصة به. ما رأيك؟ قالت كما ترى. طلب منها أن تتحدث قليلا. عاد لها ارتباكها. وسألته ماذا يمكن أن تقوله. فأمسك يدها وقال بهدوء قولى أى شىء. اشتميهم مثلا. ضحكت وعندما حدثهم قالوا له إنه أحسن التصرف. ولما انهمكوا فى الحديث جذبت يدها فى بطء وراح عنها اضطرابها واستعادت صفاءها للحظات. كانت ترى ونيس محور الجميع. يتحدث بثقة. يضحك بثقة. وينظر مشجعا إياها. لا ينساها وسط هذا العدد الغفير. فتطمئن وتستعيد من عالمها القلق شعوراً بالراحة.

لاحظت أن النساء الثلاث يتحدثن ثم ينظرن إليها. والفتاة تستمع. وعلى وجهها ترتسم الدهشة. قامت ترجوها الوقوف. فلما فعلت ثريا استدارت الفتاة خلفها وصاحت من العجب صيحة انتبه لها الجميع. كانت النسوة الثلاث يتلمسن جدائل شعرها المنسدل أعلى أردافها. وبقية الرجال يتطلعون نحوها بإعجاب.

لاحظت ابتسامة ونيس وعينيه اللامعتين تنقلان سعادته بها. همس يخبرها أنها ستورثهن الجنون. قالت فى ألفة: بالله عليك لا تسخر منى.

بالطابق العلوى أخذتها الفتاة المراهقة ابنة القنصل. إلى مرسم صغير تناثرت فى أرجائه لوحات لم تكتمل بعد. وحامل فى المنتصف عليه لوحة وأدوات رسم: فرش متعددة الأحجام وألوان جواش. وأريكة واسعة.

فى الشرفة شاهدت ثريا المنظر الذى كان مرسوما على اللوحة الموضوعة فوق الحامل. حى العزيزية تطل من ورائه بحيرات المدينة. وخلفها البحر. تعقبها غابات القوارشة. تحدثتا بالإشارة. عندما لاحظت الفتاة اهتمام ثريا بألبوم اللوحات الفنية أصرت أن تعطيه

لها. حاولت الرفض. لكن الفتاة باغتتها فقد التفتت نحوها بغتة. وقبل أن تفهم ماذا يجرى. شبت على أطراف أصابعها وقبلتها من ثغرها. ارتبكت وقامت والألبوم فى يدها تهرب من جدل لا تعرف دوافعه. وخرجت تخفى ارتباكها.

* * * *

فى الليل وبعد أن نام الجميع جلست ثريا فى حجرة نومها وحيدة تسترجع الأحداث أشياء كثيرة لم تفهمها وعلى الأخص ونيس. لوغاريتمات غامضة غير مفهومة. كل شىء غامض على الفهم. خاصة إنها لم تدرك ما إذا كانت سعيدة أم تعيسة. الشىء الوحيد الذى تمكن منها هو ألبوم الصور الذى فتحته على مصراعيه أمامها على الفرش.

أوزوبا. طرقاتها وقلاعها القوطية. قصورها القديمة. جسورها المنشأة من العقود الحجرية. جبالها المغطاة بالثلوج. وامرأة تلقى بشعرها إلى الريح بحرية الروح والجسد. أزياء النساء القصيرة وأجساد النساء العارية على شواطئ جنوب أوروبا.

عندما أطلت لوحات الفنانين الكبار. ألقت ثريا بكل ما يخص الرسم الحديث والسيريالية والرمزية. وكل ما بدا مشوها عن الطبيعة وتوقفت أمام لوحات فان جوخ.. الألوان البهيجة والأضواء التى تشع بالدفء. خضرة العشب الطازجة. السحب المتناثرة على سماء صافية بالزرقة تخيم على بحيرات. وأكواخ نائمة بين الطبيعة. ودواب وأناس بسطاء يبدو عليهم أنهم تذوقوا السعادة يوما.

توقفت طويلا أمام لوحة «الغداء على العشب» أدهشها عرى جسد المرأة المتكئة على العشب: النهدين القويين. الأرداف الممتلئة. استرخاءها اللين. ممددة بين رجلين فى كامل ملابسهما الرسمية. والغداء الموضوع على شرشف وسط الطبيعة. حاولت أن تجد معنى لنظراتها المستسلمة. ربما المرأة الضحية. لماذا تشكل لديها يقين

بأن ونيس لن يكون أحد الرجلين. مؤكد عمر والثانى أبوها. لحظتها شعرت بأن من تتزوج ونيس ستكون سعيدة. داهمتها الكآبة. ورأسها الموجوع. يتناثر شظايا صغيرة. كلما عنَّ لها أن تفكر فيما إذا كانت إنسانة أم مجرد متاع فى منزل وسمعة عمر بوزوى.

الفظاظة تأكدت أمام لوحات «جويا». بوغتت بوجوه قساوسة سحرة ومشعوذين. حفرت فى ذاكرتها معنى العنف فى الحياة: البغض. الحب. القسوة. العرى. الإعدام. الخيول . الموت تحت سطوة محاكم التفتيش.

توقفت أمام مجموعة من اللوحات لشواطئ يتناثر على أرجائها المصطافون. وأجساد نساء تشق البحر مغسولة بمياهه المالحة.

ماذا حدث؟ لا تعرف بالضبط سوى أنها وقفت طويلا تنظر حمام السباحة الكائن فى الباحة الأمامية للفيلا. قبل أن تتحرك تجاه خزانتها وتخرج واحداً من تلك المايوهات. ومثلما تمارس فتاة غضة العادة السرية. خلعت ثريا ملابسها لترتديه. شرائط رفيعة تجمع بين قطع لا تتجاوز حجم كف طفلتها تخفى حلمتى النهدين وثلثه. ومجرى اللغز فى قبتها. بينما يبقى كل شىء فادحا فاضحا. داهمها شعورٌ بالذنب من ذلك النوع الذى يؤرق الضمائر. وكأن الله يراها. وخوفا من أن يدخل عليها أحدٌ. أغلقت باب غرفة النوم من الداخل. وجلست فى عريها المشروط بقطع تكشف أكثر مما تخفى. على كرسى. تتابع حمام السباحة ومياهه الزرقاء من شرفتها فى الطابق العلوى.

* * * *

استيقظت مكتئبة تبحث عن من تفرغ فيه همومها. استقبلته على الغداء بخشونة. وتركته فى حيرة. ولما همت صباح بالخروج معه عصرا زجرتها بغلظة. تمسحت بها الطفلة كى تسمح لها بمرافقة عمها. لكنها دفعتها عنها فوقعت على الأرض تبكى.

خرج يرثى للطفلة المسكينة. متعجبا من سلوك امرأة أخيه. لا يجد تفسيرا معقولا. حتى بات يشك فى سلامة طويتها. وطبيعة معاملتها المتناقضة معه. وهلة ارتاح لفيض من مشاعر الشفقة. لكنه نحاها. فالشفقة لا تجلب سوى النحس. وقرر مقاطعتها نهائيا.

كان الوفد قد رحل إلى مدينة بالولاية الجنوبية مع آخرين. على أن يعود ثانية فبقى فى الحاضرة الشرقية ينتظره. بعد أيام طلبت منه ابنة أخيه الخروج معه. وعززت ثريا طلبها بأنها تبغى شراء بعض اللوازم والأغراض. رفض وتعلل ببعض الارتباطات. وأشار لحميدة. الذى رفض رفضا قاطعا متعللا بأنه قادم لتوه من القبة. حيث أمضى أسبوعاً كاملا يعمل سائقا للشايب والعجوز. وأوضح أنه يريد التركيز فى الامتحانات المقبلة. واستدار لها قائلا إنها تستطيع الذهاب وحدها. أجابت فى حدة: مو توا. عمر فى اليونان وأنا ما أخرج إلا أن يكون رجع.

فهموا ما تعنيه. رجى حميدة ونيس أن يذهب هو. متعللا بأنه تأخر فى المنهج ويلزمه الكثير للحاق بزملائه. وأضاف همسا. إنها ستذلهم حتى يحين مجيء عمر.. بالله عليك روح معها. ودون أن ينتظر رده. قال لها مؤكدا: توا يروح معاك د. ونيس وين ما تبى. قامت غاضبة منفعلة موضحة إنها لا تغصب أحدا على الخروج معها. وستنتظر فى السيارة. وليأت من يأتى.

فى السيارة جلست ثريا فى المقعد الأمامى مزهوة بإجبارها له على الخروج معها. وانكمشت صباح بعيدا عنه. بعد أن مر أسبوع لا يحدثها. بعد قليل اقتربت ببطء. وشرعت تحتك به مثل قطة. ثم ما لبثت أن استدارت فجأة لتدفن وجهها فى صدره وتضمه بشدة.

اضطرب مقود السيارة بين يديه. واضطرب قلبه لمشاعر الطفلة المتوحدة. شعر بإساءته لها. أخذها بذراعه اليمنى. وضمها وهو يمسد شعرها. وأمها تصيح بها: أيوه.. أيوه.. تحبيه يا خايبة وهو ما

يحب جدا. قالت الطفلة إنها زعلانة واجد.

سألها السبب. قالت لم يعد يأخذها بالسيارة لمشاهدة البحر كما كان يفعل. قالت إنها ترتدى ملابسها عصر كل يوم وتنتظر دون أن يهتم.

تذكر أنها فعلت فى اليوم التالى الذى عنفتها فيه أمها. بحث عن حجة. لكنها قالت بإصرار إنه لم يكن مشغولا. كان يشاهد التليفزيون. صمت مصدوما. ولم يستطع التعقيب.

أمام سوق الظلام غادرت السيارة وتركتهما معا. وعندما عادت بعد نصف ساعة. أخبرته أنها كانت تنتظره يوميا. ترتدى ملابسها وتنتظره. وعندما يستمر فى تجاهله لها. تأتى وتسألها لماذا هو غاضب منها. فتقول لها عمك يحبك اذهبى إليه وحدثيه فتأتيه. تحاول إثارة انتباهه دون جدوى. كان يصر على تجاهلها. اليوم رفضت أن تغادر حجرتها ولم تفعل إلا بعد أن أخبرتها أنه سيأتى معهما. واستطردت بنبرة اتهام وصوت مطوط: مسكينة بنيتى لا تجد من يعطف عليها.

انقبض وجهه ودهش لغرابة أفكارها. وأخذ يجزم بأنها امرأة متقلبة المزاج. تجنح للشر. وفى ميدان البلدية صف سيارته بعناد وسط الميدان المزدحم. طاف بالمحلات والطفلة لا تتركه. وكلما حاولت أمها أن تأخذها ابتعدت عنها والتصقت به. أحضر لها حلوى. وفى سوق الجريد اشترى دباً كبيراً وقطاراً آلياً يقوده قرد صغير.

ضمته بين يديها الصغيرتين وقبلته سعيدة. وفاحت منها رائحة زغب الطيور الوليدة. وأمام مبنى البريد المركزى ابتاع لها مجموعة من المجلات المصورة. وفى السيارة سألها إذا ما كانت لا تزال غاضبة منه. فأجابت بالنفى. سألها فكم يبلغ مقدار حبها. فتحت ذراعيها على سعتيهما. ضمها لتنام فى حضنه . وكلما حاولت أمها أن تأخذها رفضت لحد البكاء.

كانت الطفلة تعوق قيادته. بدا عليها أنها تنوى إيذاءها. تدخل هذه المرة بحزم: تروى شويه. شنو بيكى.. اتركيها تفعل اللى تبيه. استاءت. ودت أن تزجره. لكنها كانت لا تعرف ما الذى ينبغى فعله. ساد الصمت والسيارة تدور فى طرقات المدينة. وبدت كأنها تفقد الثقة فى تصرفاتها.

فكر بغضب.. هذه امرأة مصمتة.. تركت دراساتها الثانوية وماتت منذ مئات السنوات. أى قيمة أخلاقية ترتكن عليها عدا الانطواء فى كهف الوحدة والتقلبات المزاجية.. هذه المرأة يهجرها زوجها أشهراً طوال ويخونها أينما ذهب. وليس من المستبعد أنها تعرف.. هل استخدم آيات من القرآن.. لقد تكلس داخلها وقد أحكم الرتاج عليه. وأحكم الحصار الاجتماعى عليها جيدا. فلا معنى لديها للخير والشر. لن تكفيها أحدث أنواع الموضة والسيارات ورصيدها فى البنك لتستقر نفسها.. إنها بانتظار علامة ما لتتبعها.. يا الله كيف أبدأ حديثى معها.. انحرف بسيارته جهة بحيرة المدينة.. هذه المرأة وحيدة أحيطت بسياج من الجهل والرتابة. وهى تقاتل بالصمت الشرس. تود لو تنفث مقتا وكراهية تحرق الجميع. ولا تجد منفثاً لانفعالاتها المكبوتة سوى ابنتها.

أشار بيده للمدينة القابعة أمامه خلف البحيرة. وأضواؤها الناشز تطل من وراء الغيوم. حدثها دون أن ينظر إليها : مدينة مريضة بفقر النفس. تحكمها صرامة موقف عقلى متخلف. توءد المرأة وهى على قيد الحياة. وتباع لمن يدفع أكثر لتوءد من جديد. تأخذ الأمهات ثمن حليبها ذهبا ونقدا. ويرضع الأطفال الجهل والأذى والانفعالات المكبوتة من صدور أمهاتهن.. هنا يبحث الشباب عن عالم وهمى فى المخدرات والخمر بعد أن قمعت لديهم أية إمكانية للتواصل الطبيعى مع الآخرين. لا متعة طبيعية. لا حياة اجتماعية سليمة. لهذا يهربون عبر الحدود لقضاء حاجاتهم الجنسية وشعور زائف بالحرية يحصلون عليه مدفوع الثمن بين الراقصات

والعاهرات خارج الحدود.. نباهى بغزو النساء ونشرب الخمر حتى الثمالة. ونتبارى فى الحديث عن عدد الكلسات ومشدات الصدر التى أهديناها لعاهرة.. هنا مجتمع أبوي فوق العادة.. يستوى فى ذلك سائق شاحنة، أو رجل أعمال.

لمح شفتيها المزمومتين. عيون لقطة تنفش شعرها استعداداً لنشب أظافرها فى وجهه. توقف برهة مخففا من انفعاله وبتوسل: أتدرين.. هذه البنية المسكينة ينطبع فى ذاكرتها البيضاء كل أذى موجه إليها أو إليك. وأن تكون إنسانة سوية أو مريضة نفسيا مرهون بنقاء ذاكرتها.. أرجوك أعطيها قليلاً من القسوة، كثيراً من الحنان.. وشخصية لا تتغير بين لحظة وأخرى دونما سبب معلوم؟

تحرك بؤبؤ عينيها ليحل استغراب مبهم. أيتوسل إليها من أجل طفلة!.. قبل أن تحل معالم الاستنكار محل الدهشة. استطرد بتوسل يرجوها ألا تضربها. أشار إلى درية وناصر: الأولى التى ماتت محترقة، والثانى الذى غادر البلاد مكسورا. والسبب آباء لا ينصتون لأبنائهم.. مفضلين إلقاءهم فى التهلكة، وهم فى رضا. واستطرد موضحا أنه لا يريد التدخل فى حياتها، أو شؤونها الخاصة، وأنه لن يسمح لنفسه أن يفعل طالما أنها تفضل الحياة داخل صدفة صلدة تخشى من يقترب منك وأضاف: سامحينى إن أخطأت لكن المسكينة هاذى ارحميها.

قالت مستفزة، وفى عينيها بغض لمشاعره تجاه ابنتها: لشنو جيت بى أهنه.

انتفض. ها هى تستعيد نفسها. صمت برهة كى يتحكم فى انفعالاته، ثم قال وهو يلقى بمفاتيح السيارة أمامها على التابلوه. ويفتح الباب ويدلف خارجا «شنو تظنى في شوفير الهانم». وقبل أن تفيق من الصدمة ركب سيارة أجرة ورحل.

عقبت الطفلة التى كانت تجلس دون أن تفهم شيئا مما يجرى بين أمها وعمها، سوى ما ينقله لها تعبير الاستياء على وجهيهما.

قالت: ليش هو غاضب. وين راح عمى ونيس؟ نهرتها وهى تنتقل لمقعد القيادة. أدارت السيارة بعصبية وعادت للخلف بسرعة دون أن تنظر فى المرآة العاكسة. صرت خلفها عجلات سيارة فولفو تتحاشى الاصطدام بها فى اللحظة الأخيرة. لم تهتم ثم اندفعت للأمام وعجلاتها تصر فى الأرض صريرا شديدا.

* * * *

فى الفيلا دخلت تبحث عنه. وهى تنوى أن تنكل به أمام أمه وامرأة أبيه القادمتين لتوهما من القبة. لم تجده فانتظرته متوثبة تنكل بالطفلة البائسة وعيونها تبك الحقد. وعندما ذهبت إلى جدتها كى تريها ما أحضره لها عمها. دفعتها لأعلى وهي توشك أن تمزق مجلاتها المصورة. والطفلة تبكى بمرارة لا تعرف جريرتها.

حتى الثانية عشرة لم يأت. وبين الطابق العلوى والبهو. لم تتوقف عن الصعود والهبوط بانتظاره. حتى علمت مصادفة أنه تلفن إليهم بأن يجهزوا حقيبة سفره ليرحل إلى عمله فى الصباح الباكر.

صعدت مهدولة الأطراف. نضت ثيابها عنها. وهى تتحرك فى غرفة نومها فى عالم من البطء. وعندما تمددت للنوم. أخذت ابنتها فى حضنها بحنان. وكلما جذبتها كوابيسها إلى صحراء الرعب كانت ثمة أنامل صغيرة تمسح عن عينيها الدموع.

فى الثالثة صباحا استيقظت من كابوس مرير. كان عمر يغتصبها وهى تحاول مقاومته بكل ما تملك من كراهية. جلست القرفصاء تستعيد هدوءها. شعرت بقدومه فودت لو تنزل لاستقباله لكنها لم تستطع أن تفعل. ورغم ذلك بقيت مسهدة. أطلت بناظريها إلى حمام السباحة الذى جرى غسله وتغيير مياهه اليوم. تمنت لو تستطيع أن تخفى جسدها فى مياهه. ولما كانت تعرف استحالة الأمر. رحلت لخزانتها. تستحضر واحدا من تلك

المايوهات الإيطالية. وعندما وقفت عارية أمام المرآة ترتدى قطعتيه. كانت تتطلع إلى جسدها: كان تاما. بحثت عن عيب ما دون جدوى. ورغم ذلك لم تكن سعيدة. حانت التفاتة منها إلى ابنتها النائمة. كانت تفهق.. شعرت بالجزع وأخذتها فى حضنها.

بعد الفجر بقليل سمعت حركة تجرى بالطابق السفلى. توقعت قرب رحيله. عز عليها أن تنزل لتودعه. فوقفت فى منامتها بالشرفة. داهمها الصقيع. تابعته يعبر مدخل الفيلا إلى سيارته. لم يلتفت وراءه. جلس خلف موقود السيارة متجاهلا شبحها الذى كان يطل من الشرفة العلوية. دار المحرك وأز بقوة. وعندما تحرك مغادرا المكان كانت تشعر بالاكتئاب، وكان صدره يمتلئ بالتعاسة.

* * * *

- 5 -

مدينــة الأندلســيات ثانيــة: الأنثــى المتوجة بعرائــش العطر، الممــددة تحت رياح الصيف تلفح منازلها وقبابها وطرقاتها، الهوس الذى عاشه منذ أسابيع قليلة اختفى، فقد حلت الإجازة الصيفية وتلاشــت الأوهام التى فجرتها مدينة النســاء السافرات المشاعر، المتشحات من قمة الرأس إلى أخمص القدم بعباءات لا تكشف إلا عن عين وحيدة لأنثى الصقر.

شــرط غــزو المدينة أن تكــون كاذبــاً، أو تتقبل علاقــة الصياد والضحية، كى تســقط الفريسة ســريعا ينبغى أن تلقى فخاخك بطعم الزواج أو الحب، وكيف تعرض أيا منهما على من لا تعرفها أو من يدق لها قلبك.. سيان..

أغلق نوافذه مستســلما للإجازة الصيفية، متخليا عن رحلات الصباح والظهيرة التى لم يعد لها قيمة، بعد أن فرغت المدينة من جحافــل الطالبات اللائي قبعن فى دورهن، أو رحلن للبوادي، وعكف يمضــى وقته كيفما اتفــق، متقبلا القيام بورديــات غالبية الأطباء، حتى بدت ظاهرة واضحة، كل من يريد أن يتخلى عنورديته لقضاء حاجة، لديه دكتور ونيس، ســيتولى عمله بصــدر رحب، ورغم هذا تجاهل حضور المؤتمر الشــعبي الذى عقد بالمستشفى عندما عرض عليه مساعد رئيس التمريض الأخ عبد اللطيف الأمر بإغواء يوشك بالاحتلال الفورى لمكتب مدير المستشفى.

تراجع مندهشا، فالرجل موقن بأنه طبيب تخرج لتوه، سيضعف أمام الإغواء باحتلال منصب يحتاج الوصول إليه عشــرات السنين

وأضاف: وليش لا الدكتور يترك المستشفى قبل نهاية العام.

- ولـو.. أكـو فيـه أطبـاء كتيـر أكفـأ يديـرون كيـف هـاذى المستشفى.

- كلهم مازجرية.

- فيه الدكتور صالح بن سالم له خمسة وعشرين سنة خبرة.

- إذ بتدخل اللجان الثورية بتكون المدير.

كان لا يـزال فى الأيام الأولى لعمله. نظر إلـى الممرض عاجزاً عن الفهم. كيف يمكن لمثله أن يقرر مصير مستشفى المدينة. قطع الرجل تفكيره وقال وهو يضغط بثقة على كتفه « كل السلطة للشعب.. كل السلطة للجان» شنو بيك يا دكتور، كنك؟ تدخل معانا تصير مدير المستشفى حتى قبل أن يرحل المدير. توا أنا نترك فيك تفكر.

كان يريد أن يقول له لا حاجة للتفكير. لن يدخل لجاناً. سيهتم فقط بعمله. لكن رحيله جعله يشعر بالقلق وكأن الممرض يحمل لـه تهديدا. وأضـاف عندما لمح دهشـته وهو يصـرخ غير مصدق العرض الذى عرض عليه لتوه: معقولة! . قال يعلمه بالسبب الذى من أجله استدعاه الدكتور البرغوثى وهو يمضى مبتعدا: هو يريدك كى تستعد لاستقبال الوفد الألمانى.

قالـت عائشـة وهى تضع طعام العشـاء بين زوجهـا النقيب مفتاح الشـهيبى وأخيها: تسافر غرب ومرة شرق هادا شيء يدوخ العقل. يبو يعطوك فلوس واجد.

ضحـك زوجها وقال: الفلـوس الحقيقية يحصلهـا رجل مثل عمـر. ونيس موظـف حكومة يحصل دينـارات قليلة. عمر يحصل فى ملايين.

قالـت منفعلة: حق الله هذا خطأه.. ليش دخل الطب. لو كان يصير مهندس كان صار له شركات كبيرة واجد.

تسـاءل ونيس لماذا يجـب أن يكون للمرء شـركات كبيرة؟ كى

يحصل على مال. إنه لا يريد فلوساً. يكفي عمر وحميدة. الأول نصاب كبير. والثانى سيكون مهندساً كبيراً.. أى أيضا نصاب كبير. وضحك. قالت أخته تلومه: يى يى يى.. كيف تتحدث عن خوتك هكى. عيب عليك.

نظر بينها وبين زوجها. ثم انفجر فى حنق: عيب عليكى أنت. تقوللى ليش ما أيصير مهندس. أنا ما نحب الزلط والرمل يصيروا خوتى. أنا نعمل فى الحياة اللى أعطاها لينا الخالق. أحميها من أعدائها وهم كتير واجد. أنا نقاوم الموت اللى يصير فى الجسد البشرى. توا نعاود نسافر ألمانيا نحصل فى الدكتوراه. بس فى جراحة العقول بيش نعالج العقول هادكاهى اللى تحتاج تجميل وتحسين وتطوير. أنا ونيس نصير أكبر جراح فى الشرق. لما أن يصير عمر أكبر مقاول فى الشرق.

ضحكت عائشة وقالت له وهى تدعوه لتناول العشاء: هيا كل.. والله وربى فى سماه أنت اللى تحتاج فى جراحة تعدل فى عقلك هذا اللى يبى اسبتلية المجانين.

نظر إليها مصعوقا: صار هكى..

- أيوه أنت هكى. تدخل زوج أخته يخفف من الجو المشحون: امتى تبى تسافر. نظر إليه وانفجر فى الضحك وسأله إذا ما كان يريد التخلص منه.

شعر الرجل بالحرج وقال نبى اتخلص من العراك الداير بناتكو.

- ماشى يا سيدى. أنا ما نسافر هم يجن.

- وين لما تسافر إذا ترغب أكلم الرائد عمر يعطيك شقة فى استراحة الضباط.

- ليش صدقت اللى تقوله عيشة. مين مجنون يدخل الجيش بنفسه.

فتح النقيب فمه وضحك غاضبا: والله اختك عندها حق.

- شكرا سيادة النقيب. كافى هكى أنا نروح أحسن ما تطردونى.

فى العاشرة من صباح اليوم التالى نودى عليه فى الميكرفون. توجه لغرفة العمليات. طلب منه الدكتور رفعت أن يستعد للعمل معه فى عملية ولادة قيصرية. الآن سيساهم فى إخراج طفلة إلى الوجود.

كانت زوجة جراح هندى منع من التدخل الجراحى لحالة زوجته. فوقف فى الخارج والقلق يقتله. بينما ونيس يتابع الأنامل الماهرة للدكتور رفعت بيومى. وهى تجرى عملها بدقة متناهية وبلا نقطة دم زيادة. أو مليمتر أكثر مما يجب. هو أيضا كان سعيدا باستقبال الهنود العاملين بالمستشفى له استقبال الأبطال. والتحيات التى كانت تؤدى له تنم عن التقدير.. على الباب الخارجى للمستشفى ردد لنفسه فى إصرار جراح ماهر هذا ما نبغيه بالضبط.

ترك السيارة وقرر أن يذهب لتناول طعام الغداء سيرا على الأقدام بفندق قرطبة. عبر باب شيحة مستقبلا النسائم الخفيفة تلسع وجهه. وعندما انتهى من تناول طعامه. أشار له الجرسون بأن أحداً يطلبه على تليفون الاستقبال. توقع حالة طوارئ بالمستشفى. لكنها أخته عائشة كانت على الطرف الثانى تسأله إن كان يستطيع اصطحاب زوجها معه فى طريقه للحامية الشرقية غدا. حاول أن يعرف إذا ما كان هناك خطب ما. لكنها قالت إنها لا تعرف على وجه اليقين. لكن يبدو أنه عين آمراً للقاعدة العسكرية. شعر بالاستغراب الشديد وهاجمها قائلا: ايش بيك يا عيشة زوجك لا يزال نقيبا. ترى أترقى و لا لا. بدا أنها مضطربة وتوشك على البكاء. هدأها فى محاولة للتخفيف عنها: يا ستى مبروك توا مفتاح يحصل فى رتبة رائد مؤكد. قالت إنها ما تبيه لا رائد ولا شىء بُكّل .. هيا يا أخى بالله عليك تكون فى الفجر قدام الحوش بييش يصير فى القاعدة قبل الفجر.

* * * *

فى طريق عودته للمستشفى سار الهوينى وسط الشوارع الخالية غير قادر على استيعاب القلق الكامن فى حديث أخته. وبينما الرياح تعبث بالمدينة مشكلة لوحة تشكيلية من الانتعاش لمدينة تطل على البحر. لمحها تبزغ فجأة من طريق جانبى، لتنعطف باتجاهه. أصيب كلاهما بصدمة. حتى إنه فكر فى العودة دون أن يعرف لماذا. لكنه سار مشلولا صوبها مباشرة. عندما لمحته ارتجت وأطرقت للأرض. وعندما رفعت ناظريها كان يتطلع إليها وهو لا يزال متقدما نحوها.

كانا وحيدين فى طريق ضيقة. عدا بعض الصبية. وَدَّا لو يختفيا من العالم. وهو يتلقى العيون السوداء مثل مراهق يتلمس أولى تجاربه الرومانسية. وكلاهما يبطئ من خطواته. ونظراته تحمل للآخر كل المعانى والأسئلة: مثل أين كنت؟.. انتظرتك طويلا؟.. بحثت عنك فى كل مكان؟..

سالمين التى جفلت مثل ظبية تتشمم الريح ومن خلفه الخطر. أحنت رأسها. وخشى ونيس أن تتجاوزه فتذهب فرصة العمر. استعاد كل ما فكر فيه طويلا أثناء وجوده فى العاصمة والحاضرة الشرقية فيما لو التقاها. أن يعرفها بنفسه. يقف قبالتها ويناديها.. يا آنسة أعرفك بنفسى.. ونيس بن الحاج مفتاح بوزوى طبيب جراح بالمستشفى العام. أود أن أتعرف عليك فهل تسمحين.

فتقول له اسمها وبأى صف تدرس وقد يتواعدا على لقاء ثان. أو لا يسعفه الوقت ولا الناس. لكن كل هذا توقف فى حلقه. وخاف أن يذهبا دونما كلمة. ثم يحل الندم وقرض الأنامل. استجمع شجاعته وأسعفته ذاكرته الهاربة. فألقى لها بكلمة تحمل كل المعانى التى يرغب أن ينقلها لها. همس قائلا وهي تعبره مطرقة الرأس:

«يا عَلَمْ»

وتجاوز كل منهما الآخر وسمعته ورفعت رأسها للسماء. وجدتها واسعة رحيبة، وشعرت داخلها يبتهج بالحياة وودت لو تقفز. تجرى مثل طفلة حصلت مبتغاها. سعادتها الخاصة التى انتظرتها طويلا. وأخذت تردد ما همس به إليها طويلا:

«يا عَلَمْ»

انثنى للخلف فلمح خيمة من الشعر الحالك السواد تعبر ردفيها. جن وانثنت إليه. لمحته ينظر إليها فتراجعت خجلى والابتسامة تغمر وجهها..

قصد البحر. ملأ عينيه من الشريط الضيق للشاطئ الرملي المرتكن على الجرف الصخرى. وأمامه كانت الأمواج تترى راسخة قوية. شعر بالانسجام الذى تتمناه جيناته البيولوجية مع تاريخه الطبيعى الماثل أمامه. وبينهما ارتفع خلفه الجرف لحافة السماء. وأمامه امتد البحر لحد الأفق اللا متناهى. ركع على ركبتيه يسأله:

«يا بحر هل وجدت بغيتى».

* * * *



الجزء الثانى



ننهاك ع الغنى يا عين
نلقاك في سريبة عايلة

- 6 -

لـم يكن النقيـب مفتاح الشـهيبى يتوقع أن الأيـام القادمة ستغير مصيره إلى الأبد. فرغـم كونه أحد الضبـاط الذين قادوا عملية طرد الملك والاستيلاء على السـلطة بإيمان عروبي وقناعة مطلقة بالجمهوريـة. كانت مهمته التى استطاع إنجازها بنجاح تأمين قاعدة الشـرق العسـكرية التى تسـيطر على شـرق البلاد. والتى كانت مكرسـة للجيـش البريطانى فصـارت إحدى علامات التاريخ العسكرى البريطانى.

فـى تلك الأيام كان مسـتعداً للموت من أجل اسـتقلال بلاده وطرد الاحتلال. أما اليوم فسـيظل يتذكر أن سرعة السيارة البيان فيو الخيفة التى يقودها شـقيق زوجته. والتى تجاوزت أحيانا مؤشر المائتى كم/ساعة فى ذلك الهزيع الأخير من ليلة صيفية. كانت أكثر رحمة لو انقلبت به إلى مزالق الموت وهاويات العدم من الجحيم الذى سيعيشـه عندما قدر له العيش. ووجوه رفاقه العسكريين تخفت منها علامات الحياة. ورغم ذلك فالواقع لم يكن يكشف عن مقدار الرعـب الذى حمله له كهدية شـيطان. أو نقمة ملاك. فالسـيارة البيـان فيو كانت تتحرك على الطريـق مثل فراش وثير ناعم. وهما يتبادلان حديثاً لشـخصين ليس على بالهما أن بالمستقبل موطئاً لما يمكن أن يكدر صفوهما. فالشـاب الذى لم يتعد عمره خمسـة

وعشرين عاما. سعيد بحياته وبما حققه وبما يحمله مستقبله من وعود خلابة فى كل شىء: العمل. الدراسة. الحب. المال. الصبوة.. هو الآن عاشق رومانتيكى فى بلاد البادية. معلق بين صحراء البوادى التى عاش شبابها فى القديم على معاشرة الحمير. بينما بناتها ملفوفات فى جرد الإخفاء ومعازل التنك. وبين مدن الحضر حيث تلاشت الحمير. وحلت محلها أحدث موديلات السيارات السبور..

.. توا صار فيه تطور. توا يركبن السيارات. ينزلن غادى مصر بيش ينكحن عاهرات القاهرة والإسكندرية.. أكو فرق!!؟ اللّٰه وحده يعلم.. لكن نشهد اللّٰه أنا ونيس بوزوى عثرت بالأمس على الفتاة التى سأموت فيها عشقا. وانتحر وجدا بيش تكون شريكة حياتى.

النقيب الذى لم يتعد عمره الثلاثين كان يرى الطريق الأسفلتية الواسعة التى تصل مدينة الأندلسيين بالقاعدة الشرقية. طريق مهد احتفائى يحف به صاعدا إلى المجد الذى يكلله للمحطة الأخيرة منه ومن وسع.

أن يتولى قيادة قاعدة الشرق أكبر القواعد العسكرية شرق البلاد. وهو بعد نقيب. سيكون فارس الحدود الشرقية وأمير الولاية بلا منازع. ورغم ذلك كان شىء يراوده بأن ثمة خطأ لا يدرك كنهه.

الطريقة التى أسندت إليه قيادة القاعدة. حيث ينبغى أن يأتى التكليف من قيادة الجيش. وليس من قبل المخابرات العسكرية. الملف الضخم الذى حوى الأوامر السرية التى يتعين عليه اتباعها. على أن لا يفتحها أو ينفذ تعليماتها الحرفية إلا بعد استلامه قيادة القاعدة. ومنها أن يتسلم قيادة القاعدة قبل الفجر. بعدها يشرع فى تنفيذ ما جاء فى لائحة الأوامر حرفيا. «حرفيا» هكذا جرى التشديد. وعندما تساءل عن طبيعة الأوامر. قال له ضباط المخابرات: القاعدة تحتاج للتحكم والانضباط. وأنت مشهور بهاداى أمور. نريد تطبيق الانضباط كيف أهنه.

قبل رحيله، انتحى به كبيرهم وهمس «رد بالك المصريين يبوا يديروا لبلادنا مشاكل، لحد توا أنا ما نقول فيه شيء، لكن الحذر واجب».

لم يهتم بالأمر من هذه الزاوية. فمن هو الضابط الذى يعمل فى جيش البادية الذى يمكن أن يتوقع خطراً من الجيش المصرى، هنا تحلق دائما فى سماء العلاقات بين الجانبين عبارة «نحن خوت». من يستطيع أن يتغاضى عن أو ينكر السبب الذى قامت من أجله ثورة البادية، أليست هزيمة المصريين فى 67، ووضعت كل إمكانيتها من أجل تحرير الأراضى المصرية المحتلة، وقد وضعت شعارات ثورة يوليو «الوحدة والاشتراكية» على راية الثورة. «فنحن خوت» .. صحيح توا أكو مشاكل لكن الله غالب شنو نسوى..

أما الحرب.. معقولة.. مسح وجهه من القلق.. وقال يهدئ من توتره.. أنا بروحى خدمت فى لواء البادية اللى شارك فى الحرب 73 . وأمنت نقل النفط اللى يحتاجه الجيش المصرى للحرب، شنو يبى المصريين منا.. فكر كثيرا ثم استقر رأيه على أن هناك خطوطاً حمراء لا يمكن تجاوزها.

الآن تطوى السيارة الطريق إلى الشرق على صوت فيروز المفعم بالحياة. قرر أن يهرب للنوم، وعندما أيقظه ونيس، كانا على بعد دقائق من الحامية، وكان الظلام لا يزال مخيما والفجر لم يؤذن بعد. عدَّل من هندامه العسكرى وضبط وضع كابه العسكرى على رأسه. وعلى البوابة الخارجية بين السماح له بالدخول وتأدية التحية العسكرية، كان قد أودع رقيب فى السجن العسكرى. انتشر الخبر بقدوم القائد الجديد للقاعدة، وهناك فى مبنى القيادة وجد مندهشا القائد ومجموعة الضباط فى انتظاره.

على صوت أذان الفجر، غادر ونيس البوابة الخارجية للقاعدة دون أن يدرى أنه سيكون آخر من يفعل، ولو انتظر دقائق لصار حبيسا لزمن لا يعلمه إلا الله. وبينما كان يتهادى عائدا إلى الطريق العام،

كان النقيب مفتاح الشهيبى يجلس على مكتب قائد المعسكر بعد أن جرى تسليم القيادة له. يقرأ التعليمات السرية.

بعد دقائق كان يصدر أوامره المشددة بمنع الدخول والخروج من القاعدة وإطلاق النار على كل من يخالف الأوامر. وبإرادة حديدية تمكن قائد الحامية الجديد من إلقاء القبض على رئيس أركانه وقادة الكتائب. ثم عقد اجتماعاً مع رؤساء أركان الكتائب. فعرض عليهم قراره إما الإحالة للتقاعد أو الدفاع عن الجمهورية. وفى نصف الساعة كان قد رفع حالة الطوارئ فى الحامية للدرجة القصوى.

* * * *

فى الوقت الذى جرى فيه استنفار القوات. أديرت محركات مدرعات اللواء التاسع ورفعت درجة استعداداتها القتالى للحالة ج. وتلقيمها بالذخيرة الحية. طلب فى اجتماع مصغر من المخابرات العسكرية تقريراً عاجلاً عن موقف القاعدة الجوية. والموقف فى القاعدة البحرية. مع تقرير خاص لكل من قوات البحرية المصرية والروسية خلال ثلاثين دقيقة. على أن يتبع بموقف تفصيلى خلال ساعة زمن. متضمنا أى نشاطات مريبة للضباط المصريين. مع طلب عاجل للاجتماع مع قائد البحرية السوفييتية فى القاعدة.

ثم خرج يشرف بنفسه على تجهيز اللواء التاسع للمهمة التى أوكلت إليه «القيام بضربة استباقية لإجهاض الانقلاب العسكرى الذى يقوده أعضاء من مجلس قيادة الثورة..

مع أشعة السحر الأولى. شوهدت مدرعات اللواء التاسع من طراز (ستالين63-) تنطلق من حامية الشرق باتجاه القاعدة الجوية. حيث قامت فور وصولها بإحكام الحصار حول القاعدة. وعندما اقتحم طابور من المدرعات أسوار القاعدة وبواباتها. كانت هناك طائرتان طراز سوخوى تقفان على ممرات الإقلاع. وقد أدارت

محركاتها النفاثة. على استعداد للإقلاع. قام النقيب الشهيبى بتوجيه الأوامر للفصيلة الثالثة باحتلال ممرات الإقلاع. ولوقت طويل تابع الجميع طيارون وضباط مدرعات. الصراع الجارى بين محاولة الفصيلة احتلال الممرات ومحاولة الطائرتين الطيران.

عندما تمكنتا من الطيران. صفق ضباط القوات الجوية لنجاح زملائهم فى الإفلات من قيام المدرعات بقطع الطريق عليهما. فى الممرات الجانبية كان هناك سرب كامل يستعد للإقلاع. أدار الشهيبى فوهة ماسورة دبابته ناحية الشرق حيث كان ينتصب برج المراقبة. كان ماهراً فى التصويب. القذيفة الأولى أطاحت باللاسلكى. القذيفة الثانية دمرت البرج. وجعلته يهوى على عروشه.

إحدى الطائرات التى تربض على الممر قامت بإطلاق صاروخ على أول دبابة احتلت المدرج. حولتها إلى كتلة من الفولاذ المحترق . لكنها خسرت المدرج. كان هذا هو آخر ما فى جعبة المتمردين فقد أحاطت بهم الكتيبة الثانية التى تولت تأمين الممرات. بينما تولت الكتيبة الأولى والثالثة تطويق مبانى وثكنات القاعدة وميس ضباطها.

شُلت فاعلية القوات الجوية المتمردة. وقبض على المتمردين. وأكدت تقارير المخابرات عدم وجود نشاط مشبوه للمصريين فى القاعدة البحرية. ورغم ذلك أصر النقيب على قيام القوات البحرية الروسية فى القاعدة. بتنفيذ ما تم الاتفاق عليه.

خلال خمس وثلاثين دقيقة كانت إحدى مدمرات البحرية السوفييتية تحتل مدخل الميناء البحرى. بينما احتلت فرقاطة روسية أخرى عنق القاعدة البحرية. ومنع المدنيون من دخول المعسكرات. لقد أعلنت حالة الطوارئ القصوى.

فى البداية تكهن الأهالى بأن صراعاً نشب بين آمر اللواء المدرع وقادة القاعدة الجوية. وعندما جاء المساء سادت إشاعات قوية

بحدوث انقلاب عسكرى بمساندة من القاعدة الجوية.

فى منتصف الظهيرة وبعد أن أُنهى عمليات تمشيط الثكنات العسكرية وميس ضباط القاعدة الجوية، أعلن استسلام الانقلابيين. دخل النقيب مكتب الرائد قائد القاعدة الجوية، نزع سلاحه وأزال رتبه العسكرية، وقام على أعتقاله ونقله تحت الحراسة المشددة إلى القاعدة البرية.

طوال شهرين لم تُذع أية أخبار عن الانقلاب. ولإحكام البحث عن الهاربين، وعدم تمكينهم من الفرار، منع الوطنيون من السفر إلى الخارج. واتخذت الإجراءات لتقليص القوة المتزايدة التى جعلت برجوازية قصيرة النشأة، تشيخ مبكرا. فصدرت قرارات التأمين، وقبض على كبار التجار ومقاولى البناء، وجرى الحديث عن ضرورة تحويل الفئات غير المنتجة كالتجار إلى فئات منتجة تعويضا لما قيل عنه «النقص الشديد فى الأيدى العاملة»، وعمم على جميع الشباب التطوع فى أجهزة المقاومة الثورية، خوفا من المؤامرات الخارجية..

وفى احتفالات الثورة، خرجت المظاهرات تندد بالخونة والعملاء، وحشدت الجماهير أشهراً متعاقبة بالشوارع، وفى أثناء الاحتفالات حدث انفجاران فى ميناءى العاصمة والحاضرة الشرقية تجاهلتهما الصحف مشيرة إلى أنها مجرد قنابل من مخلفات الحرب العالمية الثانية.

* * * *

بعد أسابيع قليلة من محاولة الانقلاب الفاشلة قُدم عشرات الضباط الذين تتراوح رتبهم بين ملازم أول ورائد للمحاكمة، وبعد مرافعات سريعة أصدرت المحكمة العسكرية أحكامها بالإعدام على أكثر من عشرين ضابطا أغلبهم برتبة ملازم أول ونقيب، وعلى البقية بالسجن المؤبد ومدد تتراوح بين خمسة عشر عاما وخمسة أعوام، ضابط وحيد حصل على البراءة وأودع مستشفى الأمراض العقلية.

فـى قفص الاتهام سَيَدَّعى قـادة الانقلاب وأثـار التعذيب بادية عليهم أنهم كانوا قلب الثورة التى أطاحت بالملك. وأنهم تولوا الأدوار الرئيسة للثورة: مسؤولية تأمين المواقع الحيوية فى البوادى والحضر. السيطرة على المطارات الحربية والدولية. تأمين قطعات وألوية الجيش الموالية للملك. تأمين القواعد العسكرية الأجنبية ومحطات الإذاعة ومنشآت الدولة. لهذا لا يمكن اتهامهم بالخيانة.

سيزعمون أن حركتهم خرجت لمواجهة الطغيان والانفراد بالحكم. ومن أجل وقف تبذير ثروات البلاد. ومواجهة واقع الفساد الذى نخر البلاد فى سنوات قليلة. وأنهم على وجه الخصوص متمسكون بمشروع الدستور الذى تخلى عنه الحكم الحالى.

فى أيام قليلة أغلق الملف.

فى صباح أحد الأيام الباردة من شتاء قارس. قام النقيب مفتاح الشهيبى الذى تمكن بفاعلية من إجهاض محاولة الانقلاب الذى قام بها رفاق الأمس وخصوم اليوم. وداخله قناعة بأنه دائما ما يأتى وقت تأكل فيه الثورات أبناءها. وأن الثورة التى شارك فى نجاحها قد انتهت منذ الآن وأن عليه أن يتحول لضابط محترف إذا أراد البقاء والخروج سالما من جحيم العواصف والأعاصير التى تعصف بالرومانسيين والحالمين.. هكذا أكلت المقصلة زهرة مفكرى الثورة الفرنسية من اليعاقبة والجبل. لافايت. دانتون. روبسبير. سان جوست. وقتل البلاشفة تروتسكى وعشرات آخرين من قادة الثورة الروسية. ومن الذى سيضارع سادة الشهداء سيدنا علي رضى الله عنه وأبناءه الحسن والحسين والذين تحلقوا حولهم.. فإذا كان معاوية منتصرا فى أى زمن وأى مكان لا محالة. فالتقية خير موقف يعقب التغيرات التاريخية الكبرى.

وبناء على الأوامر الصادرة إليه وقف النقيب فى أرض طابور القاعدة الشرقية الذى ضم جنود وضباط فروع القوات البرية

والبحرية والجوية بالمنطقة الشرقية. الذين فوجئوا بالمشهد الجارى أمامهم، وهو لا يدرك ما يتعين عليه فعله بالضبط.

فعلى ساحة جمع الجنود التى شيدها مهندسو الأشغال العسكرية والذين كان أغلبهم من المصريين. من مسطحات هائلة من الخرسانات المسلحة فى كافة معسكرات الجيش كى تصبح هدية فاسدة للمقاولين القائمين على تنفيذ معسكرات الثورة. وعلى مشهد من الجميع. ركع طابور من الضباط الشبان على ركبهم. معصوبي الأعين. بينما المدعى العسكرى يقوم بتلاوة قرار الاتهام بالخيانة العظمى. والتآمر على الشعب والثورة. أعقب تلاوة الحكم القاضى بالإعدام رميا بالرصاص.

لم تكن هناك فصيلة للإعدام. فالنقيب الذى قاد عملية القضاء على التمرد المعادى للثورة. لم يكن مؤهلا لتنفيذ أحكام بالإعدام على هذه الوجوه الشابة التى شعر لوهلة أنها لا تستحق الموت. هذه الوجوه المجهولة لخيرة ضباط القوات الجوية والبرية.

وعندما قام بإطلاق الرصاص من مسدسه طراز برتا المحشو بطلقات عيار 9 مم على رؤوسهم واحداً بعد الآخر. كانت ماسورة مسدسه الملتصقة بمؤخرة الرأس ترتعش قبل أن تنطلق الرصاصة التى كانت فى كل مرة تخترق عظمة الجمجمة ليقفز الدم كالنافورة. يسقط الضابط الشاب على مقدمة وجهه. ثم يتلوه آخر.

فى الطلقة الرابعة كانت الدموع تغيم على مآقى عينيه. ثم شرع يبكى. فى الطلقة الثامنة شعر النقيب بأن مفتاح الشهيبى الذى يعرفه يموت معهم واحدا خلف الآخر. يموتون مرة بينما يموت هو مرة بعد مرة.. لقد تركه ورحل وها هو يشاغله. ولما أدرك أن ملاكاً للموت حل داخله قرر أن يتخلص من كل شيء بما فيهم ظله. جفف النقيب دموعه وفى تصرف غير مدرك. أفرغ خزنة مسدسه فى ظله. وهو يدمدم ساخطا: لنرحل سوية إلى جهنم.

بعد سنوات من هذا النهار الدامى سيترسخ لديه يقينٌ، بأنه كان لهؤلاء الضباط الحق فى الحياة. وأن خلاف التصورات والصراع حول الرؤى كان يمكن أن يجد وسائل سلمية أخرى لحلها. وما كان يجرى ما جرى لو أن الثورة أقرت الدستور والحقوق المقدسة للاختلاف وتداول السلطة. فلماذا وُرط فى تنفيذ الأحكام بواسطة كف يده. لماذا لم يستخدم فصيلة إعدام.

سؤال سيقلب حياته رأسا على عقب. ولن يجد فى قاموسه العقائدى أو الدينى المبررات الكافية التى يستعين بها ثوار المراحل التاريخية الكبرى عندما يكون التخلص من أعداء الثورة ضرورة لا مناص منها.

وعندما ستتحول عملية الإعدام تلك من يقين إلى وحش يطارده. سيستيقظ من جسده ذات يوم فى ذات الوقت من صباح أحد أيام الشتاء القارس شخص مكتئب يعنف نفسه على جريمة ارتكبها تحت السلاح تلبية لأوامر القيادة العليا. ودون بحث عن مبررات سيطلق على رأسه الرصاص. انتقاما مما فعله. عل الله يغفر له خطأ لا يُغتفرُ. فقط لو كان مطلعا على القانون العسكرى. لشكل فصيلة إعدام.

* * * *

فى عائلة عمر بوزوى. الذى كان إبان الانقلاب بالخارج. ساد التوتر الشديد. وقبل أن يشاع أن اسمه من بين المطلوب القبض عليهم. قام النقيب الشهيبى بتحذير مبطن لزوجته.

فى اليوم التالى اعتذر ونيس عن عمله مع الوفد الألمانى وسافر على عجل إلى حاضرة الشرق. فوجئت به العائلة يندفع من الباب مضطربا. أخبرهم أن عدداً من كبار المقاولين وأصحاب الأموال أودعوا السجون. وعدد بعضاً من الأسماء الشهيرة. وأضاف أنهم

ينوون القبض على عمر.. ساد الهلع بين الجميع. امرأة أبيه تسأله منزعجة: لشنو؟

- يقولون لهم ضلع فى الانقلاب. قال الأب منزعجا: هاذى كذبة. حتى هادول أصدقاء عمر. قال ونيس بضجر: باتى يقولوا المخابرات سجلت سهرات بلندن أحاديث يسبون النظام. حتى القائد اللواء يهزروا عليه..

- شنو يبوا من خوك؟

- ما فى واحد يعرف شيئا. ونادى على ثريا يخبرها أن الحوش مراقب. وأنهم سيفتشون الفيلا فى الفجر. فهل هناك ما تخاف عليه؟ أجابت بفزع إنها لا تدرى شيئاً. قال برزانة: لا تخافى هيا بنا لأعلى. نادى إخوته. وصعدت المرأتان خلفهم.

لاحظ مكتب عمر المزدحم بالمخططات والرسومات التنفيذية والمواقع العامة لمعسكرات الجيش التى يعمل بها. فكر أن وجودها بالمكتب غير مستحسن. جمعها ولم يترك شيئاً. ملئت الشنطة الخلفية لعربة حميدة. ومن الباب الأمامى طلب ونيس من أخوه أن يغادر الفيلا المراقبة بهدوء واسترخاء. وألا يندفع بالسيارة كالمجنون كعادته كى لا يثير اهتمامهم. ويذهب بالرسومات إلى المؤسسة ويعطيها للمهدى جمعة.

عندما غاب حميدة فى منعطف الطريق. صعد ونيس إلى الطابق العلوى. حيث انتحى بثريا وطلب منها أن يفرغ المكتب والخزنة من جميع الأوراق والمستندات المالية. جمعا سويا أوراق معاملاته الخاصة فى بنوك لندن وروما. ثم عكف على ترتيب مراسلاته وعقوده الخاصة بشركات أوروبية عديدة. فلما انتهى همس: توا الذهب والكميات الضخمة من النقود.. حتما ستصادر..

قالت بجزع: وين نخبى فيهم؟

- باتك.

قاطعته بانفعال: لا.. وعندما سألها السبب. ترددت ولم تستطع الإجابة. فهم أسبابها. قال مشجعا: بنلاقى مكان معقول..

وهم يجمعونه فى حقيبة يد سألته: كيف عرفت بقدومهم؟

قال: صديق بالمخابرات حذره..

- المخابرات!.. تبى تحكى لعمر.. يمكن يجى..

- خطر واجد لكن كيف نحذره.. التليفونات مراقبة.. لازم يعرف بالتأكيد. . نبى ينتظر بالخارج لحين تهدأ الأمور وتتضح..

جمعت الأموال والذهب والحلى وأودعت لدى خال الأسرة. وطيلة الليل أطفئت الأنوار. والجميع غير قادر على النوم مترقبا المصيبة التى ستأتى مع الفجر. وبينما كان القلق يكاد يقتل ثريا. أصر ونيس على أن يبيت حميدة خارج الفيلا خوفا من أن يؤدى ظهوره إلى شهوة الأمن فى القبض عليه.

فى الثالثة صباحا هوجمت الفيلا بثلة من الجنود يقودهم ملازم أول. قلب المكان رأسا على عقب والنسوة تتابعهم من فرجات الأبواب.. دفع ونيس أخته صديقة للداخل بعد أن قامت بالتحرش بهم. ثم صحبهم إلى الطابق العلوى. حيث فتشوه غرفة غرفة. فلم يجدوا سوى ثلاثة آلاف من الدينارات. تُركت عن عمد. وبعد أن عادوا إلى أسفل قدمت لهم صينية الشاى. تناوله النقيب هازئا: وينه عمر؟

- باليونان.

- باهى.. خبره يجى وإلا سنعرف كيف نجده.

أجاب ونيس بتحد: باهى.. هذا أمر يخصه هو..

تدخلت أم عمر: يابنى والله عمر مريض بالكبد.. توا هو يتعالج ويدير فى عملية..

- باهى يا حنا. بلغيه الرسالة هاذى.. لما أن يجى هذا فى مصلحته. ودليل على حسن نيته..

- بنقول له يا ولدى .. توا نشوف كيف؟

عندما غادر رجال الأمن المكان، حل الارتياح على الجميع. قال ونيس: توا الأمور صارت على ما يرام.. هيا ننام.

منذ تلك الليلة سلمت نساء الأسرة قيادها إلى ونيس، وساد شعور بالاطمئنان فى وجوده وغياب عمر المجهول. وكشفت المرأتان رأسيهما تدعوان له بالسلامة وطول العمر. فى صباح اليوم التالى قام ونيس بمعونة المهدى عمران مدير الشركة بإرسال رسالة سرية مع أحد المصريين إلى عمر فى اليونان، حيث أبلغ بما جرى وما ينتظره لو عاد. وطلبوا منه التريث وعدم المجيء الآن. وبعد شهرين أعيد الذهب والنقود، وخبئ فى مكان سرى بالفيلا خوفا من مداهمة أخرى للأمن. عندما اطمئنوا على عمر، قرر ونيس أن يزيل التوتر السائد فى العائلة، فدعاهم للسينما. ورغم أن أمه وزوجة أبيه رفضتا إلا أنه أصر على ذهابهم جميعا. فكان يوما عجيبا. وخف القلق، وعادت ضحكته تملأ وجهه وتشيع الطمأنينة بين الجميع. وبينما الإشاعات تتحدث عن وجود عمر بوزوى فى السجن، كان هو يجوب أوروبا حرا طليقا..

* * * *

- 7 -

عندمـا علم عمر بأنـه ضمن لائحة المطلـوب القبض عليهم، انتقـل من اليونان إلى لندن حتى تنجلى الأمور عن وجهها الحقيقى. مؤكدا إشـاعة مرضه بالكبد، وأنه فى انتظار إجراء عملية جراحية، اعتـزم أمرا فكـر فيه كثيرا من قبـل، فرحل إلى القاهـرة حيث نزل ضيفا على أحد أعضاء مجلس الشـعب من الإقطاعيين السابقين، وطوال أسبوعين دعى إلى سهرات المجتمع المصرى، أثرياء ورجال أعمال جدد وأصحاب توكيلات أجنبية، سياسـيون ونواب بمجلس الشعب، وضباط كبار ووزراء وفنانات مشـهورات بالسـينما والتليفزيون من الدرجة الأولى والثانية، رجال عمليون لعصر جديد، يسـعون بضراوة لجمع المليون الأولى بوسائل غير مشروعة يقينا، بعد أن انقضى عصر التصنيـع والتنميـة والعدالة الاجتماعية والتعليم المجانى، ونسـاء متبرجات عاريات الظهر، كشـفن عن نحورهن، وسبحن فى الأضواء الباهرة والثراء السريع.. وفى قصره الريفى دعى دعوة خاصة من قبل محمود بك مع نخبة من رجال الأعمال والشـخصيات المصرية حتى يتمكنوا من مناقشـة أمور شـتى بعيدا عن العاصمة وضجيجها، حيـث كان العمل جاريا على قدم وسـاق، للانتهاء من تجديد القصر الذى كان ملكا لأبيه راغب باشـا واسـتعاده بحكم من القضاء من هيئة الإصلاح الزراعى التى استولت عليه بحكم قوانين ثورة يوليو.

أحاديث عامة عن السياسة ومناقشات تفصيلية لمختلف المشاريع الممكنة: توكيلات أجنبية في نطاق الصناعات الغذائية والسيارات والسياحة العالمية والعربية. فنادق عالمية، ومكاتب استيراد وعقارات وشركات سياحية مختلطة.. عالم واسع من الأعمال. نوقشت فيه العقود والحقوق من الوجهة القانونية وحجم الأرباح والنسب المخصصة للمصروفات الجانبية. وكفالة خروج الأرباح بكاملها. وإمكانية عدم الوقوع تحت طائلة الضرائب. وكيفية سحب رأس المال إذا اقتضت الضرورة. أو أثيرت القلاقل. كان يبحث كل شيء بوضوح ومباشرة. وفي قاعة الاستقبال تحدث اقتصادي كبير يعمل في مجلة الأهرام الاقتصادي في محاضرة صغيرة أن الحكومة المصرية تفتح الباب على مصراعيه لرأس المال العربي - لهذا دوافعه- وهي تؤمن له كافة الضمانات اللازمة. فهم ينظرون إلى الأمور بشكل عميق ومختلف عما مضى. فنحن لا نستطيع أن نتخلى عن دورنا الحضاري بالمنطقة. لبنان مثل واضح. نحن نريد أن نغلق بيروت. ولكننا نبحث عن شيء أعمق. نريد مركزا صناعيا وزراعيا لمنطقة الشرق الأوسط التي تعاني من فراغ سياسي. نريد بؤرة إشعاعية ولنا أسبابنا: الأيدي العاملة الرخيصة. الإمكانيات التقنية والفنية والبشرية. الثروات الطبيعية. ألسنا محقين؟. تعوزنا رؤوس الأموال. وفي المقابل نحن ملزمون بتقديم كافة الضمانات التي تكفل للمستثمر الأمان. فلا تخشوا شيئا..

صمت بوزوي وهو يتفرس في وجوه الجالسين. حتى تأكد من أن الاقتصادي القدير أنهى حديثه. فابتسم قائلا: اعذروني إذا قلت أن هذا كلام جميل يفيد استهلاك الجرائد. أنتم المصريين مجاملون أكثر من اللازم وهذا عيبكم. تحدثونني عن أدق الأشياء ببعض الألفاظ الرنانة. الجمل الأكاديمية التي تفيد طالباً جامعياً. هذا يجعلني أخاف. أنا مقتنع بالبواعث التي تدعوني كي أضع أموالي هنا. وهو ما يمكن أن يوفر كثيرا من هذه الأحاديث. ولكن وجهي لا

يحمر خجلا عندما أتحدث عما يتطلبه مشروعى من رشوة. عن الشخصية القوية التى ستوفر لى الحماية ضد كل شيء بما فى ذلك القدر مقابل نسبة معلومة 20% ؟ 30%؟ أو حتى مناصفة. كيف ما يعطينى كيف ما ياخد. هنا أصير بالنور. هذا يجعلنى أطمئن. صدقونى إن هذا أكثر شرفا فى سوق المال عما عداه..

بان الانفراج على الأسارير مدمجاً بالإعجاب والتأييد. تحدثوا وتداولوا الأمور كثيرا. وانفض الاجتماع دون الوصول إلى نتائج حاسمة. بعد الغداء خرج هو ومجموعة من الضيوف بصحبة مضيفهم محمود بك إلى حدائق القصر الخارجية ومنها إلى الحقول وبساتين الفاكهة المحيطة به. تحلقوا فى جماعات صغيرة. وانزوى رجل يساعد امرأة على إطلاق نيران بندقية صيد. وتعالت ضحكات نساء ورجال موفورى الصحة. وشعر بوزوى بالحبور. كانت تلك هى المرة الأولى التى يشاهد فيها الريف المصرى..

القصر الشامخ. السقوف الدائرية المزينة بالزخارف تتدلى منها الثريات المتلألئة. الشرفات المبنية على شكل عقود وقد ارتفعت عليها النباتات المتسلقة. حظائر الخيل. المساحات الواسعة من الحشائش الخضراء التى أحسن تهذيبها. تتخللها الطرقات تحيط بها الأشجار العالية. تبرز من خلفها البساط السندسى للحقول المترامية الأطراف. النخيل والأشجار الباسقة. قنوات المياه التى تشق الحقول. تكللها عند الأفق القرى الطينية والمآذن العالية وقوافل الدواب والماشية يقودها صبية صغار ونساء يعتمرن الشقاء. وفلاحون يكدون عرقا وسط الحقول وقد كشفوا عن أجسادهم المرسومة بالعروق النافرة..

اقترب منه محمود بك يسأله: هل أعجبك ريفنا؟. هز رأسه بالموافقة.

- عمرها الفراعنة. ودمرها عبد الناصر. وعلينا أن نعيد بناء كل

شيء ثانية.. ومضت عيناه بالبريق واستطرد قائلا: لقد انتهى توزيع الأراضي بقوانين الإصلاح إلى كارثة. فسدت الأرض بين أيديهم. حشاشون أو تأكلهم البلهارسيا. سأزيل هذه الدور الطينية فهي تقتطع الكثير من الأراضي الخصبة، وأبني دوراً حديثة لن تزيد على عُشر المساحة. أما هذا العدد من الفلاحين فسوف أستبدل بفؤوسهم الماكينات الزراعية الحديثة. سأقيم مزرعة حديثة للخيول. لدينا مشاكل وسوف نحلها..

- وشنو تدير فيهم.
- يروحوا أي مكان.. القاهرة .. الواحات.. الوادي الجديد.
- بلكي تشحنوا فيهم لينا..
- اكبش وخد اللي يكفيك..

* * * *

في اليوم التالي وصلته بطاقة دعوة من إحدى سيدات المجتمع لحضور سهرة خاصة. استقبلته وزوجها اللواء بالجيش المحال إلى التقاعد لتوه بانتظار منصب حساس. امرأة في الأربعين من العمر. ينم جمالها الارستقراطي عن أسرة عريقة. ابنة لأحد الباشوات السابقين. جسد ممشوق وعيون يشع منها الذكاء. كان المقربون منها يدعونها باللواء. واستقبله زوجها الهرقلي الجثة بترحاب. وقدمه إلى بعض المعارف. بعد أن انتهوا من تناول العشاء. دعتهم مدام تحسين إلى الصالة الكبرى حيث أعلنت أنه احتفاء بالسيد عمر بوزوي فسوف تغني الفنانة المصرية ليلى صالح أغنيتين ليبيتين للمغني الليبي محمد صدقي. وضحكت بفتنة. والمدعوون يتسابقون لتحيته..

ليس من الحقيقة عدم الإشارة إلى مدى طربه من أن يغني خصيصا له. أو المدى الذي أثارته المرأة جنسيا حتى أنه اعتبر أنه سيقضي وطره من القحبة هذه قبل بزوغ الصباح. حتى ولو كان النائم شخيرا هو هذا الذي يتيه فخرا. لكن الشعور الذي سيلازمه

هو حجم الدهشة التى ستلازمه وهو يرى كيف أنه شق المجتمع القاهرى كسكين يسير فى قطعة من الجبن الناعم. لقد ترسخ لديه يقين بأن القاهرة على عكس ما كان يظنها. وهو بعد مراهق بالقبة قلعة العروبة الحصينة. جبل من البازلت الصلد للمجتمع العربى. هى الآن متمرسة. تفتح فخذيها بسهولة أمام المال والرشوة بسهولة أكثر من بوابة على بابا «أفتح يا سمسم»

قطعت أفكاره وتقدمت منه قائلة: اسمح لى السيد بوزوى. قام يتبعها إلى الروف الخارجى حيث انفرد كل منهما بالآخر. وهو ينظر حركة الردفين اللذين يتناوبان فى نعومة اهتزاز رقيق. فكر كيف تجرى الخيول على أعنتها فى القاهرة. مو كيف بلادنا.

- أزعجناك.. فهل أثرنا دهشتك؟
- كثيرا
- معقول.. عجبتك الأغانى.
- بكّل
- هه
- لا
- مش الغناء ليبى؟
- نعم. لكنى ما نحب محمد صدقى هذا.

ندت عنها صيحة غضب: لقد خدعت. قالوا لى إنه مطربكم المفضل.

- مطربنا هذا من عمر صالح عبد الحى. لكن والله أسعدنا سماع الغنا الليبى.

تركته فى ركن الشرفة المطل على الحديقة. وعادت وخلفها خادم يحمل كأسين من النبيذ. أخرجت علبة سجائر فضية. فقدم لها قداحته واعتصم بالصمت. يتابع زوجها وهو منحن عليها يهمس فى أذنها بعدة كلمات.. هزت رأسها باهتمام. قبل أن يستدير راحلا قال له مبتسما: فتح عينيك فهى ضليعة. نظرت إلى زوجها

باستهجان. وقالت لعمر بصوت عالٍ تسمع زوجها: رغم فارق السن نحن متفقان. ولا تشوب حياتنا شائبة. هز رأسه موافقا. ضحكت وقالت: انت عايز تعرف لماذا دعوتك؟ ألست متسرعا. نفى أن يكون كذلك. وقال إنه يحب الوضوح.

سوت من ثوبها وهى تهز رأسها دلالة الاقتناع: الوضوح أنا كمان أحب الوضوح.. لقد أعجبت بك.. مرغت بأنوفهم التراب.. كلت لهم بما فيه الكفاية.. بدا على وجهها نظرات الاحتقار.. البلهاء يتحدثون عن مصر بعفة. وكل منهم يود أن يلتهم نصيبه منها مثل كلب جائع..

- كيف عرفت؟

أجابت بنظرة باردة : لى أعوانى.

رمش بعينه وحك مؤخرة أذنه بظفره. استطردت: سيد عمر.. معك ثروة قمت على جمعها بيديكَ. ثروة لم ترثها. وكى لا تفقدها قمت بمشقة على تهريبها للخارج. والآن لا تريد أن تبقى هذه الثروة رهينة البنوك. ولا أن تتسرب قطرة منها فى الرمال.. أليس كذلك؟

أجاب بسخرية اشتمتها: هو كذلك .

هزت رأسها ووقفت وانثنى رأسها للخلف وهى تمسح خصلات شعرها بكبرياء. بينما أبقت نظراتها مصوبة نحوه بنشاز. قالت وهى تضغط على مخارج الألفاظ. وتدور بيدها فى الفضاء. فى حين راحت عيناها تتسع وتضيق مع الكلمات.

- سأعطيك ما تريد.. ما يدر عليك أرباحا طائلة.. قاع المجتمع وذروته.. ما يهمس به السياسيون فى مخادع العاهرات.. سأعطيك الطريق إلى رجال مرموقين ونواب البرلمان. دفاتر شيكات أمراء الخليج.. وشيوخ عرب ونساء يمتلكن رجالاً على قدر من الأهمية. سأعطيك أشد المناطق حساسية فى جسد القاهرة..

تراجع بجسـده إلى الخلف وقد عقد ما بين ساقيه يهزهما هزاً خفيفاً، وعندما فهم توريتها، شـعر بإنسـانه ينتصب، وقد أوشك أن يجد بغيته.

- المقابل؟

قالت وهى تسـتعيد مظهرها الأنثوى، وتنحنى تقدم له كأسا من النبيذ فيبدو له جليا نهر نهديها: هذا نبيذ فرنسى، أعلم أنكم لا يؤثر فيكم سـوى الويسـكى.. قالت بغتة: لا تجعل علاقتنا على هذا القدر من التدنى.. ألسنا أصدقاء؟؟

- أعذرينى.. لسـت أفهم التوريات. اسـتعادت صوتها البارد: لا تسبب لى نفاد الصبر.. كم عمرك؟

- ثمانية وعشرون عاما.

بـدت علـى وجهها دهشـة ناعمـة، والتمعت عيناهـا بالنور الغامض، وهمسـت وهى تغير من شـخصيتها تماما فتصبح مثل فتاة فى العشرين.

- يا إلهى .. جلسـت ترتكن بجذعها علـى المقعد.. قالت وهى تحدق فى عيونه مباشـرة: أنـت وسـيم للغاية، لو كنـت مصريا لصنعت منك رئيسا للجمهورية.. لشد ما تشبهه فى صلافته.

- كيف أشبهه؟ أنا نملك ما يجعلنى أتطلع للمستقبل. هزت رأسها متفهمة وعقبت: موقف سياسى.

- أنا ندين لثروتى بالدفاع عنها.

شـعت عيناها بالومض، ضمت سـاقيها واحـدة فوق الأخرى، وارتكنـت بمرفقهـا على مسـند الكرسـى، تاركة باطـن فخذيها مكشوفاً للشهوة.

- سـأحقق لـك ما تريـد .. لقد كنت أشـعر وهـم ينقلون لى حديثك، أنك تود أن تقول أريد شـيئا محـددا، وما كانوا ليفهموك، ولكنـك أخطـأت عندما عبرت بوضوح عن أفكارك، هم جشـعون،

سوف يحاولون امتصاص عظامك. بعد أن يأتوا على اللحم.

- ما انى سهل.

رددت: لست صيدا سهلا هذا يسعدنى.. واستطردت: يسعدنى أن يكون صيدى ليس سهلا..

- المقابل.

أشاحت بيدها فى رقة: خدمات.. نسبة فى الأرباح.. لقاء الإدارة وحل جميع المشاكل المتعلقة بالروتين المصرى. خطبة ود كبار المسئولين. كبار ضباط الشرطة.. المخابرات.. وعلى أى حال نحن نريد صداقتك.. صداقة عميقة. مدت يدها تسأله: توافقنى.. ضع يدك فى يدى.

أخذته عائدة إلى وسط المدعوين.. وكانوا قد تجمعوا حول حلبة الرقص. قدمته إلى المطربة التى غنت له يراقصها.

* * * *

بعد ثلاثة أيام رن التليفون وهو ما زال فى فراشه. كانت على السماعة الأخرى تسأله: هل تحب المغامرة؟

- من كل بد.

- لديك ميعاد مع شخصية فى وزارة الأوقاف فى العاشرة من صباح الغد.. احذر وكن عمليا فسوف يغادر مكتبه فى خلال شهرين..

وكان لقاء وديا حضره زوجها. وجرى الاتفاق على شراء أراضى خلاء بسعر جنيه للمتر وكانت تفوق العشرين. بعد توقيع العقد مباشرة أهداها سيارة سبور وشيكاً بخمسة آلاف جنيه. عمولة لمن وقع معه العقد.

استقبلته سعيدة به. قالت له: لم تربح شيئا.

- أبرهن لك على صداقتى.

- أنت تجيد الأعمال.. لنبدأ بها إذن.

فى خلال ثلاثة أسابيع جرى البحث بينهما على شراء وتجديد

واحد من ملاهى شارع الهرم، ووضعت الخطوط العريضة لبناء أكبر وأحدث ملهى ليلى به، واختيرت لإدارته تلك المطربة التي غنت فى حفل استقباله.

* * * *

عاد ونيس إلى عمله، ثم عاد بعد أسبوع، لم يجد زوجة أخيه، قالوا له إن أباها حضر وأصر على رحيلها معه لحين عودة عمر من الخارج، استاء وقال: ما كان يجب أن تغادر الفيلا. توا عمر يغضب.

كان هذا رأى أبيه والمرأتين أيضا، قالت زوجة أبيه: نشهد الله أن ثريا ما كانت تبى تروح مع بوها، لكنه أصر.. والله أنا بوك يكلم فى الحاج رمضان بيش ما تيجي.

فى المساء رن التليفون، رفع السماعة، كانت ثريا، عندما وجدته، هتفت فى صدق: ونيس

- منو ثريا ! كيف حالك .

- قطران.. إمتى وصلت.؟

- اليوم بالصبح..

- ليش ما جيت؟

- فكرت ننتظر للغد.. تبى ترجعي معاى؟

- كيف ما تبى.

- باهى بكرة نجي وترجى معاى الحوش.

- باهى يا ونيس.

هتفت به امرأة أبيه تبى التليفون.. ظلت تحدث زوجة ابنها عشر دقائق، فلما انتهت، صاحت به : صباح تبيك.

جاءه صوت الطفلة الرقيق: ألو.. ألو ، ونيس، وينك..

- كيف حالك يا صباح.. أنا بالحوش.

- توا تجينى.. تعال يا ونيس أنا نريد حوش باتى.. نريد حوش باتى.

بكت الصغيرة وتصاعد بكاؤها، أخذت ثريا السماعة.

فى اليوم التالى استقبلته خيرية بتهكم: ما يجي بك لبنا غير ثريا.. تفضل.. يستنوا فيك من الفجر.

اندفعت صباح فى أحضانه جذلة. حملها على كتفه. ولم تتركه إلا داخل السيارة.. أما ثريا فقد استقبلته بترحاب صامت.

بالطريق عرج على متجر للحلويات. اشترى لصباح. فتناولته سعيدة. وهلة واتسخت ثيابها. فضربتها أمها.

من شارع جمال عبد الناصر عبر بسيارته الطريق الرئيسى نحو سلسلة البحيرات. حيث تناثرت السيارات بعيدا عن المصابيح المضاءة تبتعد عن عيون الآخرين. على سورها الحجرى جلست مجموعات من العائلات الصغيرة رجالاً ونساء فى سن الشباب يقفز حولهم أطفالهم الصغار يبغون الترويح. عائلات مصرية وسورية وفلسطينية تعودت قضاء مطلع الليالى الحارة على شاطئ البحيرة. قال لها: نقف هنا.

أومأت برأسها. وفى إحدى المناطق التى يشح فيها الضوء. أوقف سيارته. وأطفأ أنوارها. فتح بابها فانطلقت الطفلة إلى الخارج.

ران الصمت. ورغم هدوئها الشديد كان يشعر بها مرهقة الأعصاب. تساءل إن كانت تشعر بالقلق على زوجها. لم يجد إجابة. كانت تسرح بناظريها إلى مياه البحيرة الساكنة. تتلألأ على صفحتها أضواء المصابيح. من مبعدة لاحت عمارات شارع جمال عبد الناصر تتناثر من نوافذها الأضواء. وقد خيم الظلام على الجهة الأخرى من البحيرة. وانبعثت نسائم الخريف تداعب سطح المياه. تساءلت فى نفسها وهى تشعر بأنها ولأول مرة تراقب المدينة عن بعد.. هذا مكان يؤمه أشخاص تبدو على ملامحهم السعادة.. أين أنا منهم؟

لوهلة فهم بؤسها. فجزع. كان صدره يفيض بالشفقة على

التعساء. عندما طال الصمت خشى أن يكون أساء اختيار المكان. تركها وحيدة، وخرج يلاعب الطفلة، ود لو تحدثت إليه بما يعتمل به صدرها، وما كانت تستطيع. ذلك أنها كانت عاجزة عن إدراك طبيعة مشاعرها وما تعتمل به نفسها. كل ما كان واضحا أن صدرها ينسحق بين كتلتين من الجفاف. كانت سجينة هوة سحيقة لا ترى من الحياة سوى بقعة ضوء تلوح من فوهة بعيدة. لو صرخت فى الفضاء تنفس عن رغبات مجهولة للحياة. أنا امرأة وحيدة فى عالم من أنياب تقطر منها الدماء البشرية. وهذا هو الشاب الوحيد الذى تكرهه.. هذا هو الشاب الوحيد الذى يعاملها كإنسانة.

رنا إليها عبر زجاج النافذة الأمامى، دون أن تلمحه. بدا له وجهها ينضح بالألم.. هذه سماء غير تلك التى تخيم فوق منازلنا.. هنا تستطيع أن تخاطب ذاتها.. تستشف روحها، تكسر تلك الحلقة السميكة من الألم الذى استوطن داخلها.. زجرت الطفلة وهى تحاول أن تتسلق السور الحجرى. لكن صباح لم تبال، اندفعت نحوها وعيناها تشعان بالقسوة والعصبية. اندهش لها ونيس، شحب وجهه وهو يرى الصفعة التى انهالت على وجه الطفلة المسكينة التى تراجعت فى ذعر. أخذها بين ذراعيه وقد أزرق وجهها واختنق صدرها من شدة البكاء، حتى استطاع بعد جهد جهيد أن يساعدها على إخراج صرخة حادة طويلة. وسط شهقات مخنوقة.

طوال الطريق لم ينبسا بكلمة. كل يفكر فى داخله.. قرر أن ينفض يده منها، وخافت أن يفعل. شعرت بالرعب لو فعل. أمام الفيلا سارعت بالصعود للطابق العلوى، وبقى خلفها لا يعرف حائرا.

فى الأيام التالية، لم يتبادلا الحديث. عند ظهورها بالبهو كان يسارع بالخروج إلى الساحة الخارجية. ومع الوقت بدا أنه قد وجد ضالته فى الجلوس وحيدا أمام حمام السباحة. وفى الليالى القليلة التى كان

يمضى الليل أمام المياه يستمع للموسيقى الخفيفة أو الكلاسيك. كان يشعر أنها تراقبه من خلال شرفة غرفة نومها المطلة على الحمام. وكان قادرا فى تلك الأوقات أن يتجاهل وجودها تماما.. ورغم أن ثريا قد تعلمت فضيلة أن يذهبوا جميعا إلى سينما حفلات الأطفال فى صباح الجمعة. أو الخروج مع العجائز إلى شاطئ البحيرة. مصطحبة ابنتها معها. حيث وجدوا فى المكان متنفسا من المكوث طيلة اليوم فى المربوعة أو داخل الفيلا. أو تقوم فى الأيام التى لا تخرج فيها العجائز. أو ينشغلن بزيارة أحد ما. بتجهيز صباح فى ملابس الخروج. لتخرج مع عمها. يتجولان فى سوق المدينة وأحيائها التجارية. أو يمضيان أوقاتهما على شاطئ البحيرة. إلا إنها بعد أن رحل عائدا لعمله احتلت مكانه وأصبحت مدمنة الجلوس ليلا وبعد أن ينام الجميع على حمام السباحة. تتمنى لو تتمكن يوما من نزوله والسباحة فيه فى ملابس البحر الساخنة.

* * * *

- 8 -

عاد ونيس دون أن يتضح موقف عمر بعد. وكانت حالة ثريا تتدهور بشكل متواصل دون أن يعرف كيف لامرأة فى وضعها أن تعيش حالة الخواء تلك. فى المستشفى لاحظ وجود موظفة جديدة فى قسم الاستقبال.. امرأة شابة بيضاء صغيرة الجسم دقيقة الملامح. جمعت شعرها إلى الخلف وقد خلا وجهها من المساحيق. كانت تستقبل العالم بعينين كسيرتين. نظرات مستسلمة محملة بالخوف والضعف تطلبان الرحمة. تنم تصرفاتها عن خنوع وخضوع ومذلة. وقد تجمع حولها الذئاب يناوشونها بعيونهم وكلماتهم المحملة بالمعانى الوحشية.. بعثت فيه الفتاة البؤس. كانت جريرتها أنها لم تكن لديها القدرة على التفريق بين العواطف الجياشة ومتطلبات الجسد. وبين رجل يعرض عليها الحب وغرر بها. فخرجت من العلاقة بطفل غير شرعى. أحكم عليها قواعد عزل اجتماعى صارت بإزائه عارية لا يسترها شىء يحميها من الازدراء والرغبة التى تلقاها من الذئاب امرأة لا تملك الحصانة.

فى طريقه من المستشفى وأمام حانوت بغداد للعطور. صرخ عليه علي. توقف بسيارته ونزل يبتسم ابتسامته الواسعة.

- يا راجل كنك أنت.. نرجى فيك. وين كنت؟
- شنو فيه؟ الدنيا اتقلبت ولا البوادى يجن الحضر؟

- عندى لك مفاجأة.

- شنو؟

- رسالة إذا ما اتعرفت على صاحبتها ما يصير شى. وكأن شيئا ما كان، وكل واحد يصير لحاله.

- تبى تهزر.. ألغاز هى ولا شنو.

- هكى أقسمت علي، وهكى أعطيتها الوعد.

نظر ونيس إليه بتحفز: خلاص أعطينى الرسالة وتوا نشوف. فى مظروف أنيق قرأ ورقة تحمل بيتاً من الشعر:

فاقد أيام زهاه العقل　　　يا علم حايس على[1]

فاضت نفسه بشلال من العواطف الجياشة، وتلاطمت بصدره أمواج من المشاعر والأحاسيس المرهفة، التى يخلقها الحب العذرى. حدث نفسه أنها تلقت نداءه بالدرب، فهمته وجاءه ردها محملا بخوفها العذرى.

تجسدت أمامه « كما هتف به قلبه يوم رآها للمرة الأولى وكما هى الآن مشرعة فى قلبه علما يمتشق من أجله الجيوش والفرسان عدة الحرب ويموت فى سبيله الأبطال، وأميرة يركع أمامها الجميع دون أن يجرؤ على رفع بصره إليها، وإن كانت كذلك، فهى أيضا علم مرفوع لديه وسر مجهول لدى الآخرين، أى مجد هو الذى يجعلك رايتى؟

طوال اليوم ظل يطوف المدينة بلا هدف، يصعد هضبة الفتايح، وينزل الساحل، يرحل باتجاه راس هلال ثم يعود المغار، ويطوف المدينة على غير هدف، تتضخم صورتها لديه وتكبر حتى تصير محبوبته راية تبلغ أجواز الفضاء ترفرف بين السحب، تميمة مقدسة لا تقدر إلا بالوطن ولا يقبض عليها سواه.

---

(1) قلبى فقد سعادته وهو الآن مهموم محتار لا يدرى ماذا يفعل.

مع الشاطئ المغسول بالأمواج كانت المدينة الصغيرة تسقط أوراقها الذابلة، وقشورها الزائفة وتعطيه جذورها البدوية الأصلية.. سالمين..

فى اليوم التالى ترك لها رسالة من أغانى «صوب خليل»:

النار يا عزيز غلاك ... تبوق خاطرى فين يرتبى[2]
كيف من تبوقه قوم ... وهو معاه مو شايل وتا[3]
صبا وقال اليوم ... هذى مو ساعة نجا[4]
برم وطاح فى مصباه ... العقل يا علم وين ما جرح[5]

بعد ثلاثة أيام جاءته رسالتها طائر يريد الحب ويخشى عالمه المجهول:

مبدوعة نديروا صوب ... تصير فى أعقابه مخادعة[6]

كانت تسأله الصدق وبخط نسخ جميل ظل يرسمه طوال ليله، وكأنه يخط مصير حياته:

على غلاك نين تموت العين ... يا علم بات رأيها

فى ظهيرة اليوم التالى جاءته رسالتها، وكأنها كانت تنتظر عهده حتى تعطيه قلبها آمنة مطمئنة.

نرجاك والرجا فى الله ... العين يا علم مي ميسه

* * * *

---

(2) نار حبك يا حبيبى تفاجئ قلبى فلا يعرف كيف يتصرف.
(3) مثل شخص هاجمه قوم وهو لا يحمل سلاحاً.
(4) تحسر وقال هذه ساعة ليست فيها نجاة..
(5) داخ القلب وسقط مجروحاً بسهامك.
(6) ستكون بدعة إن أنا أحببت ثم خدعت من أحب.

فـى صباح اليوم التالى خرجت سـالمين مبكـرة. من بعيد لمحت قامته. وجدها تقترب وهى تبتسـم فى طفولـة وخجل. غمرتهما الألفـة وكأن الأغانى التى تبادلاها جعلـت كلاً منهما يعرف الآخر معرفة وثيقة يخيم عليها الود والمحبة.

استجمع شـجاعته واقترب منها. وقفت قبالته فى حياء وقد ضمت حقيبتها على صدرها. مالت برأسـها ناحية الأرض . قال فى صوت منخفض: خير.. فأجابته فى صوت رخيم: خير.

شعرا بجرأة كل منهما للتحدث فى قارعة الطريق القريب من حوشها. وعلى مرأى من الناس. داخله شعور بالزهو والسرور. كانت على اسـتعداد لتحدى الجميع. قال: أعرفك بنفسى .. اسمى ونيس بوزوى طبيب بالمستشفى العام.

أجابته : أدرى.

لم يعرف ماذا يقول وشـعر بالثوانى تمر سـاعات. خشى أن تطول وقفتهما فيسبب لها المتاعب. لكنه أراد أن يعرف اسمها وأن يلقاها. ولا يدرى كيف يمكن ذلك. قال بوجل: ما بريد أعرف أسمك من حدا غيرك.

- سالمين. ردد خلفها: سالمين.. سالمين... أطربها أن يردد اسمها بصوته. شعرت بسعادة أيما سعادة. وابتساماتها المشعة المشرقة ترقص على الطرقات. وكل منهما يود لو احتضن الآخر فى عرض الطريق.

قـال: بدى أراك. قالت وهى تتحرك تفارقه: الخامسـة فى محل العطور. سألها وقد فقد تركيزه: شنو عطور؟

- عند علي .. حانوت بغداد.

- إيه باهى نلقاك هناك.

سـار كل منهما فى اتجاه معاكس . عاد لسيارته ورحلت عائدة إلى منزل خالتها. همست نفسها بعذرية:

قليلة نجا يا عين   من يوم ما وطيتى نارهم

* * * *

الظهيرة. حمام بارد. ملابسه انتقاها ألوانا هادئة. تناول القهوة بكثرة دون شهية للطعام. عندما حان الموعد رحل بسيارته ميمما شطر الحانوت البغدادي. وجد علي بانتظاره وعلى وجهه ابتسامة وتعجل.. صفق الباب خلفه وتساءل بلهفة عنها. هز الفتى رأسه بالإيجاب وأشار إلى الجهة الخلفية للمحل. التي يستخدمها مخزن للبضائع. قال: هي توا اهنا.. سكر الباب وراك.

اندفع مسرعا. وجدها تقف في نهاية الحجرة. ووجهها يشع بالطمأنينة. ألقى التحية. فمدت يديها فأخذهما واندفع يقبلهما بنهم. كانت أمامه كبيرة وهو جد صغير.. لا يدري لماذا.. خروجها من أجله جعلها كنزاً يخشى ألا يستطيع حمايته.. ركع فانحنت تحيط رأسه بساعديها. نام برأسه على خصرها وبقيا برهة حتى كسر صوتها الصمت تسأله أن يريها عينيه. فلما لم يستطع من الانفعالات التي ازدحم بها عقله ووجدانه. أخذت وجهه بين راحتيها برفق ورفعته ناحيتها مثل طفل مذنب يخشى عقاباً. وقالت بصوت رقيق إن عليهما أن يتفقا. سألها: علام؟ فقالت: على أن لا يلمس أحدهما الآخر.. صمت واستطردت تطلب منه أن يفهمها. فكي تستطيع أن تقاوم تريد أن تشعر بأنها لا تخدعهم.

- منو؟
- عيلتي.. باتي.. امي.. خوتي..
- ليش تقولي هكي؟
- بريد أكون قوية.. بدي اطمئن أني مو مدنسة كيف الأخريات.

قال مندهشا: أنت مدنسة..ـ وضعت إصبعها على فمه. ارتجفا للمس أناملها على شفتيه وأصابتها غصة. تمالكت نفسها. سألته في رجاء ألا يكمل. تريد أن تكون علاقتهما نقية طاهرة كما تمنت منذ طفولتها. طلبت منه أن يحاول أن يفهمها. فهي تمنته منذ كانت طفلة صغيرة.. أسمر فارعا وسيماً جذاباً وجهه المبتسم على سعته.. خصلة شعره الناعمة.. حتى عويناته تماما كما تخيلته.

قــال يرجـوها فقط يديك. صمتت لبرهة ثم همســت مرتعدة: باهى هكى .. لا .. تروى شوى .. أعطينى انت يديك.

جلــس قبالتها وراحتاه بين كفيها. نظرت فى عينيه وقالت توا أنت تصير ملكى. خبرنى.. ميتى راتنى أول مرة؟

- من شهرين.

- وين؟

- كنت تسيرين بجوار طالبة ؟

- منو

- صباح:

- تقول إنك تحبها.. حــاول الإجابة. لكنها قاطعته قائلة: ما فى داعى بيش نتحدث عنها. وما نبى توضيح.. لكن ميتى حبيت في؟

صمت طويلا.. لم يكن يدرى بما يجيب.. هل عواطفه الآن تعبير عن الحب؟ قال: ما أدرى؟

- أنت صريح.. توا تحبنى؟

- واجد.

- هذا يكفينى.

كانت كفــه بين يديها قــد تحولت جمرتين مشــتعلتين بالنار. قبض على راحتيها العليا. همســت: لا تحرك يديك.. أجاب بصعوبة إنه لا يستطيع.

حدقــت فــى عينيه وصدرهــا يعلو ويهبــط . قالــت وقد تغير صوتها: قاوم.

أجــاب وهــو على حافة الهاويــة إنه لا يســتطيع. ظلا للحظات صامتين تاركين للنشوة تأخذهما عاليا. ثم اندفع إليها فاستقبلته فى صدرها مرة أخرى وهو يهمس لها.. أحبك.. أحبك بجنون.. ولم تستطع النطــق. تصلبت وهى تغرق وجهه فى صدرها.. ســمعته يقول.. أنت تضمينى. أجابت وفى صوتها نبرة ولع وايش أسوى.. أنت لا تساعدنى..

- باهى المرة الأخيرة. قالت تسترضيه - وقد احتبس صوتها - حتى

يعلم باتى وامى. ضمها بشده ثم تركها.. ما أجمل عطرك.. أيش هو.
- ياسمين.
- سأهديه لك. بنقبلى؟

- نعم .. استنى شوى. رفعت رأسه لأعلى. تابعها بدهشة وهى تفك أزرار قميصه. برز شعر صدره أسود كثيفاً. تماما كما تخيلت نفسها تفعل من قبل عشرات المرات وانثنت إلى حقيبتها وأخرجت سلسلة ذهبية تتدلى منها أول حرف لأسمها. وأخذت تحيط بها عنقه وأحس أنفاسها تلفح وجهه ونظرت إلى صدره وفى عينيها لمح خاطراً فسألها: فيما تفكرين؟ فأعادت النظر إلى صدره وهزت رأسها تعبر عن فكرتها دون أن تلح على لسانها فقال وقد بلغت الموجة حلقه: افعلى؟

هزت رأسها نفيا. قالت وعيناها تلمعان إنها تفعل فى ذهنها. كما فعلته فى اليوم الأول الذى رأته فيه.
- ميتى؟
- 28 فبراير. أجاب مندهشا إنه اليوم الذى نزل فيه المدينة للمرة الأولى. قالت نعم اليوم هادكاهى قلت لخالتى هذا هو. سألتنى شنو. قلت اللى بريده. سألتنى بتعرفيه. قلت ما بعرفه بعد. قالت لى مجنونة.. واختفيت أنت وخفت حد الموت أن تكون عابر سبيل فى المدينة . حتى ريتك بعدها. قلبى اطمن شوى.
- وبعد.
- ارتعبت تكون متزوج وقلت هو مؤكد متزوج.. مين اللى تركب معك بالسيارة؟ قال مبتسما: أختى عيشة.
- بحمد الله. ساعتها مت ألف مرة أن تكون زوجتك. وبالذات لما رأيت الطفلة الصغيرة. كرهتها وتمنيت أن تكونا غير موفقين. دفعت رأسها لأسفل وطلبت منه أن يعذرها. كانت مستعدة أن تقبل بأى جزء من حياته.
- حتى ولو كنت متزوجا؟ أجابت بدهشة: ما بتحبنى كيف

ما بحبك.

- بحبك أكتر.

- تكلم جد.

- حتى الموت.

- حتى الموت.. اعطينى عهدك. وأخرجت مصحفاً صغيراً. لكنها تراجعت. لا أنا اللى بعطليك عهدى.

أخذت المصحف الصغير بين راحتيها وراحتيه. أغمضت عينيها. وقالت وهى ترتجف وهو ينظر لها بذهول: أقسم بكتاب الله العزيز أنى أكون مخلصة وفية لك ولا يصير يملك فى روحى وقلبى سواك. كان يرتجف. وعندما فتحت عينيها بإعياء. حاول القسم هو الآخر لكنها منعته فى صوت واهن وبإصرار: ما بريدك تفعل.

- لشنو؟

أجابت بإصرار ورغبة فى إنهاء الموضوع: خلينى أكمل لك. واغرورقت عيناها بالدموع وهى تهمس: خلينى أحمل عنك عهد الوفاء. وصمتت تستجمع نفسها ثم قالت: لما عرفت أن صباح تعرفك. ورأيت تحيات الصباح بينكما. وسمعت إشاعات أنك مغرم بيها وتنوى خطوبتها أصريت اتقرب منها ونصير أصدقاء حتى أعرف الحقيقة.

- شنو تقول؟.

- تقول إنك تحبها. وما كنت أغار.

- ليش؟

- لأنى واثقة.

- واثقة من شنو؟

- من أنك لى وما ح تكون لحدا بُكّل .

لمح فى عينيها الدموع: بتبكى!

- ما ابكى. مد يديه يمسح دموعها. فهزت رأسها .

لمس وجنتيها بإصبعه وقال: ليش حزينة؟

- أنـــا.. أنا بس مش مصدقـــة... فهقت وقالت إنهـــا لا تزال غير مصدقة.

- وتوا؟

- أنت بين يدى.

حاول أن يخفف انفعالاتها. سألها: بتذاكرى مليح.

ضحكت ضحكة صغيرة من بين دموعها. قالت بصوت مخنوق: أفتح الكتب وأضعها قدامى أمى تجى وتصيح بى وتقول حق النبى أنـــت لا تذاكرى ولا شـــى. ســاعة كاملة ما تغيـــرى الصفحة.. وين تشردين يا بنيتى.. كنت خائفة؟

- من شنو؟

- تخدعنى.

- وتوا؟

- ما عاد يهم.

- وهل أفعل؟

أعـــادت إليه ســـؤاله: تخدعنى؟ انفصل عنها ووقف وســـحب كفه. وشرد ببصره بعيدا. وركزت هى نظرها عليه. قال دون أن ينظر إليها: صار لى سبع سنين فى ألمانيا.

- قالت: أدرى؟

- من مين عرفت؟

- من علي. سألته أن يعرف كل شيء عنك.

- أنتما متواطئان عليّ. هزت رأســـها علامة الإيجاب. ثم قالت وهى جالسة: صار لك سبع سنين فى ألمانيا. أكمل. فوجئ. قال إنها ليست أول فتاة فى حياته. سرحت بعيدا. وسألته فهل سأكون الأخيرة؟

استاء أن يخدعها بشيء لم يتأكد منه تماما. لم يكن يشك فى حبـــه لها. ولكنه لم يتيقن من وجود ذلك الحب الذى يدوم للأبد. حاول أن يوضح لها. هتف بها يستعيدها من شرودها إذا ما كانت تسمعه؟

هزت رأسها بالإيجاب وعيناها تكشفان عن ولع وحرقة. استطرد يوضح أفكاره. قال الحب كلمة عندما يلتقى اثنان.. هل تحبنى؟.. أحبك.. وقد يمر وقت طويل أو قصير قبل أن يحل بهما السأم. ويقرر أحدهما الفراق أو كلاهما.. أرجوك أن تفهمى.. لا يتعلق الأمر بخيانة المشاعر.. الأمر متعلق بصدق التعبير عنها.. إننى متيقن الآن من كونى أحبك. لكنى أريدك أن تخبرينى عن اللحظة التى تتضاءل مشاعرك نحوى فنفترق.. وأنا الآخر لا أريد أن أعيش حياة مزدوجة ولا أريد أن أخفى أى لحظة درجة توهج مشاعرى. فصدقك أكثر جمالا من خيانتك.

تقلص وجهها من الألم ولم تكن بقادرة أن تتحمل حبا غير أبدى لمجرد أفكاره الأوروبية الساذجة. استطرد مستجمعا شجاعته: مشاعرنا صنعتها خيالاتنا.. أحلامنا.. ما أردنا أن يصبغه كل منا على الآخر.

قالت مختنقة: ع ليش نتحدث عن الفراق الآن؟. قال لها: المستقبل.. لقد علمت قدرا كبيرا منه الآن وبقى الذى لا ندريه.. لماذا لا نختبر علاقتنا؟ سألها هل تثق به؟ سالت الدموع من عينيها وشعرت بالحياة تفلت منها وهمست بالإيجاب. سألها ألا تبكى. فأنكرت دموعها التى تسيل بغزارة. فقال مؤكدا أنه يستطيع أن يعطيها عهده. لكنه يريد أن يكون واثقا من نفسه تمام الثقة. ران صمت طويل وأحس بالحرج أمام براءتها ومشاعرها البكر. شعر بأنه خدعها. ولما أطرقت إلى الأرض مخذولة تعبث أناملها بتوتر بين راحتيها. مد يده يمسك بهما فسكنت وبقيت مطرقة. همس: سلمى.

- شنو؟

- أحبك. لم تجب ومرت لحظة طويلة قبل أن تستجمع أشلاءها الممزقة وتهمس بصوت متقطع حزين. وهى تخشى أن تؤذى مشاعره: لكنك قلت لى:

«على غلاك نين تموت العين   يا علم بات رأيها ».

كأن خنجراً شق صدره. وود لو قطع اليد التى طاوعت انفعالاته

المتسرعة وجعلته فى هذا الموقف العصيب. رأته واجما فلامت نفسها. طلب منها أن تسامحه. قالت بعتاب «أغنية العلم قسم لا يعبث به». فردد طلبه لها بأن تسامحه. فصمتت. ضمها ودفنت رأسها فى صدره. وظلا ساكنين لا يريمان. سألها برجاء أن تسامحه وقال إنه لن يغفر لنفسه لو لم تفعل.

- سامحتك.

التمعت عيناه بالسرور وضغط عليها ضغطا خفيفا اهتز له جسدها. وشعرت بنفسها تذوب بين ذراعيه. ولما استجمعت قوتها لتبتعد عنه قليلا، لمحها تائهة فى عالمها الجديد. وتيقن أنه لو راودها عن نفسها لاستسلمت. فالتاع.

طرقات خفيفة على الباب أيقظتهما من أحلامهما. أخبرهما علي بأنه مر عليهما أكثر من أربع ساعات. ونبه سالمين أنها تأخرت. اندهشا للوقت الذى مر سريعا وانخلع قلبه وهو يتابعها تغادر الحانوت راحلة وتغيب فى الظلام.

* * * *

رحلا وقد بدا أن الوقت يمر كى يلتقيا من جديد. وحتى تلك الخواطر التى تمر سراعا لدى ونيس بأن ما بينهما ليس سوى نزوة عابرة، اختفت وتلاشت. أما المقارنة بين ما هو فيه الآن وعلاقاته بألمانيا فقد نحاها جانبا. فمنذ أن حل فى أرض الوطن عاد بدويا قحاً كل ما يرجوه عواطف صادقة وعلاقات مجتمع مفتوح. وشعرت بأنها تحتوى الدنيا فى قبضتها. وأنها حولتها بقدرة السحر الذى يحتويه الحب إلى جني أدخلته فى قنينة تخفيها بين نهديها. تستدعيها وقتما شاءت وتطلب منه أيضا ما شاءت فيستجيب. وقد أصبح للأشياء رونقها: السحب والفراشات والزهور.. أحاسيس ومشاعر مرهفة تفيض على ما يحيطها من إخوتها الصغار بالحنان والحلوى. تلقى عليهم بنصائحها حول أتفه الأشياء حتى باتت

أمها تسألها سر تغيرها. فتزوغ ضاحكة. إلى الفراش تستلقى لتستعيد لحظات اللقاء وكل خلجاتها مستسلمة لخدر لذيذ. وهى تحكى لخالتها قصة لقائهما مستعيدة لحظات توترها أمام المرايا وهى تختار ملابسها.

إزاء الشباب الذين كانوا يلاحقونها شعرت بالشفقة. وبين زميلاتها وأمام قصص الحب وحكاياته. حل بها استعلاء من يملك سر الدنيا الذى يتوه من أجله ويموتون دون أن يبلغوه «سر الحب» سرها الحقيقى الذى أخفته فى صدرها وحدها.

كان على ونيس أن يسقط صريع الهوى إن آجلا أو عاجلا. لكن ما أوقعه لم يكن فقط جمالها. فنساء البوادى جميعهن جميلات. ونساء غرناطة يفقن العالم أجمعه جمالا.. لكنه صدقها الطفولى.. مشاعرها البكر. أم هى أهازيج «العلم» التى صنعت لها هالة من جمال البداوة العذرى.. لقد أعطته سالمين الجواب.

لذا عاد يمارس علاقاته مع الأخريات بارتياح وأريحية. سميرة التى كانت تحضر صديقاتها لشرفتها يطلون عليه جميعا ويتندرون. تقف حاملة أخاها الطفل تضمه وتقبله وترسل مع قبلاتها الابتسامات. مطلقة فى الطريق ضحكاتها وتعليقاتها التى تقصده بها. لم تعد تثيره. صارت تبعث على الملل منه إلى القضاء عليه. فانثنت غاضبة. وبدأت تلقى شتائمها مبرزة وجهاً غاضباً. يفيض بالسخط على عالم بأكمله. تجاهلها حتى حل بينهما عداء صامت.

نزيهة ابنة الزروق. الحاصلة على ليسانس الحقوق من جامعة العاصمة. كانت تنهى جولاتها العصرية فى سيارتها الألفا روميو السبور ثم تصعد شقتها التى تقع قبالته والتى تعلوه بمتر. يتبادلان التحية ويتلقى منها أسئلة عابرة. قبل أن تخرج فى قميص نومها البيبى دول تنظف الشرفة. تنثنى عارضة ساقين ملفوفين. يتقافز حولهما كلبان صغيران من نوع دوبرمان. يلقى لهما بقطع اللحم المجفف فينظرانه بتربص. ولا يتناولانه إلا بعد

أن تومـئ لهما فينقضان يتقاتلان عليها. فتضحك. وهى تبتسم مشجعة إياه على تبادل الحديث. يسألها: كيف حالك؟ تهز كتفيها برعونة وتتحدث بغنج: اليوم ما نديروا شيء بَكّل . أصير وحيدة وما فى حدا معاى. يسألها: وباتك؟. وتصدر صوتا ملولا: باتى فى روما. ترى أنت تقول لى شنو نبى نفعل؟.

- التليفزيون.. تأتى بحركة قرف شديدة وتضحك كأنه ألقى بنكتة: آيوه بيش نمضوا الساعات نسمع فى العويلة يصرخون « الثورة مستمرة والخاين يطلع برة». فيضحكان. ومع الوقت تخلت عن فجورها واستعاضت عنه بصداقته. تأتى فى منتصف الليل تجلس بالشرفة فى قميص نومها وهى تداعب كلبيها. ويتبادلان الأحاديث..

السيارة الشيفورليه الخاصة بأمر الحامية الجديد تظهر كل ليلة أمام عمارتها. يستاء من أجلها. كان أبوها يعرضها للزواج على أثرياء المدينة. يريد التخلص منها. رجال يتعدون الستين من العمر. دستة من الأبناء والأحفاد. متزوجون بأكثر من واحدة. لا يعرفون موقع ليبيا من خريطة العالم وهى التى تخرجت بتفوق من كلية الحقوق. ولم تتعد الثالثة والعشرين من العمر.. لكن سيرتها التى تلوكها الألسنة ألقت بها فى النهاية لرجال الجيش. حيث أشيع أنها ستتزوج أحدهم.

* * * *

جل ميعادهما الثانى واندفع كل منهما للآخر بشوق. وقفا برهة صامتين وقد تركت يديها له. ثم عادت تأخذ راحتيه. همس: وحشتينى واجد.

- تقول الجد.

- أكثر مما كنت أتصور. ما كنت أتخيل يصير في هكى. وأنت؟ زاغت من أن تجيبه وسألته: كيف تنام؟ قال إنه ينام جيدا فقالت فى ابتسامة ساحرة:

ذنوب يا عزيز عليك سمار   وأنت فى نومك هنى

لاحظت ما سوف تحبه فيه بجنون. جاذبية ضحكته المشرقة وتألق العينين الدافئتين. أنا ننام فى العاشرة بيش.. قاطعته كى تستثير ضحكته ثانية. وقالت وهى تتمثل بتعابير وجهها وساعديها عتاباً ولوماً:

رَاقدْ وْجَاكْ النومْ   كذاب مَو غَلانا جارْحَكْ

انطلقت ضحكته من جديد مجلجلة. وقد وضعته موقع الاتهام. وراح يهدئها ويقول: باهى باهى. لكن أنا ننام من الرضا. أنا ننام من السعادة.. أنا نستعجل النوم بيش نقابل حبيبتى. بعد ما ح انام بُكّل .

- بضايقك؟

هادى أجمل ما فيكى. وين ما تقولى فيها بصير بدى أضمك أكلك ما خلى فيكى شي. تعرفى لما أن تلقيت رسالتك عرفت كيف البدو الرحل استطاعوا يختزنوا كل هاذى العواطف فى بيت من الشعر. واستطرد فى تروى:

«فاقد أيام زهاه   العقل يا علم حايس علي » .

ارتبكت وانتشرت بوجنتيها حمرة الخجل. من وين حفظت كل هاذا؟ أجابت فى ارتباك أنها لاحظت منذ طفولتها أن أباها ما كان يغازل أو يداعب أمها إلا بهذه الأغانى. كنت ألمح البهجة تهز أمى وهى ترد عليه بمثيلاتها. وكلما كبرت صرت أفهم أكثر. حتى تمنيت أن اللى بحبه يكون يحب «السريب». لكن أنا يئست. حسيت أن الحب صعب واجد.

- كيف؟. قالت إن الفتيات كن يتهكمن عليها. ويتهمونها بالبرود والغباء. هن يحصلن فى علاقات مع الشباب. وأنا أقول لهن. هذا مو حب. اللى تفعلونه مو حب. يقلن لى سالمين كنك معقدة. فكيها شوى.

سألها ما الذى تعتقده عن العلاقة بين اثنين؟ قالت هو الحب

والوفاء واليـأس. رنت بعيدا وكأنها فقدته. وران الصمت. وكلمتها الأخيرة قريبة منهما. أكثر تحققا من الأخريات. ضغط على يديها وقال لها «لن تعرفى اليأس معاى». زفرت زفرة عميقة من صدرها وغمغمت «مين يدرى».

قال بثقة «أنا وأنت».. شنو أنت جميلة.. تألقت عيناها.. استطرد: شنو عيونك أندلسية.. النور اللى يشع من وجهك.. ابتسم يسألها إن كانت ترغب فى أن يستكمل؟ قالت بشوق وكأنها تنتظر اللحظة هذه. نعم لكن ما تبالغ. قال إنه عاجز عن الوصف وشفايفك كيف الكرز. قاطعته بلهفة تسأله ما الكرز. قال دم العشاق.

- آه وأيش بعدين.

قال «نحرك» وثبت عينيه على عنقها العاجى: فارتعدت من النشوة وسمعته يستطرد: أعشقه. همست : نحرى.

- نعم. ومد يده يمسد خصلة من شعرها الغزير الحالك السواد. يتحسس أمواجه الجعدة. اقترب يلثمه بفيه. تشمم عبقها فاهتاجت. قال إنه من أجل جدائل شعرها فقط يمكنه أن يعبدها حتى الموت.. أغمضى عينيك. أطاعت مسحورة. لثم عينيها بشفتيه. كادت أن تهوى من حالق. همس أنه يقبلهما مغمضتين حتى لا تقتله سهامهما.

نادى عليها. فلما فتحت عينيها سألها ألا يلتقيا هنا ثانية. أسرعت تتساءل إذا كان هذا آخر لقاء بينهما. قال وهل بمقدورهما أن يفعلا؟. وأضاف أن لقاءهما فى المحل يطلع الآخرين على أسرارهما. مما يعرضها للخطر. تساءلت عما يمكن أن يفعلاه. سألها هل تثق به؟ هزت رأسها بالإيجاب. قال لى صديق مصرى متزوج إذا توافقى بنلتقى هناك. واستطرد: إذا كانت تشك به. وضعت أناملها على فمه جزعة وطلبت منه الصمت وقالت له : « لا تكمل أرجوك.. شنو تبغى.. أنا موافقة».

* * * *

- 9 -

عندما بدا واضحا اقتراب عودته. استدعى عمر أخاه ناصر من لندن. لاقاه بالقاهرة حيث عرض عليه مجموعة أعماله التي انخرط في أنشطتها. وكان العمل في الملهى الليلى يدر عائدا خيالياً. وطلب منه أن يتابعها. حال عودته إلى البلاد. دار بينهما حوار حول الفندق. وكان شركاؤه يسألونه شراء أحد الفنادق بالعاصمة وتجديده بدلا من إنشاء آخر جديد. فطلب مهلة للتفكير. في الظهيرة جاءته بطاقة دعوة من اللواء للعشاء في التاسعة مساء.

في العاشرة والنصف وقد انتهى العشاء ورحل زوجها معتذرا بأعماله. استقبلته في مكتبها. ترتدي فستان سهرة من المخمل الأسود. حضر الخادم يدفع أمامه عربة من الزخارف الفضية. وقد صف عليها الحلوى والشاي. وضغط على بار صغير. سألته إذا كان يفضل الويسكي أم النبيذ. طلب ويسكي فقدمت كأسا من الويسكي الفاخر مصحوباً بسيجار هافانا من الطباق الكوبي. تشممه متذوقا. قالت إن المرء قد يستخدم مضطرا أشياء لا يحبها. قال لا يوجد شيء لا يمكن الاستغناء عنه. هزت رأسها موافقة وقالت: مؤكد ليس ضروريا. فلماذا لا تحدثنا عن أخبارك؟.

وأفكاره لا تزال تدور حول اللحظة التي سيلتقي بها على الفراش ويمتطيها. عندما تلحس كراعيه تسولا إياه. لكنه لن

يستجيب لها وسيظل يعذبها حتى يكسر أنفها المتعالى وراء غرورها العقلى وشعورها بأهمية ذكائها التافه.

حدثها عن شؤونه وأموره دون أن يأتى على التفاصيل الهامة. وهى تهز رأسها علامة الاستحسان. لم يجئ على ذكر الفندق بشىء. فاجأته قائلة: والفندق؟ . أجاب يبدو أن الأمور تتعثر. فسألت تستفهم عن السبب. فقال إنهم كانوا متفقين على بناء الفندق من Z to A. لكنهم تراجعوا. الآن يقترحون عليه الشراء والتجديد. وهو ما يكرهه بالتحديد فى المصريين. إنهم لا يستقرون على شىء ويغيرون آراءهم بين يوم وليلة. وأضاف أنه زهق. سألته عما ينتوى فعله. فأجابها إنه فى حاجة للتفكير. حذرته فهو ليس فى البادية حتى يغامر فى أعمال البناء. هنا سوف يمتصون دمه قبل أن ينتهى العمل. ضغطت على شفتها السفلى بأسنان لؤلؤية. وهى تلوح بيدها مؤكدة أنها سوف تردد على مسامعه ما يعرفه جيدا فى قانون الأعمال «القنص والسرعة» إن هذا العمل يتقاتل عليه رجال أعمال مصريون وأمراء سعوديون ورجال أعمال خليجيون وقد حجزناه لك بصعوبة. فنحن نلعب فى حلقة من الوحوش المفترسة. إننا ندخل سوقاً جديدة ونتوقع أن يدر دخل النشاط السياحى أربعة مليارات فى العام. والسوق المصرية تستحق فى الحد الأدنى اثنى عشر مليارا. سترتفع بعد تحسين البنية التحتية التى دمرتها الحرب إلى ثلاثة أضعاف التوقعات الحالية.

بدا عليه التفكير. فقالت إن عليه أن يقارن بين عائد أرباحه من البناء والسياحة. إنها لا تعتقد أن فى نيته أن يشرف بنفسه على أعمال البناء؟ إياك أن تفعل.

عقد حاجبيه وقال: معاك حق. اللى توه نعرفه مو كاف.

- أنت معذور.. الأغبياء لا يفهمون أهمية تفسير الأمور لك. بس أنت تتحمل جزءا من الخطأ. تراجع مندهشا: أنا.

- نعم أنت ليه مقلتش لى. مش اتفقنا نكون أصدقاء. عادت

تجلس وهى تضع ساقاً على ساق وتقول له إنه يخل بحق الصداقة. وإنها كانت تتوقع أن يذكر لها العقبات التى تواجهه كى تذللها له. لم أظن أنك لا أقول تخشانا وأفضل القول بأننا لم نحصل على ثقتك.. لا يهم.. تاريخ الشراكة هو الذى يبنى الثقة. خذ وقتك من التفكير. سنحافظ لك على السعر. وقالت بغتة: هل تعلم أن هذا المبنى ملك للقطاع العام؟.

استدار مندهشا: هل تبيعون القطاع العام؟

قالت: أعلم أنكم لا زلتم تبنون القطاع العام. لا زلتم فى بداية الدورة. عندنا دارت كاملة وسنبيعه بأكمله. سنعيده لأصحابه أو لأولاد الأصول. الأهم أن الأغبياء لم يخبروك أن الاقتصاد المصرى بقرة بدأ ذبحها. والساطور مع الجزار. والجزار جالس على عرش السلطة. ومن يملك السلطة هو الذى سنتعامل معه فى موضوع فندقك. وإذا كسبناه أصبح لنا الحق فى المزايدة على شراء الفخذين والكبد والعمود. وإذا تخلفنا. ربما لن نحصل الفشة والكلاوى. أو طردنا خارج السوق. نعض أصابعنا من الندم. قامت فظن أن المقابلة انتهت. لكنها ذهبت للبار وأحضرت كأسا أخرى من الويسكى. كانت شهوته قد تلاشت. قالت: هل أستدعى لك ليلى؟ عبر عن ازدراء شديد وقال: كفاية عصبيتها على المسرح.

قالت وهى تدير الهاتف: سأستدعى لك امرأة شابة من نوع خاص ستثير إعجابك. قال ساخراً : كيف بلكى مثقفة مثلك.

ضحكت وهى تسأله إن كان هذا إطراء أم سخرية. رن الهاتف. رفعت السماعة. ودار حديث عن رحلة نيلية إلى القناطر الخيرية. وافقت وعندما أغلقت الهاتف استدارت تسأله بشكل عابر أن الأخبار تقول إنه ينوى تقليص أعماله فى البادية. هل هذا صحيح؟ . تجهم وجهه بشدة وامتلأ بالغضب. وأجاب وهو يكبح مشاعر الغضب فى صدره: نعم بنيتى أن أفعل .

لحت جالته على الفور وبانزعاج شديد. استدركت معتذرة. وقالت

إنها لم تقصد أن تتدخل فى شؤونه الخاصة. ثم صمتت لفترة وفجأة هتفت مستنكرة: يا ربى لم أكن أظن أنك مغرور إلى هذه الدرجة. حتى إنك تريد إحراجى. ظننت أننى أفعل ما هو فى مصلحتك. وقفت وهى تمسك برأسها وقالت: «أرجوك.. إننى متعبة».

* * * *

فى اليوم التالى. وعلى عكس ظنه بأن علاقتهما سوف يصيبها الفتور. دعته ليصطحبهم. فـي رحلة نيلية بالقناطر الخيرية. وعلى حفل شواء حضره عدد محدود من الرجال والنساء. من بينهن نساء فاتنات جعلت من حضورهن المعنى المادى للإثابة. وكأنها تقول لو اجتهدت وفهمتنى. هذه هى الإثابة لما تبذله معى من مجهود.

وعلى العشب الأخضر انتحت به على الشاطئ النهرى. سألته ماذا قرر بخصوص الفندق. وقبل أن يجيب. قاطعته معتذرة على تسرعها. وقالت إنها لا تستطيع أن تنسى كونها أنثى فتتخلص من كونها لحوحة. بانتظار الشواء وضع أمامهما طبقاً ممتلئاً بالفاكهة.. تفاح وعنب ومشمش. سألته إذا ما كانوا يزرعون الموز؟ أجاب بالنفى. قالت إن شجرة الموز تنمو بجوارها شتلات صغيرة. ويقوم الفلاحون بإزالة الشتلات الضعيفة ويتركون الأقوى. بعد ثلاث سنوات تشيخ الشجرة الأم ويقل إنتاجها. فتزال لتحل محلها الشجيرة البديلة. هكذا تستمر الحياة ويستمر قطف الثمار. هكذا النظم السياسية. عادة يمر وقت طويل وهى مزدهرة قبل أن تعمل بها عوامل التفكك والانحلال. لكن التغير يتم سريعا فى الدول الصغرى.. هل تفهمنى؟

نظر مستغرقا وقد التمعت عيناه بوميض غامض لكنها تجاهلته. واستطردت لنتفق أن الأشياء لا تبقى على حالها. وضعت ظهر يدها على فمها مستغرقة فى التفكير وقالت: منذ عشر سنوات من كان يمكن أن يصدق أن النظام الذى صنعه عبد الناصر سيتلاشى مثل سحابة صيف. حتى الذين أكلوا وشربوا ونهبوا

منه وعاشـوا من خيره كانوا أول من انقلب عليه: وزراء ورجال حكم وبرلمانيون ورجال ديـن وفنانون وأدباء جميعهم صبوا عليه لعناتهم. لماذا يحدث هـذا؟. هناك نموذجان أبو رجيلة وعثمان أحمد عثمان. الأول هرب بأمواله إلى الخارج وهرب وراءها وانتهى مفضلا السلامة على المغامرة. والثانى لم يترك احتفالاً بالثورة التى صادرت أمواله إلا وشارك فيه. عيد الثورة. عيد الوحدة. عيد الجلاء. عيد ميلاد عبد الناصر. عيد الأضحى. الجنود الذاهبون إلى الحرب والعائدون منها بعد أن فقدوا أعضاءهم. حتى كرة القدم صنع فريقا حصل على بطولات محلية ودولية.. لا بأس.. فقد كانت تدعمه وتتحدث عنه الصحف والمجلات والإذاعة والتليفزيون. فخرجت صوره مع كبار رجال الدولة وحينا مع أعماله التى اتسعت محليا حتى إنه أوحى للناس بأنه من بنى السد العالى وليس المساكين الروس. الذى أعنيه أنه يوم وضعوا يديهم على شركته قال على الرحب والسعة واحتفل وصاح ساعتها وهو يرفع يده ويضرب بقدمه للأمام «باسم الشعب» ولا أكون كاذبة لو قلت إنه كان يسب هذا الشعب ويلعن تاريخه.

ارتفع اسم «المقاولون العرب» عاليا. إذا خسر فبسبب بيروقراطية الدولة وبطء الأداء الحكومى حيث المال سايب والمسئولية والرقابة معدومة. والفساد ينخر فيها. وإذا كسب فهو عثمان أحمد عثمان، رجل الأعمال الكبير. وانطلقت أعماله إلى أفريقيا وفى المنطقة العربية حتى أصبحت نموذج النهضة المصرية التى صنعتها الثورة. ألم تحل أنت محله فى بعض المنشآت العسكرية لجيش البوادى؟.

أجابها وهو مشغول بمعلوماتها الدقيقة: نعم. فاستمرت مباشرة وهو أيضا لم يجد فى تقديم الهدايا والهبات لكبار المسئولين غضاضة. اسميا ليست من ماله وفعليا هى علاقات.

عادت لصمتها وبدا عليها لفترة أنها تفكر. ألقت برأسها جانبا وهو يتابع حديثها بانتباه. عندما قالت: فى لعبة الرجبى ينطلق لاعبو الفريق المهاجم فى شتى الاتجاهات. يتشتت الفريق

المدافـع. وتكـون الكـرة قـد أخـفيت مع أحـد اللاعـبـين الـذي يتقـهقـر للخلف. ثم يندفع فـى مناورة واسـعـة للأمام ليسـجل هـدفا. فالذى يجيد التمويه يجيد المكسب.

الآن لا يعلم أحد ما هى شركة المقاولون العرب. هل هى قطاع عـام؟ هل هـى قطاع خاص؟ أم قطاع مشـترك. رحلـت الناصرية وتقـدم ليحل محلها. وها هو أصبح صهر رئيس الجمهورية الجديد. بالأمس بنى شـركة من عرقه الخاص، معرضة للنجاح أو الفشـل. الآن هـو يبنى عـدداً غير محدود من الشـركات والبنوك من اللحم الحى للدولة. الآن هو رجل النخبة الأول.

فتح عمر عينيه على سعتيهما وكأنه يرى العالم للمرة الأولى. أمسكتْ بسـيجارة وانتظرت أن يشـعلها لكنه لم يكن موجودا. قالت بنبرة ناعمة: مش ح تولع لى؟

قام متثاقلا وأخرج سـيجارة له وأشـعل لكليهمـا بقداحته الذهبيـة. قالـت: هل يرغب فـى أن تسـتكمل حديثها؟ قـال إنه مستمتع. لم ترقها الكلمة فعقب أنه مهتم. قالت إن اللواء الركن قائد ثورة البوادى يشبهه. ليس تمام الشبه ولكن لهما أسلوب مميز. استطردت وهى تدعو النادل أن يصب لها فنجاناً من القهوة. يتميز اللـواء الركـن. بأنه أمين تماما لما يعتنقه. هـو فى لحظة ضد الروس لذلك هو مسـتعد لمطاردتهم حتى آخر الدنيا. أما الأمريكيون فلن يتورع عن مطاردتهم حتى آخر بقاع العالم. هو دون كيشـوت نقى. وهو على عكس عبد الناصر الذى كان رصينا فى تحالفاته الخارجية. فاللواء يستطيع أن يجد ما يجعله فى حالة حرب مع العالم كله. ويهزم قبل أن يكتشـف هذا القانون البسـيط الـذى برع فيه عبد الناصر والمسمى بالتحالفات. توازنات القوى. وأشاحت بيدها.. وهو يعتقد أنه يصنع نهضة حقيقية للبلاد .. منشـآت.. مدن.. مصانع. طـرق. مطارات. خدمات.. مدارس معاهد.. لكن هل هذا يكفى؟. هو لا يقبـل بأى أشـكال المعارضـة حتى الطلابية منهـا ولا يأنف من

قمعها بالسلاح. وأحب الآن أن أحذرك أن أخاك حميدة فى خطر شديد ينبغى أن تعطيه قدرا كبيرا من اهتمامك.. ضع عصفوراً فى قفص من ذهب أو نحاس لن يهتم بالفارق. لقد سلبته حريته.

اعتدل فى جلسته ومدد ساقيه باتجاه النيل. لو أن هذه المرأة تعمل لديه كم سيدفع لها. هذا الصنف من النساء.. مر بخاطره أن يقارن بينها وبين ثريا. ما الذى يريده.. مضاجعتها أم معاشرتها. أم أن تكون أماً لأطفاله. أم شريكة لأعماله الاقتصادية أو السياسية.. هل تكفيه امرأة واحدة.. لتظل ثريا فى مكانها دون أن يستبدلها. ثريا تكون ثريا. ومدام تحسين تظل كما هى مستشارة أعماله. ولكن ما اسمها الحقيقى.

شاهدها تبتسم وهى تنادى عليهم. إذا ما كانت رائحة الشواء تعنى أن الطعام جاهز أم لا. وعادت تسأله أين سرح بأفكاره. هل تفكر فى قصر الرئاسة. ضحك بتلقائية ومودة وقال بجدية: أفكر فى أن تكونى لى زوجة.

ضحكت هى الأخرى بجذل. كانت سعيدة وطرقت بأصابعها. لقد انتصرت على الزمن. وقالت بغنج: وماذا أفعل بزوجى. قال: نطخه. ضحكت وقالت: سهل قوى. أنت تستهتر به.

My man is strong man

أضافت بشكل أرضى غروره: ولكن مثلك لا يعوض. قلت لى كم عمرك؟

لم تنتظر الإجابة ووقفت. ودعته للوقوف. ثم وضعت ساعدها على مرفقه وتحركت باتجاه الجماعة وهى لا تزال تضحك وتقول: كم سيبقى اللواء الركن؟! خمس سنوات عشر سنوات. ألست أنت الأطول عمرا.. هيا نأكل لقد جعت.

* * * *

فـى البـهو كـانــت تنتظـرهم امرأة شــابة فــى منتصف العـقد الثـالث. ترتدى فسـتاناً بنى اللـون غامـقاً طـراز شـانيل. علـى جسـد بض قامة متوسـطة قـمحية اللـون. شـعـرها قـصير كـالغـلمان. من أسـفل فســتانها الذى تعدى الركـبة كانت ترتدى جـوارب ســوداء طـويلة من النايلــون وحذاء جلـدياً يصل إلى منتصف الســاق. تقدمت نحوهـما بوجه مورد ودود. ووجنتين برقوقتين شابتهما حمرة طبيعية.

ســألتها منذ متى تنتظر. فقالت وهى تهز كـتفيها تعبيرا عن عدم الأهمية إنها هنا منذ ســاعة. قالــت معلش اعذريه فقد كان مشغولا معى قليلا. نظرت إليها بود وقالت أوامرك.

- حجزت لكم مقصورة فى مســرح الجمهورية. ســوف تعزف الفرقــة الســيمفونية مقطوعــات لــموزارت وبيتهوفــن. البرنامج معك. انثنت لعمر تســأله إذا ما كان يرغب فى ســماع الموسيقى الكلاسيك. فقال بسخرية إنها لم تترك له الخيار.

قاطعته صافى وقالت له إن لها شــرطاً. ســوف نأخذ سيارتى فأنا أحب القيادة. قالت مدام تحسين لعمر أن يقبل شروطها. وأنها ستقوم على إرسال سيارته إلى الفندق . وقبل أن يتحركا أمسكت كفه وســألته متى ينوى السفر؟ قال قريبا. وإن كان لم يحدد بعد. قالت: لنا لقاء قبل سفرك.

* * * *

ركبا سيارتها الفورد. قادتها باعتزاز. وظلا صامتين فترة قبل أن تشــعر بنظرته المركزة على تلك المساحة الصغيرة المكشوفة من ســاقيها والتى تراجع عنها ذيل فســتانها من جراء القيادة والمثيرة على الدوام لكل امرأة جميلة. مدت يديها تعيد رداءها إلى أســفل وهى تسأله كما يسأل الطفل أمه: أنت بدوى؟

- نعم.

وبدهشة الأطفال الخالية من الحسد: غنى؟

- شويه.

وكمن يكتشف حيل الكبار ويبقى معتزاً بذكائه. علقت وهى تثنى رأسها ناحيته. إن مدام تحسين لا تعرف سوى الأثرياء. ولكنك شاب وأضافت إنها حضرت البارحة. ولكنك كنت رحلت هل كنت مشغولا؟ هز رأسه بالإيجاب. تريثت فترة قبل أن تعبر عن سؤال جال بذهنها ثم غامرت وسألته إذا ما كان يحب الموسيقى الكلاسيك.

لم يجب فاستطردت تسأله إذا كان سبق له أن استمع إلى موسيقى كلاسيك. أجاب بالنفى. رآها تتنهد فسألها مغتاظا عما بها. قالت لا يوجد شيء مهم. لكن من الصعب على الأذن التعود عليها من المرة الأولى. سيكون مثيراً للملل. سألها وماذا ترى هى. قالت إنها متيمة بها فهى عازفة بيانو وأحيانا تعزف على الكمان. شرعت تعزف له قطعة من الموسيقى لموزارت بفمها ما جعله يبتسم. فضحكت وباغتته بسؤال عما إذا كانوا يضربون المصريين؟. أجاب يغيظها: بالطبع نحن نضرب المصريين وخاصة الثرثارين منهم.

ند عنها صوت تعجب وقالت إنها هى المخطئة وتستحق ذلك.. زامت بفمها ووقفت أمام المسرح. وشرعت تصف سيارتها بحذر شديد وعندما انتهت نزلت تعاينها. حتى لا تصاب بسبب منها. دارت حولها بطريقة جعلته يشعر بالضيق. وجدتها تبعد قدمين عن الموقع المناسب فابتسمت وهى تهز كتفيها وتقول له بعينيها إنه ليس فى اليد حيلة. صعدت ثانية وأدارتها لتضعها فى موقع صحيح حتى رضيت.

فى الكافتيريا طلبت له القهوة وهى تقول إن القهوة مشروب رجال الأعمال. أما الويسكى فللسهرات. سألته إذا كان ما تقوله صحيحا فهى غير متأكدة. فأجابها أن القهوة مشروب العجائز وأنت عجوز.

خدعت كطفلة. وقالت معك حق. الكثيرون يقولون لى ذلك. أحيانا أشعر بأنى غبية ولكنى أحاول.. عندما تقول لى المدام اذهبى

مع الأستاذ عمر لحضور حفل سيمفونى فهى تفعل ذلك عن قصد.
وعلى أن أكمل الباقى، وقد أخطئ فهى لا تشير على بعمل شىء محدد. فما الذى يجبرك على سماع شرح مفصل لسيمفونية.. لا أعلم لكنى أفعل ما أتصوره صحيحا.. أما السيارة فهى لزوجى وأنا أعتز بها كثيرا.

- شنو.. ومتزوجة كمان.

- كنت متزوجة. أظلم وجهها. ولكنها عادت لتستعيد حيويتها وتقول باهتمام إنه كان طياراً حصل على رتبة رائد وهو فى التاسعة والعشرين من عمره وقاد سرب مقاتلات. تعرف المقاتلات المنقضة. وأشارت بيدها إشارة الانقضاض من أعلى لأسفل. وهى تزوم بفمها. فووووووووو. حصل على نجمة الشرف فى حرب الاستنزاف. اشترينا السيارة فى 72. وأكدت بيدها. بالدين. كان يقودها كأنه يقود طائرته ميج 21.. يعشق السرعة وصرير العجلات وأنا اتعلق بكتفه مذعورة. وهو يضحك ويضحك من الفرح. وهو يمرق مثل سهم بين سيارات القاهرة. والسيارة تنثنى معه كقطعة صلصال. كنا نعتز بها ولم تصبنا الحوادث حتى تمكنا من تسديد ديونها. وفى الحرب أسقط صاروخ إسرائيلى طائرته.

أُصيبت بالانفعال لكنها سيطرت على نفسها. لم يصل جثمانه حتى الآن. لهذا كثيرا ما انتظر عودته. كثيرا ما أتوقع لنا أن نعود نقود السيارة معا بسرعته المخيفة.

جاء النادل بالقهوة. سألته إن كان سيشربها؟ أجاب سأفعل .. وأضاف: لأجل خاطرك. فشكرته ممتنة.

سألها إذا ما كانت تعمل؟

قالت إنها لم تكن تعمل. فقد تخرجت من الكونسرفتوار وهى متزوجة، وحظينا بطفلة صغيرة ولم يرغب فى أن أعمل. لكن المدام أشارت علىّ بالعمل فى إحدى الشركات السياحية وأوجدت لى مكتباً كاملاً أنا مديرته. أشارت لنفسها وكأن المركز

أكبر منها. استطردت وهى تقسم بالله العظيم أنها أخبرتها بأنه ليس لديها خبرة فقالت: لا تهتمى هذه الوظيفى فى حاجة إلى بورسونالتى. لباقة فى التعامل. لغات ولى أربع لغات إنها تجيد الفرنسية والإنجليزية والألمانية والإسبانية والآن أدرس الإيطالية. أحيانا أقوم بدور دليل سياحى لوفود فى حدود عشرين شخصا. وأحيانا دليل سياحى خاص لضيوفها الأثيرين. هذا يرهقنى كثيرا.. جميعهم يتميزون برغبات متعددة متنافرة حتى إن التعامل مع وفد عدده مائة أقل إرهاقا.. على فكرة عندما ندخل الصالة؛ أولا ممنوع التدخين. ثانيا ممنوع تبادل الحديث لهذا أنصت جيدا. ثالثا تذكر مأساتك.. آسفة لا أظن أن لديك مأساة. تذكر مأساة أى إنسان آخر ولتكن مأساتى. وعقبت ضاحكة ليست لى مأساة وإنما أنا فقط تنهمر دموعى وأنا استمع للموسيقى. المأساة والملهاة ستساعدك على الاستماع والفهم. دقت أجراس القاعة فهمست أن الوقت قد حان.

* * * *

فى آخر حوار دار بينهما فى القاهرة قبل عودته إلى العاصمة. عرضت عليه مدام تحسين ما ظنه لحظتها طوق النجاة. وفى الحقيقة كانت قد جعلت منه دون أن يدرك عميلاً مزدوجاً. لقد حملته بحزمة من الأخبار الخطيرة. وبدلا من النزول فى مطار الحاضرة الشرقية. رحل مباشرة إلى العاصمة.

* * * *

- 10 -

في الواحدة ظهراً، سمعت فاطمة طرقاً خفيفاً على الباب الخارجى للشقة وعندما فتحت الباب وجدت أمامها فتاة متشحة بجرد. أخفت جسدها كله. ولا يبزغ من وجهها سوى عين واحدة. سألتها عما تريد؟. تلعثمت سالمين ولم تدر ماذا تقول وقد نسيت اسم صديق ونيس. أغرقها العرق البارد خوفاً من أن تكون أخطأت المكان. فهمست وقد احتقن وجهها من صعوبة الموقف: الدكتور ونيس موجود ؟

- من ؟

- دكتور ونيس!

قالت فاطمة وقد شعرت باضطراب الفتاة : لا. هذا منزل الدكتور رفعت. ارتعدت في اللحظة التي خرج فيها شاب فى التاسعة والعشرين على الحديث مسرعاً وهو ينادى من الداخل: مين.. مين يا فاطمة؟

فاستدارت تقول فتاه تسأل عن دكتور يدعى ونيس. ولحين جاء رفعت كان دم سالمين قد جف فى عروقها. واستراحت أعصابها وقد غمرها الخجل عندما أقبل شاب مرحا: أهلا.. أهلا.. اتفضلي دكتور ونيس جى حالا.. عندما دخلت إلى غرفة الاستقبال كشفت عن وجهها والدموع تكاد تطفر من عينيها: سالمين .. مش كده؟

- نعم

- هذه زوجتي.. فاطمة وأنا الدكتور رفعت صديق ونيس أهلا بيك.

وتقدمت زوجته إليها مرحبة: آسفة معنقدش إنك تقصدي

الدكتـــور ونيـــس. اعذرينـــي رفعـت مـا قليش حاجـة .. أهلا وسـهلا تفضلـــي. طارق ابنـــي.. تعال ســلم علي طنط. تقـدم منها طفل صغير لم يتعد السنتين من عمره وهو ينقل بصره بينها وبين أبويه باستغراب وحيرة فأخذته بين يديها لتداري اضطرابها.

- ونيس كلمنى عنك كثيـرا. ولا يكفيه الوقت ليتحدث عنك. واســتذار لامرأته بتواطؤ ضاحك.. عاشـــقان... أقصــد الكلمة. ثم اســتدار إليها قائــلا: كنت كده أنا وزوجتي قبــل أن نتزوج وما زلنا.. مــش كــده؟ .. ضحكت زوجته ونظــرت إليه بوجه ملــيء بالطيبة وقالت: هو كده لا يجد إنساناً إلا ويحدثه عنا.

- الله ! مش بقول الحقيقة ولا أنت بطلت تحبيني.

فقالــت وقد اتســعت ابتســامتها تعبيرا عن عــدم التصديق وضمت كفيها إلى صدرها: أنا ... مقدرش أبطل أحبك.

- خلاص يبقى عندى حق أن أحكي لأي بنى آدم. واستدار لسالمين يسألها: مش كده؟. همست : طبعا.

فهــز كتفيه وهو خارج دلالة علــي أنه وجد من يؤيده في صحة آرائه. ثم عاد يحمل سجائره وقال إنه ما دام الإنسان يحوي في جوانبه حبــاً. فليس لــه أن يخفيه وعليه أن يعلنه علــي الملأ. الكراهية بس يمكن نخفيها فى منطقة محايدة. بلا تعبير وبلا نفاق.

قالت فاطمــة : هو كده متقدريش تأخذي معاه حق ولا باطل.. بتشتغلى؟

- طالبة

- في أي سنة

- في الصف الثاني الثانوي

- هو ده كان عمري لما اتعرفت علي رفعت. تشربى الشاي .

فجاءها صوت رفعت من الداخل: هو يعنى مفيش غير الشــاي قدمي لها عصير موز ولبن. قامت وهي تنظر ســالمين وعلي وجهها تعبير الامتعاض السعيد: حاضر. حاضر.. ده بيتك وأنا أختك ورفعت

أخوك.. عندك أخوات أكبر منك ؟

- لا أنا اكبر أخوتي .

- كويس ادى أخوك الكبير وأنا أختك الصغيرة. مفيش داعى للتكلف.. تعال تعال يا طارق .

عندما وجدت نفسها وحيدة تطلعت إلى ساعتها. بقي على مجيئه نصف ساعة. تفقدت الغرفة.. حجرة مكتب واسعة ملحقة على صالة استقبال. أثاث ينم عن ذوق وطابع شرقى دافئ. خلفها مكتبة تضم كتباً في مجال الاقتصاد والسياسة والطب. في أحد الأركان وضع هاى فاى استريو يضم بيك أب. وعلي الجدران صور لأشخاص لا تعرفهم من أجناس شتى أحدهم ملتح وآخر يقف خطيبا وسط مجموعات من الناس تستمع إليه في اهتمام بالغ .

قطع عليها تأملها دخول رفعت ومعه أشرطة تسجيل. وخلفه زوجته تحمل أكواب العصير: تسمعى فيروز.. ده شريط الموشحات الأندلسية.. لما ونيس يكون هنا بيطربه.. نظر لها وابتسم: دلوقت عرفت السبب. ونظر لزوجته وقال صراحة.. عنده حق. شعرت بالخجل. أدار المسجل. وهو يسألها إذا ما كان يكتب لها شعراً؟. نفت بابتسامة خافتة. فقال مقرا «غلطان» وأضاف مستشهدا بزوجته إنه أرسل إليها عشرات القصائد قبل الزواج. وأضاف بتأكيد وحتي بعد الزواج؟

أجابت في عناد: قصائد إيه يا عم. ح تعمل فيها شاعر. واستدارت تحدث سالمين: خدعنى كان بياكل بعقلى حلاوة.

- أنا!!.

- أقول ولا نسكت أحسن.

- لا قولى. ابتسمت وقالت: زى ما تحب أنا ح أقول الحقيقة. اسمعي يا سالمين: أيام المراهقة جاله إسهال شعري -وضحكت ولم تمنع سالمين نفسها من الابتسام- وراح يعرض قصائده على أصدقائه. طبعا فيه اللى يطيب خاطره. وفيه اللى يقول له الحقيقة. لحد ما عثر على. كنت الغبية الوحيدة التي صدقته.

بعد كده عندما قرأت الشعر الحقيقى اكتشفت أن شعره من أردأ الأشعار اللي قرأتها في حياتي. ونظرت إليه تتمنى عليه أن لا يغضب لصراحتها. قاطعها منفعلا: بعد ما علمتك قراءة الشعر والنقد.. دلوقت شعري بقى من أردأ الأشعار.. مش ده الشعر اللى كان بيسهرك وما يخلكيش تنامى؟

هزت رأسها وعيناها تتسعان بالضحك وقالت تزيد غيظه: كنت عيله مراهقة.

حاولت سالمين أن تكتم الضحك، وبان على وجهها السرور وهى تتابع شجارهما. واستطرد «مراهقة! ربنا أمر بالستر، لازم تجرحيني قدام سالمين؟»

- أنا بانقذها من اللى ح تعمله فيها بعد شويه، لما يقوم ويجيب لك قصايده، وطبعا مش ح تقدرى إلا إنك تجامليه. انخرط رفعت فى ضحك صاخب، وسالمين على ابتسامتها لا تدري ماذا تقول أو تفعل، وقد ذهبت عنها الخشية والاضطراب.

- أوكى ممكن تسكتى شوية ونسمع فيروز. نظرت إليه مصعوقة: وهو أنا منعتك تسمع اللى عايزه.

- بتتكلمى كتير.

- أنا .. أنا مبتكلمش كتير، هى الحقيقة اللى تضايقك.

- آسف .آسف.. وابتسم لها .. عشان خاطر سالمين. فقالت لها وما زال تعبير الدهشة علي وجهها: مش قلت لك.. مفيش فائدة .

طرق الباب فهتف رفعت: «ونيس » وقام يفتح الباب. دخل ونيس وهو يحيى فاطمة بحرارة فهمست: صديقتك جميلة..

- عجبتك؟

- جدا من فين وجدتها ؟

- من أمام مدرسة البنات الثانوية. وعندما واجه سالمين ضحك من أعماقه، سلم عليها وهو يسألها: كيف حصلت علي الفراشة؟

. همست: من خالتي .

- بتعرف؟

- أيوة.

- باهى أخلعيه.. تأخرت عليك؟

نظرت إليه ونظر الزوجان كل منهم إلى الآخر وانسحبا خارجين. فصاح ونيس بهما أن ينتظرا. وين رايحين. قال رفعت ولماذا يبقيان؟

- مو بالسرعة هادى.

- هو فيه وقت عندكم. لما كنت عاشق ما سبتش دقيقة تفوتنى.

طلب ونيس وهو يضحك أن يتمهل عليهما. وأن عليه أن يعرف أن البدويين ليسوا كيف المصريين. وأضاف أنه ربما يكون الأمر مجاملة ليس أكثر. فأجاب رفعت وهما لهذا سيذهبان قبل أن تقول من فضلك اخرج.

عندما اختليا بالغرفة مد يده يقبض أناملها. فسحبت كفها بلطف وهى تهمس برجاء: لا .. لا نفعل.

- لن نفعل ماذا؟

- ونيس .. حاول تفهمنى .

- باهى.. باهى.. لا بأس .. كيف حالك ؟

- ما بشوف النوم بُكّل .   ابتسم: لشنو؟

- بسببك أنت .. وانت تنام ملء جفونك.

- أنا لَّما ننام تجى أنت. أطبق عليك جفوني وانام.

- جفونك ..

- ما فى آمن عليك منهم. وأنت أعز من عيني.

ضغطت بصف لؤلؤى من أسنانها علي شفتها السفلي وهي تميل برأسها طربا: أنت تنام ولا تعود تشعر بشيء.. نومك ثقيل.

- لكنك آخر مشهد ينطبع علي عيني.

- وبيسعونى؟

لم يجبها. وضعت قلما في فمها وأخذت تعبث به. واستندت بمرفقها علي مسند المقعد. حدقت بعينيه وهي تهمس: تحبني؟

تعلقت عيونه بها للحظات طوال. وما لبث أن ارتسم علي وجهه وجد شديد. وخرج صوته في عمق وروية: توا أقدر أجيبك.. إحنا هنا أبناء العزل الاجتماعي. في أوروبا تعلمت أن الحب مو شحنات من الانفعالات والعواطف. تتكسر علي أرض واقع مجهول أو غامض.. تعرفين كيف؟ اختلاف الطبائع. تعارض الميول والأمزجة. الأشياء الدقيقة السرية التي نخفيها عن الآخرين. وأحيانا عن أنفسنا. أو أن تكون عواطفنا أهواء وانفعالات.. الحب هو الأشياء الملموسة. اللى ينضجها التعارف والمعرفة المتبادلة. بدنا نتأكد من أصالة موقفنا. باهى تذكري أول رسالة الآن..

- نعم

- باهى تذكري. كنت قد ارتبطت بفتاه ألمانية. قاطعته: كنت تحبها؟ أجاب في حسم: نعم. احتقن وجهها فأستطرد: علي أن أطهر نفسي أمامك. يمكن هذا تاريخ خاص بى. لكن أفضل تعرفيه.

تراخت ونظرت في عفو فاستطرد يقول إنه سأل نفسه وهو على وشك الارتباط النهائي بها. هل يستطيع أن يقدم لها حياة سعيدة في ليبيا. كانت الإجابة بالنفى. وأضاف أنه عجز عن إقناع نفسه بأن هذا ممكن. لم تكن الأمنيات الطيبة كافية مهما كانت قوة العواطف بينهما لهذا افترقا. وعندما عاد وجد أغلب الفتيات مسوخاً مشوهة. سواء اللاتي يتشبهن بالتطور أو القابعات في الدور خلف أسوار الماضي السحيق.. بنات العائلات ثرية والمسكينات المغلوبات علي أمرهن يتلصصن النظر. يحترقن في ظلام الانتظار الدامس.. من السهل العبث بهن. لكنه لا يدرى كيف أراد شيئاً خيالياً.

أمسك بيدها وقال: أما أنت فقد أوقعتنى في شباكك بذكاء.. أشعارك ورسائلك التي تحكي أغاني العلم.. علمتني كيف أجد فتاة لم تنقطع عن ماضيها عن جذورها. وهى في نفس الوقت متحضرة.

حل بها السكون والانتباه والرغبة في أن لا ينتهي حديثه وهي تراه يحلق بها الأعالى. وعادها صوته يخبرها أنها فضلا عن كونها

ذات حســن رائق. كانت كتلك البدوية التي تعشق لمرة وحيدة. مثلما يلتقي الفتية والفتيات من الرعاة الرحل عند عيون الماء. يحل العشق بهما ويرحل كل فى طريقه عبر الصحراء الجافة بحثا عن الكلأ وعيون الماء فيلتقيان أو لا يلتقيان. والموت دونها .. العشق لمرة ثم انتظار الموت أو حمل جبال اليأس في شجاعة وصبر. فهل كنت بالجبان الذي يمكن أن يبرهــن أنــه لا يوجد في وقتنــا الحاضر جذورنــا الأصيلة؟.. صمت وصمتت قبل أن يمسك بيديها مستطردا: تسأليني. بحبك.. باهى مو بس بحبك. صار بيننا عهود مقدسة. هي أغاني العلم. تعاهدنا بها على عيون الماء. وبلكى ما تقدر أى صحراء تفرق بينا.

تألقت عيناها بالفرح والبشر وودت لو يمتزجان. وأرتج عليها القول. هــا قد حــل بها الأمــان. ولم يخذلهــا الفتى الذى عشــقته. ولما لاح الاطمئنان علي وجهها. أشــرق بابتسامته المشــرقة الواسعة. وتألق عينيه الضاحكتين. ولم ينقذهما من ارتجاج القول والاضطراب سوى مجيء فاطمة تدعوهما إلى الغداء. استعادا رشدهما وقاما خلفها.

* * * *

صفــت المائدة بالمأكولات المصرية. وجلس الدكتور رفعت بجانب زوجته وجلس أمامهما ونيس وســالمين التي جلست بجانبه. ممتلئة بفــرح مكتوم لعلاقاتها الســرية. التــي اعترفت بها المائــدة. والتى ظهرت في ترتيب جلوســها. وفاطمة تخصها بعناية معهودة تجاه العشــاق الجدد. تشــرح لها ألوان الطعام وتركيب كل منها. مضافاً لذلك عناية رفعت. فضلا عن عناية ونيس التى كانت حميمية دافئة. فكانت المدللة بينهم. وكأن المائدة صفت علي شــرفها. وبين الخجل من الزوجة الصغيرة والاهتمام بونيس. انتبهت علي سؤال ردده عليها رفعــت مرتين. ولم تنتبه فضجوا بالضحك. أوضح رفعت بأنه ليس ثمة مشكلة. وأن معها الحق.

استفســرت عن ســؤاله بعينيها غير قادرة علي الحديث فأعاد

سؤاله مستفسرا عن الكيمية التى تعلمت منها أغاني العلم « وصوب خليل»؟

- أنا!.

قال ونيس مؤكدا «نعم أنت» وأضاف أن الدكتور رفعت قرأ أغانيك ومعجب بها بُكّل . همست أنها سبق وأن أخبرته فهل نسى سريعا.. ثم قالت «من باتى». أصيب رفعت بالدهشة مكررا ما قالته: والدك؟. أجابت مؤكدة نعم فهو يقول الشعر. هتف رفعت "لا".

- هو كاتب مسرحي.

صرخ رفعت: كاتب مسرحي. وقاعدة ساكتة. اسمه إيه؟

قالت سالم الفيتورى. فكر ثم قال كمن يكتشف لغزا: عرضت له مسرحية «الدار الكبيرة». أجابت: نعم. فاستدار رفعت لونيس مهللا: دلوقت معندكش مشكلة. أبوها راجل مثقف. سألها: انتم متفاهمين.

- نعم.

- أعني كيف يعاملكن.. علي علاقة طيبة معكم .. قريب منكم؟

- واجد.

- رائع... رائع. قال ونيس: والعجوز.

فقالت في دلع: أمي صبية.

- باهية مثلك.

- أجمل مني. وهي وأبى متفاهمان وبينهما ساعات الصفاء كثيرة.

قال رفعت: آه.. كشفنا سرك.. أجابت في دهشة: شنو؟

- كنت أتساءل.. مش كده يا دكتور ونيس. إيه اللى يخليكى عندك الحساسية العالية لتذوق أغاني العلم. وقاطعه ونيس: خاصة ما فى حد يعرفها توا. قال رفعت بانفعال مثقف: هذا شيء عظيم.. رائع.. لم أجد باللغة العربية تعبيرا بكل هذا الإيجاز والبلاغة عن الحبيب. الفتى يكنى حبيبته بهذه الكلمة « عَلَمْ ».

فيهــا كل آيات التقديس والبلاغة. إذا أخــذت الكلمة مجازاً للراية فهـــي الوطن. قــدس الأقــداس. يفتديها الفرســـان بحياتهم. وهى الشـــخص المعلوم والمعروف بين القوم. فهـــو العلم من أعلام الأدب أو أبطال الأمة فهي لا تقل جمالاً عن التعبير الأول. لكنه فى نفس المحبوب سر عن العشـــيرة. مجهول لا يعلمه إلا العاشق. والنتيجة جمـــع بين نقيضين لقد اكتشـــف بين القوم عظيم هو معشـــوقه المعلوم والمعروف لديه والمجهول من الجميع. فهو الوحيد الذي يملكه. صفقوا له جميعا. فانحنى يرد التحية.

ضمت سالمين جسدها وانكمشت تحت علمها. ورنت إليه تتذكر أول كلمة نادها بها في الطريق « يا عَلَمْ ». وعاجلها ونيس وكأنه يقرأ أفكارها «إنها أول كلمة ناديتك بها». هزت رأســـها سعيدة بالإيجاب.. قال رفعت مبتســـماً: أنتما كل للآخر «عـــلــــمْ». ضحكت سعيدة وأعادت رأســـها إلى الخلف ببطء وقالت فاطمة: هى فعلا كذلك حقاً. فنظرت إليها سالمين بلطف وود.

قـــال ونيـــس: أنا لما أســـتمع لأغانى العلـــم أو للســـريب تتجاوب أحاسيســـي. رغـــم أنها بيـــت واحد من الشـــعر. لكنهـــا قربة معبأة بالعواطف. سيحملها الرعاة لعام لحين يلتقى الأحبة. وقد لا يراه ثانية. وإلـــى أن يلتقيا فعلى أغنية العلم القصيـــرة أن تكون زاد وعهد المحبة وقســـم الوفاء. واستدار لســـالمين«صح». ضمت ساعده برفق ونظرت إليـــه. كانت تهيم وجدا. قال رفعت: إن أجمل ما فيها أنها فن بكر لم تلوثه الحضارة. ووقف يدعو ونيس لقول الشعر من صوب خليل.

قال ونيس هناك مواقف محددة للصوب وهي الســـلام وشرب الماء. وعليها تتوقف العلاقة بين الفتى والفتاة ففي السلام يقول الفتى.

« السلام عليكم»

ترد الفتاة

«سلام غَالْيَة الكلام من ضّيمْ   يا عَلَمْ نار الغَلاَ »[7] .

وهذا يعني أنها قبلت بحبه. والماء رمز الحب والفتاة التي تعطي طاستها لشاب ممتلئة بالماء فهي أحبته. يقول الفتى :

«عطيني نشرب »

فتجيبه الفتاة:

«شـــرابنـا تُـــوت   واللي يذوقه يمـــوت ».

فيرد الفتى:

«سوا توت والا أمــوت   نذوقه بشهاوات خاطري » .

اســمعوا هذه الأبيات وقال رفعت لزوجته.. لا تقفي على رأسي كالحارس واتركي لي حريتي بالحديث فضحكوا .. قالت فاطمة : من ح يقول لك مش عايزين نســمعك. فبادروا للضحك ولكنه استمر قائلاً :اسمعوا

غلاك لا تخاف عليه   ستين تامجة بارقات به [8]
وكل تامجه ميتين   وفيها ثلاثين طبجي
وكل طبجي بامرايات   يعاين على قيس العدو

ضحكوا ستين موقع حربي وفي كل موقع ثلاثون مدفعاً ومئتا جنديا. صاح ونيس مبتهجاً موجها حديثه إلى ســالمين: باهي باهي اسمعوا الأغاني هادى.

«العقل يا بعاد الدار   يمس معاي ويبات عندكم»

وقف رفعت يسأله أن يعيد القول مرة ثانية. قوم.. قوم قول لها.

وقــف ونيس ثم مرت ثوان. لكنه ركــع أمامها. صعقت فاطمة.

---

(7) سلامي لا أستطيع التعبير عنه بالكلام بما يتأجج بين جوانحي من ظلم ونار الحب.
(8) لا تخشى على حبك فحوله ستين موقع حربياً بكل موقع ثلاثون مدفعاً وكل مدفعي أمام منظاره يرصد به العدو.

وصمت رفعت. والخجل يكاد يبك بحمرته من وجنتى سالمين. قال:

«العقل يا بعاد الدار يمس مغاي ويبات عندكم»

لم يتحرك ونيس من مكانه. رنا رفعت بعينيه إلى سالمين. وحدثها بعينيه وهز رأسه يطلب ردها.. بعد لأى طويل نطقت بصوت هامس:

«قليلة نجا يا عين من يوم ما وطيتي نارهم»

شهقت فاطمة. فأمسك بها رفعت ودلفا إلى الخارج.

* * * *

انتقلوا إلى غرفة الاستقبال وتابع ونيس عينيها إلى الصور المعلقة فقال بابتسامته المعهودة يشير إلى إحدى الصور في خبث: هذا عبد الناصر تعرفينه؟. أجابت بالإيجاب. فاستمر يقول في خبث وهذا العم ماو. وذو اللحية والسيجار جيفارا. أرنستو تشي جيفارا كلهم شيوعيون. حتى الدكتور رفعت يسارى.

استفهمت بعينيها فالكلمة قريبة لديها من شيء يثير الرعب. وجاءهم صوت رفعت يصيح من الداخل: لا يا دكتور ونيس. مش كده.. أنا ناصرى قلبا وقالبا.. إنت بتشوهني قدامها. وجاء مسرعاً وضحكة فاطمة تتابعه وهي تقول تناكفه متسائلة لماذا ينكر الحقيقة. استدار نحو زوجته في حنق وهو يقول ضاحكاً إنه سوف يخنقها يوما. أطربها حنقه وضحكت. قال لزوجته والذهول يحل بسالمين لما يجري حولها. وحضرتك يمينية قوى.. لم تستطع الرد وطفرت الدموع من عينها ضحكاً فاستطرد يطلب منهم عدم التعجل. وأن يتركوه يشرح لسالمين الأمر وسألها لماذا أصيبت بالوجوم.. وإذا ما كانت تراه من أكلة لحوم البشر. ابتسمت وعيناها الواسعتان تسألان ولا تنفي أنها تشك في حقيقة كونه قد يفعل.

- باهى .. أنا أومن أن الله قوة قادرة مهيمنة مطلقة تتصف

بصفة لازمة ليست في محل نفي وهي العدل. مشكلتي أن البؤس والخراب والجوع والظلم والاضطهاد والاستغلال والبشر الذي يؤثر في أجيال بكاملها على هامش الحياة التعيسة ويرحلون دون أن يتركوا أثراً.. أراه أمراً لا أستطيع فهمه ولهذا أعتقد أن على واجباً هو العمل من أجل إقرار العدل بين الفقراء. قالت سالمين إن انعدام العدالة فى الحياة هى حكمة.

- هكذا يقولون. وهي حكمة لا أومن بها. فالإنسان أجمل بكثير من أن يأتي ويرحل هدراً.

لم تشأ أن تكون في محل جدل فيما تؤمن به. ولم تسع لأن تعيده إلى جادة الإيمان. ولكنها نظرت إلى ونيس في غضب طفولي وهتفت: وأنت ؟.

ضج الثلاثة بالضحك حتى هي ضحكت. وقد اختلطت حولها الأمور. خاطب ونيس صديقه معلنا أن صداقته سوف تضعه فى محل الشبهات. فنفى رفعت الأمر. وسألها ألا تخشى شيئاً. هو مؤمن بالقطع لكن مصيبته التفكير.

دافع ونيس عن نفسه بأن عدم مواظبته على الصلاة لا ينفي إيمانه. وطلب من رفعت برجاء ألا يستخدم خبثه فى إثارتها ضده. فتساءل كيف يثيرها وهى لا تعرف غير الله سواك.

عادوا إلى الضحك. وونيس يستحلفهم بالله معترفا بخطئه. أن يبتعدوا عن هذا الموضوع. وافق رفعت وقال له ما دمت قد اعترفت فقد عفونا عنك. وعلى العموم سنخرج ونعفيكم من رذالتنا ونترككم وخدكم. لكن قبل ما نخرج اسمعوا ده:

«أن كان فيك دمع يسيل   يا عين ها ذي دارهم»

هذا البيت استعاض عن قصيدة كاملة كالأطلال لناجي.

قال ونيس: الحبيب لا يكني بالعلم فقط. هناك كنيات كثير مثل

(العزيز الغلا ولولاف) وإذا كان الحبيب متزوجاً أو يحب آخر فيكنى عنه (المرهون والغني) وفي هذه الحالة تكون أغاني اليأس مثلاً:

«لولا فزاع الصَّبر م إلياس   راك يا عين ضايعة »

قالت سالمين بعذوبة مفاجأة، وصوتها يتداعى رخيما كأوتار البيانو:

«نرجاهم أتناشر عام   بحساب يوم في شان الوفاء»

وحل بنظراتها الخوف، كأنها تفقده في ذات اللحظة، بهت ونيس وامتلأ حلقه بغصة، ونظر إلى عينيها فلمح الخوف من قسوة حمل الوفاء، وتصميمها عليه حتى لو جاء المستقبل بالفراق، لمس أناملها فارتعشا، وحل صمت بالمائدة ونظر رفعت إلى الفتاة بإعجاب وطلب منهما الانتقال إلى غرفة الجلوس، وسألهما إذا كانا يرغبان في شرب الشاي، نفت سالمين بعبارة الشكر، لكنه أصر أن تشرب، فعقب ونيس إنهما سيشربان أي شيء يقدمه من أجل خاطره.

اضطربت سالمين وارتج عليها القول، ارتاحت لفكرة أن تبقى معه وحيدة، وخافت من وحدتهما معا أيضا، لكن المزعج كان خشيتها من فهم رفعت وزوجته للأمر، لكن صوت رفعت جاءها لينتشلها من مشاعرها وهو يخبرها أن ونيس بالنسبة له أكثر من أخ، وابتسم متفكها مستطردا ورغم أنه ليس ناصريا فإننا نحترمه ونقدره تقديرا فائقا، كلانا أنا وزوجتي نعتبرك أختا لنا، ونحن سعداء بك وبقبولك منزلنا مكانا للقائكما، وإنني أرجو أن تثقي تماما في أنني كنت سأوفر لشقيقتي مكانا لأن تلتقي بمن تحب، شرط أن تكون واثقة من مشاعرها، واثقة من الشخص الذي اختارته، وقبل هذا وذاك واثقة من نفسها، وهو ما أنت عليه حقيقة وأنا وزوجتي وكذلك الدكتور ونيس نعرف ذلك، وإذا كان في استطاعتي شيء فدعيني أنصحك النصيحة التي سأقدمها لأختي تصرفي كما يتصرف الشرف نفسه، وما يجعل رأسك مرفوعة على الدوام، وتمسكي بعواطفك ومشاعرك واجعلي

عقلك حكما. وإذا استلزم الأمر أن تقفي ضد تيار بكامله. ففي دفاعاً عن نفسك طالما أنت لا تضري الآخرين. استدار إلى ونيس قائلا: هل صرت واعظا ؟ أجابة أنه صار أكثر من واعظ.. أصبحت قسيسا.

هز رأسه وقال «ماشي يا عم» واستطرد أنهم سينتظرونها دائما. شد على يدها مشجعاً وقبلتها فاطمة. وحملا طفليهما ورحلا في سيارتهما الصغيرة إلى البحر.

* * * *

بقيا لفترة والكلمات معلقة على فم كل منهما. خطر لسالمين أن تصنع شيئاً. فهمست سأحضر لك شاياً. هل تشرب الشاي؟.. أبى لا يشرب الشاي إلا من يدي .. أجابها بكل حواسه «منك».

سارعت كي تعد أحلى شاي بحياتها. شايها هي وانتظر كي يتذوق ما تصنعه له فتاته. ذهب خلفها إلى المطبخ. يبحثان معا عن السكر والشاي والملاعق وأكواب الشاي. ولما انتهيا حملت صينية الشاي. وعليها كوبان وعند غرفة النوم تمهلت ووقفت على عتبتها. ولحق بها. ومتعه روحية تسرى في جسده. تلمسا الغرفة بعينهما. وخيالها يدور حول الأشياء الغامضة التي تحويها هذه الغرفة وفراشها. وترنو بأحلامها إلى غرفة نومها الخاصة.

أما ونيس فقد خطرت في ذهنه عشرات المداعبات الجنسية التي أتقنها على أيدي الأوروبيات. وخطر له أنها تجهلها. وأنها قد تخشى الصراحة الجنسية. وفكر أن قليلا من المثابرة منه والحب منها. قادران على أن يكسرا غلائل الخجل المترسب الذي أسماه الجهل.. ولفترة طويلة لم يخطر بباله أي مشاعر جنسية مبتذلة. فقط حذر ورعشات كأمواج البحر المنعشة. ونار هادئة تركها كي تنضج على مهل. وحتى يحين زواجهما.. همس: سنشترى غرفة نومنا من إيطاليا. لي صديق يحضرها لي من دون ربح التجار.

نظرت إليه دون أن تتحدث. مزدان قلبها بالسعادة. لقد بدأ الحديث حول ممتلكاتها الخاصة. فأخذت كفه في يدها. ودفعته إلى الخارج. وهي تبتسم وقد حل في نظرتها هدوء كثيف. يبرق من تحته وهج ناعس يرنو إلى المستقبل. تحدثا كثيرا وعندما سمعا الألحان الشعبية. نظر إليها ونظرت نحوه والتمعت عيناها. قال لها: هيا.

- شنو؟

- ارقصي. ضمت بأسنانها شفتيها السفلي وهي تستمع بالفكرة.

- تبي نرقص؟

- نعم.. .. هيا ..

- لكن.. قامت مضطربة.. عندما ضمت ساعديها مستقيمين بمستوى كتفها وجسدها يتشبع الإيقاع وبدأت تحرك قدميها الصغيرتين حافية. وأردافها تهتز في تناسق. رأى أصابع قدميها رقيقة جميلة. وقدميها الدقيقتين يتنقلان دون أن يتركا الأرض. وتماهى جسدها بخفة مع الموسيقى. وانطلقت ترقص جذلة. وكلما لمح حركة نهديها الصغيرين الصلبين أحس بالدنيا تنبض بالحياة. سرعان ما نسيت اضطرابها. ساعتها طيرت جدائلها خيمة واسعة تظلله من قيظ الهجير والصحراء.

عندما حلقت جدائل شعرها تغطي وجهها ورأسها يهتز يمنة ويسرى. وهي تنظر له ضاحكة. وهو مشدوه كصياد أسرته حورية البحر. وكلما لحت دهشته تماهت ترقص وترقص سعيدة حتى انتبه على دقات الساعة. نادها: سلمى .. سلمى .. نظرت له وهي ترقص وقد بلغت نشوتها العنان.

- توا تبي ترحلي ..

- شنو؟

- تأخرت واجد .. تأخرت. توقفت عن الرقص. وقد انتبهت للوقت..

قالت وهي تلهث: يا ربي .. ترى أنا نسيت نفسي.

خطفت العباءة.. تابعها وهي تلف نفسها. وقبل أن تغادر الشقة توقفت تنظر إليه قبل أن تقترب منه بجواره تقبل وجنتيه. تماما كما قدرت أنها سوف تفعل. اندفعت تنهب السلالم نهبا. تاركة إياه في غيمة من فردوسها السماوي.

* * * *

حل الخريف وراحت الأوراق تتساقط عن أغصانها وبدأ السهل الساحلي يموج برياح خفيفة. مودعا الصيف بعذوبة لسماء صافية مظللة بسحب الشتاء القادم. وأخذت الأيام تأتي بزخات المطر المتقطع إيذانا بقرب قدوم الشتاء. انتاب الأم قلق الأمهات. تتطلع لزهرتها البكر وهي تتفتح. تراها ساهمة واجمة. تقضي لياليها تلمح البوادر الغامضة لسلوك ابنتها وتصرفاتها التي تطبعها أحاسيس حب بكري.

أصبح ونيس صديق إخوتها الصغار. يعطيهم الحلوى. ويتبادل معهم الحديث. وعندما يقبل قرب دارهم. يشيرون إليه. ويندفعون يخبرون أختهم الكبرى. فتتابعه من فرجة في النافذة. غاضبة سعيدة بتهوره. وقد أصبح الدرب الضيق الملتوي الذي يبدأ مواجها لثانوية البنات. طريقا مألوفا لسيارته. يعبره يوميا دون ملل.

تعودا أن يلتقيا كل ثلاثة أسابيع. وفي كل مرة تتركه وفي صدرها نشوة عارمة. ولم تتجاوز علاقتهما الحسية الارتجاف الذي يحل عقب تلامس الأنامل. والدفء الذي يشع عندما يقبض بكفه على يديها الصغيرة. مرات كثيرة كانت تعد له الطعام في منزل صديقه: تحضر في الحادية عشرة. وتشمر من ذراعيها وتروح تصنع لهم أطباق ليبية وفاطمة تساعدها. ومرات أخرى عديدة كانت تأتي محملة بأنواع الطعام التي ستقوم على صنعها. وقد زادها

ذلك تمسكا لاستقلالها.

بدت المدينة أكثر جمالا واتساعا وصفاء، رغم أنها تبدو في عيون الآخرين طاقة مكتومة تدفعهم إلى اللهاث دون شفقة. المعمار والأضواء الكهربية تنتشر في أرجائها بسرعة البرق والأحياء السكنية القديمة تحل محلها أحياء جديدة، ومحل اللون الترابي الكابي المغبر يحل الأسمنت الناصع. علامات الطرق العاكسة ومكان الحدائق والعرائش والدور والأحواش ذات الطابع الأندلسي القديم كانت ترتفع العمارات العصرية ذات الغرف السكنية الضيقة، وتتكدس الحسابات والأرصدة السرية للتجار ومقاولي البناء في البنوك، وخارجها ،كان الضحايا من الشباب الذين وقعوا فرائس التطور الانفجاري.

«راقبها وهي تسقط»

كانت المدينة تستيقظ بين عشية وضحاها على ضحايا من فتيات وقعت بين رحا التطور المادي السريع، وقسوة القيم القديمة. لاحظ ونيس أقسام الاستقبال وغرف الجراحة وهي تستقبل حوادث الاغتصاب، وحالات الانتحار بعنف مكتوم، دون أن يحاول أحد مواجهتها، ويوم جاءته تلك الزوجة الشابة البائسة، مهلهلة جسديا مدمرة نفسيا، بعد معاناة دامية عقب قيام أربعة ذئاب بشرية باختطافها، بينما كانت تتنزه مع زوجها بالجبل الأخضر، والولوج بها إلى مغارات الجبل والقيام بانتهاكها واغتصابها ثلاثة أيام متواصلة، دون أن يجرؤ زوجها على الإبلاغ عن الحادث، حماية لسمعته. كان ونيس يحاول مع الدكتور حمد البرغثي مدير عام المستشفى إنشاء قسم خاص للعلاج النفسي يتولى تهيئة ضحايا الانتحار والاغتصاب لتقبل العالم وتقبل المجتمع لهن ومساندتهن، وقد جعل من هذه السيدة نموذجه الأول.

هذا الصباح جاء مغبرا، فالصرخة التي أطلقتها الممرضة

كانت تنم عن الكارثة. فالسيدة التى كانت قد بدأت تستجيب للتجربة وجدت منتحرة وبجوارها ورقة طلاق تركها زوجها على وسادتها فى المرة الوحيدة التى قام فيها بزيارتها.

بعد غروب اليوم السابق. لمحت الفتاة التي تقود السيارة الفيات الحمراء تصف سيارتها في أحد الشوارع الجانبية. بعد أن قامت بتوصيل والديها إلى عزاء أحد الأقارب. وتنتقل خلسة إلى إحدى السيارات المرسيدس الفاخرة. لابن أحد كبار تجار المدينة. حيث أخذها إلى إحدى شققه الخاصة.

لم يشفع لها رجاؤها للفتى لحياة طبيعية. مزقها ولم يكن ليقيها من ذلتها أحد.

نزيهة المتعبة في سفورها. تجلس طويلا في شرفتها تستعير منه سجائره التى يحتفظ بها لديه. تدخنها بشراهة حتى تظهر سيارة آمر الحامية. فتدخل وعلى وجهها تعبير ماكر موجه لونيس يقول سوف أقتنصه زوجا شاء أم أبى.

كن جميعا يمتلكن المؤهلات الضرورية لزيجات وارتباطات صالحة. الجمال والحسن البدوى والمستوى اللائق من التعليم. والرغبة المفعمة بالحب فى الحياة. فلماذا لا تستوي رغباتهم. لماذا ترتدي كل منهن حذاء ليس لها؟.

كلما تلمس قاع المدينة. اشتد تمسكه بسالمين. التي أعلنت عن حبها له بجلاء. وعندما اعترضها في أحد الأيام مهندس شاب عند إحدى صديقاتها فى دعوة لم تدرك الغرض الكامن وراءها. تقدم يعرفها بنفسه: اسمحي لي بأن أقدم لك نفسي. مهندس عبد الله المصمودي. نبى أسألك قبل أن أتصرف من نفسي. تقبلين الاقتران بي. كانت إجابتها له واضحة بجلاء:آسفة أنا مخطوبة للدكتور ونيس بوزوى.

أمام دهشة ونيس قالت إنه ليس لديها ما تخفيه. أنت الأول والأخير في حياتي.

شعر بالخوف. فتشبثها به وهي تقرن اسمها باسمه في مجتمع بدوي، سيزيد من أعبائها. لكنه أستعاد الشعور بالاطمئنان عندما أبلغته أن خالتها تريد مقابلته.

في محل العطور التقي بسالمين وامرأة صغيرة لم تتعدى الثالثة والعشرين، تحدثا طويلا. كشف ونيس بسرعة عن نقاء سريرته، ووجهه المشرق وضحكته المتألقة وسلوكه المهذب المتحضر الذي يترك لدى من حوله أثرا بالغا. سألها إذا ما كان نجح في الاختبار. أجابته بمرح «قالت لي تشبثي بيه «بايديك وكراعيك» وأعقبت وهي تمثل التأفف: هكى ترى الجميع يوافقون على القول بأني لم أسئ الاختيار.

* * * *

وفي نهاية الأسبوع الثالث من شهر سبتمبر رحل ونيس إلى الحضر بعد أن استدعاه عمر لمقابلته على وجه السرعة. استقبلته فاطمة التي أصبحت سكرتيرة رئيس مجلس إدارة المؤسسة باحترام، وأدخلته إلى أخيه. وجده جالسا مع مجموعة من الفنانين والمهتمين بالفن والأدب والموسيقى. خليط من الشباب والموسيقيين ورجال المسرح ومصورين بالتليفزيون. وهو يتحدث معهم حول أهمية سماع الموسيقى الكلاسيك، وتكوين النوادي الفنية لمتذوقي الموسيقي ومحبي المسرح. والدور الثقافي الذي يمكن أن يلعبه الفن في أوساط المتعلمين من الشباب.

أصابته الدهشة لاهتمامات أخيه الجديدة. فلما انتهى استدار إليه وأخبره أن عليه أن يجهز نفسه للسفر بعد خمسة عشر يوما إلى لندن، ليلتقي وأخاه ناصر الذي سيعرفه على أحد أساتذة الطب المصري، ليقوما معا بإتمام التعاقد على شراء المعدات والتجهيزات الطبية الخاصة بالمستشفى المزمع إنشاؤها بمصر. فتح ونيس فمه

مندهشا. حاول أن يوضح أن الأيام المتبقية لا تكفى للحصول على إجازة، أو إنجاز أوراق السفر والتأشيرات اللازمة. لكن عمر أخبره أنه سيأخذ المسألة على عاتقه وطلب من فاطمة أن تتولاها شخصيا. وفي صباح اليوم التالى حضر ونيس إلى المكتب. وجد التليفونات تجري على قدم وساق لتذليل عقبات السفر. ترك ونيس جواز سفره لدى فاطمة ورحل عائدا إلى مقر عمله لإتمام إجراءات الإجازة. لم يجد صعوبة تذكر فقد سبقته التوصيات اللازمة. وقبل ميعاد السفر اتفق مع صديقه رفعت أن يذهبوا في رحلة إلى ساحل الجبل الأخضر. وكي تذهب معهم سالمين فعلت المستحيل من عشرات الحيل ترجو خالتها حتى تغطي ذهابها، وأخيرا وافقت وقلبها يرتجف من انكشاف أمرهما.

في صباح الجمعة خرجت سالمين من منزلها باكرا، والسماء ملبدة بغيوم خفيفة، وذهبت إلى خالتها حيث أخفت نفسها جيدا داخل الجرد. وخرجتا كل إلى جهة: حيث ذهبت الخالة إلى البوادى تزور كنتها، أما سالمين فقد يممت شطر منزل الدكتور رفعت.

استقبلت بالتهليل، واندفع طارق إلى حضنها مرحبا. كانت فاطمة قد أعدت كل أدوات الرحلة. موقد غازي صغير وثلاجة رحلات، وكراسي بحر، وأدوات طعام وشاي وقهوة وفخذ ضان للشواء، وأنواع السلاطة والمخللات. قام الثلاثة على نقلها للسيارة الفولفو التى أحضرها ونيس خوفا من أن يتعرف عابر على سيارته البيان فيو. في حين بقيت سلمى تلاعب طارق وتستكمل له ثيابه. وفي السابعة والنصف صباحا تسللت السيارة من أمام منزل الدكتور رفعت. وقد انزوت سالمين في المؤخرة بجانب فاطمة، مستترة داخل الجرد. وبينهما جلس طارق يغرد لأمه. كان ونيس قد ترك لرفعت قيادة السيارة، وهو يمني نفسه بأن يستطيع إخفاء وجهه خلف إحدى المجلات، حتى لا يسأله أحدٌ عن تلك المتخفية بالكرسي الخلفي في العربة التي يقودها. بينما رفعت يسب ويلعن اضطراره قيادة

سيارة فخمة. لكنه ما إن أخذت تعب الطرقات الداخلية للمدينة التي غسلتها مياه الأمطار ليلا حتى أخذ يستطيب قيادتها. وبعد عشر دقائق أصبحوا خارج المدينة. اتخذ وجهة البحر. وكان المطر قد بدأ في الهطول. وعلي الطريق الساحلي سلكا يم الغرب. انعطف رفعت يمينا عبر الكوبرى الحديدي القديم. وأصبح بالطريق الساحلية القديمة وأخذ يسير باتجاه رأس هلال.

* * * *

عندما انعطف إلى الطريق القديم تخلت سالمين عن انكماشها. ونفضت عنها الجرد الملتفة به. وفاطمة بجانبها تضحك بطيبة بالغة لموقفها. قالت في عصبية: شنو أسوى؟ النساء عبيد بلادى مش كيف مصر.

ضحك الثلاثة لعصبيتها وابتسم الصغير وضحك هو الآخر. وكان كلما رأى أمه تضحك غرق في الضحك. لانت ملامح سالمين وابتسمت وعادت تسوى شعرها. بوغتت بصفير رفعت وهو يطل عليها من المرآة العاكسة للسيارة. وهو ينم عن إعجابه. وصاح «يا لطيف». وكاد ينحرف بالسيارة وهو يحدق بها . هتف به ونيس: باهت قدامك. كنك تموتنا. أجابه بأن الموت لن يكون بسببه ولكن بسبب الجمال الكائن خلفه.

نظر ونيس إلى الخلف وكأنه يراها لأول مرة. بهرته فتنتها: عنقود كروم تتفتح عن حبيباته الخضراء. كانت سالمين ترتدي بنطالا وقميصاً قصيراً أنيقاً كاوبوي. التفا حول جسدها بدقة وضم القميص نهدين متكورتين برفق. وقد تركت الزرار العلوي مفتوحاً يجذب الخيال لما يخفيه. برز ساعداها وعنقها العاجي. واختفت أطرافها تحت شلال من الجدائل الناعمة السوداء لشعرها الأجعد الطويل. الذى أطلقته من عقاله. فغطى ظهرها وساعديها كالعباءة. فبدت بوجهها الخالى من المساحيق وردائها الأنيق غصناً يانعاً للشباب بخطو السابعة عشرة برفق وارتخاء.

والتقت عيناها بنظره إعجاب من ونيس. الذي استند بذقنه على مسند كرسيه يحدق بها. فاستنامت بنظرتها إليه. مغمضه العينين في كسل وســرور خفي. كانت تخطط لإثارته بفتنتها وقد نجحت. ولأول مره يود ونيس لو يهصر خصرها بين ساعديه. استفاقت على خواطره ونظراته النفاذة. ابتسمت ولم ترحل بعيدا عنه. كان ردها افعل لو استطعت.

أخذت السيارة تخب الطريق الأسفلتية الوعرة. في ثبات والطريق تميل جهة الجبل. ولا تلبث أن تعود إلى جهة البحر. لتصبح في موازاة الساحل مرة أخري. ومن الخلف أخذت سيارة مرسيدس بيضاء تسرع خلفهــم حتي تجاوزتهم وكانت تحمل عائلــة أوروبية. فاغتاظ رفعت وراح يطاردها. ويلاحقها بنفير السيارة حتى أخلوا له الطريق الضيق وعندما تجاوزهم. تبادلوا عبر النوافذ التحيات والتلويح بالأيدي. عندما بدأ رذاذ المطر فى السقوط.

* * * *

يمتد شاطئ البحر المتوسط لولاية الشرقية مئات الكيلومترات حيث يطل الجبل مباشــرة على البحر. تاركا شــاطئاً رملياً. وطريقاً ضيقة للســيارات تدور وتلــف فى انحناءات حــادة محملة بالخطر والجمــال. قال رفعت إلى مدينة الشــحات أولا. فوافــق الجميع. أدار مسجل السيارة بصوت فيروز فراح كل منهم يحدق إلى الطبيعة. التي أخذت تكشــف عن نفســها كلما توغلوا في اتجاه رأس هلال. والســيارة الســويدية القوية تلف الطريق الملتوية في قوة وقسوة. عبــر هضــاب واطئــة. لا تلبث أن يســقط بها الطريق ســريعا في انحناءات رأســية وأفقية حادة وشــديدة الانحدار غيــر آمنة. حتي تلامس مؤخــرة بطن الطريــق. وكلما لامس الطريــق البحر بزغت خلجــان صغيرة امتلأت بحصى أبيض ضخم. يبدو مثل بيض طيور خرافية قدمت من شــواطئ بعيــدة. ورحلت لتعــود على مواعيد. تعالت صيحات الإعجاب بالطبيعة, وتأوهات الخوف عند الانحناءات المفاجئة الضيقة الخطرة.

عبروا قرية صغيرة وما لبث أن انحرف الطريق ثانية جهة الجبل وأخذ بالصعود إليه عبر انحناءات حلزونية متوالية يرتفع الطريق عندها بشدة. وهو يستند علي كتف الجبل من جهة. وتحف به هاوية عميقة من جهة أخري ومن الخلف. حل بفاطمة وسالمين الرعب. وتصاعدت صيحات الفزع. كان الطريق في حاجة إلى معاودة تبديل سرعات السيارة باستمرار وفي إحدي الانحناءات الخطرة الصاعدة. لم يتمكن رفعت من ملاحقة تبديل السرعات في الوقت المناسب. فارتجت السيارة بشدة وانطفأ محركها. ووقفت عند بداية المنحني الصاعد. وبدا أنها سوف تعود إلى الخلف. نظرت الاثنتان خلفهما كانت الهاوية عميقة. حل بهما شعور بالكارثة. ضغط رفعت علي مكبح السيارة بشدة. وقد ارتج عليه الفعل كان غير قادر علي رفع قدمه من فوق المكبح كي ينقلها إلى دواسة البنزين خوفا من أن تنزلق السيارة إلى الخلف. نظر ونيس وضحك برعونة. يراه لا يدرى ماذا يفعل. مد يده وجذب فرامل اليد بشدة. فتوقفت السيارة ثابتة في مكانها.

- باهي أرفع قدمك عن (الفرينو)[9] . ففعل. علق السرعة الأول.. توا اضغط علي البنزين ببطء. نزل فرامل اليد في نفس الوقت.

فعل لكن داس بقوة علي دواسة البنزين. صرت العجلات بشدة. عندما أخذت السيارة تبدأ في الصعود مرة أخري . ولما خلفوا الهاوية عادوا إلى الهدوء والابتسامات القلقة. وسط شعور بالمغامرة يكسر الرتابة. سأل رفعت ونيس أن يقود السيارة بدلا منه. فرفض «هاذى سهلة يا راجل. توا أنت تكمل بينا وأنا نسوق لما نعود».

هبطوا إلى سفح الجبل ثانية. والبحر أمامهم ممتد رحيب. وعادت الخلجان للظهور. وبدت القيادة وهم يعبرون الانحناءات الشديدة للجبل والتي تكررت كلما التقت مصبات الوديان التي تصب بالبحر مع الخلجان متعة لا تقدر. وراح رفعت يمسك بقوة بمقود السيارة. وقدماه تمثلت حساسية الطريق.

عبروا رأس هلال إلى سوسة. وفي سوسة ضاع الطريق إلى شحات. وما لبثوا أن استدلوا عليه من سكان القرية. وعندما تركوا سوسة خلفهم انقشعت السماء عن شمس صافية. يدفئها السهل. وانتشر هواء منعش عليل. وسحابات صغيرة تتناثر كحبات عقد من اللؤلؤ علي وجه الشمس. وتحسن الطريق رغم خطورته. ومن بعيد شوهد المشهد الأسطورى للكهوف والمقابر الرومانية المنحوتة فى صفوف متراصة على متواليات من الأقواس الساكنة فى باطن الجبل وسفحه.

تقدم رفعت وزوجته وبينهما صغيرهما. خلفهم سارت سالمين بجواره. كتفها يلامس ذراعه. ثمة لهب ساخن على امتداد حدود التلامس.

وقفوا في صمت فى البهو الكبير للمعبد الروماني يتأملون تماثيل عارية لرجال ونساء. تعبر عن مقاييس الجمال الروماني. تحل الدهشة في الخفاء وإعجاب لا يعبر عن نفسه. ولوح رخامية لزمن قبل الميلاد. وأسماء رومانية وقطع لتماثيل مكسورة وضعت أجزاؤها في أماكن متناثرة من البهو. وعندما بلغوا نهايته. عبر سالمين وونيس خلف العائلة المصرية باباً صغيراً يفضى إلى مسبح حجرى يمتد خلفه الجبل منبسطا في نتوءات مزدانة بالتماثيل. وبقايا معبد مهدم. تنتشر فى أرجائه أشجار باسقة وبعض الشجيرات. وامتد الفراغ بالعشب الكثيف.

تابعوا مجارى المياه الجارية في القنوات الحجرية. قال رفعت إن أجمل نساء روما من المنفيات كن يستحممن هنا عرايا. يا الله.. أحب الإنسان جسده منذ قديم الزمان. ونحن نرزح تحت أطنان من الملابس.

في نهاية الساحة انتصب بناء ضخم لمسرح روماني كبير. وعلي الأرض كان هناك خط سكة حديدية ضيقة. راحوا يتناقشون إذا ما كانت تنتمى لعهد الرومان أم لعهد الطليان. قال ونيس الطليان هم الرومان والرومان هم الطليان فسيان. وإن كانت

تستخدم في نقل التماثيل وقطع الأحجار. كان المكان خالياً إلا من أفراد قلائل أغلبهم أوروبيون يعملون مع شركاتهم. التقوا بالعائلة التي عبرتهم بالسيارة المرسيدس البيضاء. فحيا كل منهم الآخر. رحلوا باتجاه المسرح الروماني كان مشيداً علي حافة الجبل. صاح طارق خلف أمه. مد ونيس يأخذ بيد سالمين. يعتلون درجات المسرح إلى أعلي في حين تخلف عنهم رفعت.

كانت مدرجات المسرح الحجرية علي شكل نصف دائرة تتسع بأعلى وتضيق تنتهي بمنصة المسرح الحجرية التي أحيطت من الخلف بمداخل وممرات عديدة. جعلت منها كواليس له.

فجأة خرج عليهم رفعت من وراء الكواليس الحجرية وقد خلع الجاكت. متلفحاً بملاءة كانوا قد جلبوها من أجل افتراش العشب. صفق بيده وهتف بشكل مسرحي:

.. أيها السادة من أشراف وأحرار روما. ها هو البطل الذى فتح العالم وتجلس الأرض تحت قدميه. تحية للقائد المظفر من شعب روما المعظم.. يوليوس قيصر في مشهد مصرعه.

عاد رفعت إلى الكواليس وقد ارتدي فوق فانلته الصوفية الجرد الذي جاءت فيه سالمين. وقد لف جسده. بدا مثل العباءات التي يرتديها شيوخ روما.. تقدم إلى المسرح يمثل شخوصها جميعا.

- قيصر .. قيصر... أعفُ عن أخي.

- إن أخاك قد أخطأ.

كاسيا : ولكنك العظيم الذي يجب أن يعفو.

قيصر: كاسيا .. العدالة عمياء. وكل من أخطأ يعاقب.

كاسيوس : قيصر اعف عن أخيه.

قيصر: كاسيوس..

كاسيوس: خذها متى طعنة نجلاء.

قيصر: أي. ينحني رفعت علي بطنه وأخذ يعدد أربعة عشرة طعنة. حتي الطعنة الأخيرة. التفت إلى الخلف وهتف: حتي أنت

يا بروتس .. ثم سـقـط عـلى الأرض. ضحكـوا ثم قـام قـائلا الآن أقدم لكم مشـهـد أنطونيو

فجاءته صيحة من فاطمة من أعلى المسرح وهـي تصيح:

- خطأ

- أي خطأ

- كل الذى تفعله خطأ

- حسنا أخبرنى أين هو الخطأ.

- حتي أنت يا بروتس إذن قيصر يجب أن يسقط..

- ولكن التعبير صار مجازا في كل العالم عن طعنه بروتس.

أجابت في حمية وهي تشـير بيدها: ولهـذا فهو خطأ أن تكون طعنة بروتس مجازا للديمقراطية. وليست المجاز المبتذل عن الصداقة. يصبـح المعنى مختلفاً ويصبح القول «حتي أنت أيتها الديمقراطية إذن يجب أن يسقط قيصر» هذا ما يعنيه شكسبير

فصاح بها رفعت أن لا تتعجل فالمشـهد القادم سوف يجيب عليهـا ويفحمها. فينبغى عليها أن تعلم أنـه لا يوجد ديمقراطية من أجل الديمقراطية. سـألته عن المشـهد القادم. كانا يتصايحان بصوت جهوري ويتعـاركان بجدية وكأنهما فى حلبة نقاش ثقافى أو سياسـي. هو يقف فى منتصف المسـرح وهـي تقف في نصفه الأخير تشيح له بيدها. ونيس وسلمى يتابعانهما ويضحكان.

قال رفعت المشـهد القادم لأنطونيو عن قيصر رب الفقراء. الذى سيسـتطيع به شـن حرب على مؤامرة الديمقراطية لبروتس. كى تطيح بها نهائيا معلنة صعود الإمبراطورية والديكتاتورية.

صاح به ونيس وهو يترك يد سالمين. عشان هكى صارت فاطمة علي حق وتفسـيرها صحيح. اسـتدار إليه سـاخطا في مشـهد تمثيلى يحدث ونيس ممسكا بقلبه: حتي أنت يا ونيس.

انفجـروا بالضحـك. لكـن ونيس وقـف وقال بجديـة بصوته الجهـورى ودون أن يلتفت إلى مداعبته. وسـالمين تنظر متطلعة لما ينوى قوله: «حب الفقراء دون ديمقراطية يولد الديكتاتورية»

فهتفت فاطمة موافقة وراحت تصفق، وهى تهبط إلى زوجها وصرخت سالمين «صح.. صح.. برافو ونيس». واستطرد ونيس» وكثيرا ما يكون الادعاء بحب الفقراء الغطاء الذهبى لصعود الطغاة» فالمشهد المغرم به حضرتك، لا يعبر لا عن حب قيصر إلى الفقراء، ولا عن حب أنطونيو لقيصر، قدر ما يعبر عن انتهازية أنطونيو وتلاعبه بمشاعر الفقراء، والذي برهن به شكسبير على قيام الديكتاتورية بعد عام من موت قيصر. صاح رفعت: صح .. صح .. موافق برافو فاطمة.

وصفق الجميع وصفقت سلمى خيى بإيماءة مساندتها لابنة جنسها، قاطعهم رفعت وقال «خلاص.. خلاص أنا غلطان، اسمعوا المشهد الانتهازي». وأمسك فاطمة بين ساعديه، ثم رفعها بين ذراعيه. قال وطارق يتبعها بصعوبة شديدة، ويهبط من أعلى المسرح بصعوبة.

« ويلاه قتلتك جوليت». وضعها على طاولة حجزية وهى مغمضة العينين، ومال يبكى فوقها ويسأل برودة الموت الشاهقة أن تتوقف قليلا قبل أن ترحل بحبيبته التى لم يروها بعد الشباب بدمائه الحارة... كان عدد من الأوروبيين يراقبون المشهد من أعلى، وقد انهمك رفعت بالمشهد حتى إنه مال يقبل عنقها ووجهها ويلثم الموت فى جبينها، ثم عاد إلى الوراء قليلا وحدق فى ثغرها، وهو يعلن أن السم الذى تجرعته سوف يتجرعه من فمها، كى يلحق بها إلى السماء.

كان الصمت يرم على المسرح وسلمى تحدق فى المشهد الماثل أمامها الذى بدا حقيقة، وبينما كان رفعت يتطلع نحو الجمهور، وهو يسأل القدر خيانته لهما، كانت فاطمة تفتح عينيها وتنظر إلى شفتيه قبل أن تجذبه نحوها وتلتهمهما، وطفلهما الصغير يعبث في ذيلهما.

تعالت الصيحات والصفير، وصفق الجمهور، فضمها في عناق طويل دون أن يأبه بأحد.

أثار المشهد عواطف العاشقين. التفت كل منهما للآخر. بينما فاطمة تأخذ ابنهما ويضم ثلاثتهم الآخر في صخب وهرج. هرب رفعت بطفله. وأمة تحاول خطفه من بين ذراعي أبيه. وهي تهددهما فأخذا بالجرى وراح العاشقان يتابعان فاطمة تجري خلفهما عندما انثني زوجها فاتحًا ذراعيه فجأة فسقطت في أحضانه لاهثة.

همست: مدهشين.

هز رأسه وضغط علي كفها وقال: هيا نرحل.

توغلا بين الأشجار القليلة بالحديقة إلى سور حجرى عتيق فوق تمثال لمصارع روماني فاستندت بظهرها إلى قاعدته. ووقف قبالها على بعد خطوتين واضعا كفيه في جيوب بنطاله. يحرك قدميه في قلق. لم يجدا ما يقولانه. فصمتا قبل أن يسألها كيف استطعت المجيء. أجابت في صوت رخيم وكأنها وجدت ما تتعلق به. الفضل فى ذلك يرجع إلى خالتها التى فعلت المستحيل. ولولاها ما استطاعت المجيء. كان يود لو يشكر خالتها. إلا أن هذا لم يكن مهما للتعبير عنه في هذه اللحظات. وارتفعت عواطفه وانفعالاته بكلمات مبتورة تسد حلقه: لو لم تجيئى .. لو لم تجيئى..

- شنو كنت تسوى؟

تباطأت حركة رأسه. وهمس بأنه لا يدري. همست تخفف اضطرابه بأنها قد أتت. كانا يندفعان دون إرادة نحو الشلالات. أمسك بتلابيبهما تيار قوى من المشاعر والانفعالات. لم يعودا بعد قادرين بالسيطرة عليها. همس «أنت أجمل من عرفت» واقترب منها بقامته المديدة. أحست برائحته تملأ خياشيمها فأخذت تلهث. وعاندها صوتها من الخروج من حلقها فخرج وبه رنة اضطراب وبه النشوة. «وأنت؟».

مد أصابعه يداعب خصلات شعرها المتهدلة على جبينها فقالت لاهثة وهو يقترب أكثر «لشنو أوقعك الله في طريقي ..

انا .. » وتوقفت عن الكلام. وأنامله علي وجنتها المشتعلة كالجمر. مسده بكفه العريض. نامت بوجهها عليه. وهي تحرك رأسها كقطة تداعب كف سيدها. ثم ما لبثت أن ضمت كفه بكفها إلى وجهها. وبغتة أخذت تلثم راحة يده.

نظر مصعوقا والدموع تترقرق في مقلتيها. راح يقبل جبينها ويهبط بثغره إلى عينيها مقبلا دموعها. أغمضتهما. ولحظة حط مبسمه علي فمها تهدل ذراعاها إلى جانبيها من فوره.

* * * *

صعد الحمامات وهى خلفه ومنها عبرا إلى الكهوف المحفورة فى باطن الجبل. كانت المياه ترشح فى جوانبها من مياه المطر. والبحر ممتدا يتجاوز الأفق تخلف ونيس متعمدا. وخرجت سالمين ثم ما لبثت أن اضطرت لانتظاره. كانا وحيدين. جذبها إلى صدره فاستسلمت. مد يده إلى ظهرها يملأه بكفه. استكانت بينما بقى ثغرها المزموم بشده عصياً على الانفراج. حتي قبض علي شفتها السفلى. ضغط برفق فتراخت للحظة. حتي تمكن منها. فأخذ يعصره. اختلط رضابهما فدارت بها الدنيا. وأحست بالأرض تميد من تحت قدميها. وصدرها ينسحق علي صدره. لقد داهمتها الذروة مبكرة طازجة منعشة.

تحاملت علي نفسها. جذبت جسدها بصعوبة إلى الخلف وفى عينها غشاوة. همست بعصبية: شنو تسوى؟ أجاب بالصمت. سارت خلفه تائهة.

* * * *

أثناء عودتهم باتجاه رأس هلال تبادلوا الأماكن. جلس رفعت وزوجته وطفلهما بالخلف. وبقيت سالمين إلى جواره بالمقعد الأمامي ومذاق قبلته يلسعها بمرارة العلقم. تاركة جسدها لخدره وأشيائه

الغامضة وروحها ترحل طليقة إلى البحر.

وضع حزام الأمان. وساعدها في وضعه. ثم اندفع بسرعة شديدة عبر الطريق المتعرجة الخطرة يقود السيارة في مهارة واقتدار. أخرجها من صمتها مشهد الأعشاب والأشجار الممتدة على جانب الطريق. وعلامات منحنياته تتابع في سرعة. والسيارة تميل وتئن من قوة الدوران عند المنحنيات. هتفت باسمه. وصرخت فاطمة وبقي رفعت صامتا. أجابها « ما تخافي من شي.. معاي ما تخافي من شي ». قالت فاطمة «أيوه معه ما تخافي من شي. ولما تحصل الكارثة مش ح تلاقيه».. قاطعها زوجها يسأله عن الحد الأقصى لعداد السرعة.

- مائتان.

- إذا كان دى سرعة السيارة فكل تقليل من سرعتها إهدار لها.

صرخت سالمين: هكى يا دكتور.

- هكى .. الحركة والفعل.

قالت فاطمة: بالله عليك يا ونيس ما تسمعلوش. ده دموى. ضحك.

قالت سالمين: وشنو ورانا بيش نجازف. أجابها رفعت إذا كان ونيس متمكناً من القيادة. والسيارة قوية زى الفولفو. والطريق خالية. يبقى للمجازفة معني.. المشكلة في حاجة واحدة بس.

قالت سالمين: شنو؟

- أن الدكتور بسلامته ينسى الطريق. وينتبه للقمر اللى ساكن جنبه.

- أنا.

- نعم أنت .. سمعت. بالله عليك تنبه لطريقك.

أجابه ونيس مازحا: ما أقدر. أساسا مش بايدى.

قال رفعت مؤيدا: طبعا ما تقدرش. هذه إهانة للقمر اللى قاعد جنبك.

ابتسمت سالمين بغضب. وانكمشت ممسكة بمسند الباب

تتشـبث به عند ميل السـيارة بالمنحنيات. ملصقة وجهها بزجاج النافـذة . تراقبه بمتعة من طرف خفي. كان وسـيما فارعا كفارس من الزمن القديم. وعندما اسـتوي الطريق بعد سوسة سألته متي ستعود. قال بعد شهر ونصف.

كتمت اختلاجة فـي صدرها فقال عندما يعود سـوف يتقدم لخطبتها.

هلل الجالسون بالخلف. وفتحت عينيها وانثنت برأسها للأمام. وقـد خفها الفرح والخجل معا. وهتفت شـنو. أجـاب بتأكيد أروح . أقابل باتك.

هزت كتفها في سرعة وسرور وسألته: لشنو ؟
كانت تسعي إلى أن تطيل استمتاعها بأحلى لحظات العمر.
- بيش أخطبك.
- أنا؟!
- لا .. نحب في بنت اسمها سلمي.
- ولشنو تخطب سلمي !
- بيش أتزوجها .
- ولشنو تتزوجها .

كبح السـيارة بعنف إلى جانـب الطريق فاهتزت واهتز الجميع لكنها انثنت إليه في ثقة وقالت: جاوب.

اسـتدار إلى الخلف وسأل صديقه: لشنو يتزوج الناس يا دكتور رفعت. أجابه أن هذا امتحان غير مسـموح فيه بالغش. انظر أمامك وأجب علي الأسـئلة التي توجه إليك ولا تهرب. اسـتدار إليها وفتح عينيه مبتسما وراح يسأل نفسه في صوت مسموع: لشنو أتزوجك .. لشنو أتزوجك .. لأني أحبك .. أو لأني في حاجة إليك. وراح يستطرد في تؤدة أو لأني لا أستطيع الاستغناء عنك .. ها .. لا أستطيع الحياة من دونك.. شنو رأيك دكتور رفعت؟

هز رفعت رأسـه وقال: معقول ولكن هذا شـيء اعتيادي. فكر ونيس وصاح وسـلمي تنظـره: وجدتها.. باهى لكل إنسـان إلهه. وأنت إلهتي.. معبودتي ..

صاحـت في غضـب طفولي وإن سـرها التعبيـر: كنك تجدف كيف صاحبك. ضج الثلاثة بالضحك حتي الصغير. قالت فاطمة: فتنتي المسكين .. معندكيش عذر. نظرت بطرف عينيها إلى ونيس وقالت: هذا مو مسكين.

وقالت فاطمة: ولكن إذا وافق والدها.. ممكن ترفض هي.

قـال: والله كيف أعرف؟ أجابتـه إذا ما كان يخطـئ هو الآخر. تسـاءل فى أى شـيء يمكن أن يفعل.. فكر ساهما.. يجب أن تتقدم لها أولا. ومن بعدها العالم. صرخ لها رفعت مصفقا برااااڤووووو... نظر للخلف مهددا: تخربون بيتي انت وزوجك .. باهى.. وعاد لسالمين يفرك يده يتمثل الاضطراب والرجاء:

- هل تقبلين بى زوجا؟ حدقت بعينيه وقالت: نعم .. عد سريعا.

* * * *

- 11 -

بعـد فـراق طويل التقى ونيـس بأخيه فى لندن لقـاء حميما. وكان ناصر يعيش مع سـيدة إنجليزية. متنقـلا بين القاهرة و لندن وأثينا يتابع أعمال عمر بالخارج. تحدثا فى شـؤون شـتى وعن أخباره الشـخصية وألـح عليه أن يعـود إلى الوطـن. أبلغـه أن أمه تلح بضـرورة عودته. وعندما طرقا موضـوع زواجه قال ونيس إنه تصرف كما الرجال.

أجـاب ناصر باعتـداد وهو يدخن في عصبية إنـه لا يدين لأحد بشـيء.. وإذا أرادت العجـوز أن ترانـى فلتحضر. ولكن لمـاذا أعود .. صدقنى أنا هنا طليق .. النسـاء لسـن مشـكلة. إذا أردت صداقة. بـارات البوب تزدحم بهن. وإذا أردت هكـى فهذا ملقى على الأرصفة. وإذا أردت علاقـات محترمة فكن محترماً. لا توجد مشـكلة. أتجرع الخمر كما أشـاء في برد لندن ينبعث الدفء بالجسد. وعلى العموم سأعود ولكن ليس الآن.

- ستحضر زواجي. ابتسـم ناصر في صدق وضرب بكفه وقال: وجدتها وتبى تتزوج؟. هز ونيس رأسه: نعم وستحضر؟ هذا وعد.

- وعد.

* * * *

وأثناء تسكعهما فى لندن ومراقصها الليلية، وجد ونيس إجابة للسؤال الغامض الذى ظل يراوده طويلا. كيف حل عمر مشكلته مع المخابرات؟ كيف أفلت من تهمة المشاركة فى الانقلاب؟ وعاد يدير أعماله مطمئن البال لا يساوره القلق. أخبره ناصر وهو فى حالة سكر بين، أن أخاه تصرف بوطنية خالصة جعلت الثورة تقدره حق قدره. وهو عندما عاد إلى البادية توجه من فوره لمقابلة أصدقائه، حيث أطلعهم على نوايا المصريين وخططهم الكاملة فى الاعتداء على الوطن. وتخريب الوضع الداخلى. بدا لونيس أن هذه واحدة من مفاجآت عمر الباردة: أن يكون وطنى!. وعندما تساءل عن الأسباب التى تدعو المصريين لهز الاستقرار الوطنى. قال ناصر ما هو جلى ومقنع: رغبة السادات فى تقديم خدماته الخاصة للولايات المتحدة.

خلال عشرين يوماً قام بدراسة وافية للعروض المقدمة. يستمع باهتمام لشروح الدكتور المصري، ولم يكتف بل قام على الاتصال بأساتذته الألمان الذين سهلوا مهمته. بعدها استقر على عرضين لألمانيا الغربية والثالث إنجليزي. وبقى مع أخيه المدة الباقية له من الإجازة. بعدها عاد للوطن.

* * * *

عاد ونيس وبه شوق لسالمين. وعند صديقه الدكتور رفعت علم بأن ابنئ عمومتها الاثنين تقدما لخطبتها. سارع إلى لقائها وكانت مضطربة. قالت إن ابن عمي الأكبر تقدم طالبا الزواج منها. وسألها والدها. فرفضت. فعاد عمي يطلبني لابنه الأصغر. وسألني أبي مرة ثانية فرفضت. سألها عما قالته لأبيها. قالت إنها ما تتحدث بكل . هو ما يواجهني مباشرة: أمي .. يحدثها وتجيء تسألني. قلت لها أنا ما نستطيع الزواج توا. بدى أكمل دراستي. أخبر أبي عمي بذلك.. ولا أدرى شنو يحصل بعد؟

قال إنه طالما فتح الباب فسينهال عليك العرسان. سيتقدم لطلب يدها. فقالت إن هذا هو الصحيح. وأنت وحظك.

- هكى!
- تشك بي.
- أرحل بنغازي وأعود بأمي تقابل والدتك.. شنو قولكِ.
- الله يعلم الغيب.

* * * *

اختار ونيس منزلاً من طابقين يطل على البحر في حي الساحل. وأرسل سالمين لرؤيته. لما أعجبها بدأ يفكر في تجهيزه. دفع ثمن غرفة نوم. تعاقد لشرائها من إيطاليا. وكانت سالمين تدور في الأسواق تنظر المعروضات. من الأدوات المنزلية والمفروشات والسجاد والأثاث سعيدة جذلة. وتدله على ما تشتهيه. فيذهب مع صديقه وزوجته ينظرونها. كانت ذات ذوق رفيع. بعد شهر رحل ونيس إلى بنغازي. وعندما أخبرهم بعزمه على الزواج من غريبة. ووجه برفض صارم من العائلة. أمه امتلأت بالفرح لعزمه على الزواج. إنه البكرى لها. لكنها تريده لابنة أختها. قالت: ونيس يا بني روح آخر العالم لكن مو بنات غرناطة. بناتها ماكرات وخبيثات يسرقن الشباب من أمهاتهن والرجال من زوجاتهن.

قاطعها ضاحكاً وهو يضمها قائلا أماى انتهى الأمر. أفضل ما تفعليه تجهزي نفسك بيش تسافري معي يوم السبت.. إذا تخافي أكون بعيد عنك. تعالى معي هذه بسيطة. أشاحت عنه بوجهها غاضبة.

أما أبوه وكان جالساً باسترخاء على أحد مقاعد الصالون فقد سأله على الفور عن عائلتها فقال عائلة الفيتوري.

- ابنة من؟
- سالم علي الفيتوري.

صمت مكشرا. وعقد ونيس حاجبيه في انتظار إجابة أبيه. الذي طرق باطن قدمه بكفه. وقال وهو يدير وجهه إلى الجهة الأخرى بعناد المسنين: باهي .. ما مكن أساعدك على الزواج توا.

سأل ونيس في عصبية: لشنو. فقرا إحنا؟ قال متصنعا الطيبة إن الأعمال مو باهية بتأجل سنة أو اتنين. أنت صغير بعد.

قال ونيس غاضبا كيف صغير؟ وسأل أباه أمتى تزوجت أنت؟. أجابه الشايب في برود إن باته زوجه وهو في السادسة عشرة كان هذا زمننا أما تو الدنيا تغيرت.

- في شنو؟

ربع قدميه على الكنبة وقال: صار يختلف.

- كيف؟

- لن تتزوج.

- ومنو يمنعني؟

عاد الأب يصفع باطن قدمه بيده مرات متعددة: لا أحد.

تمالك ونيس نفسه. الشايب يعلم أنه لا يستطيع الذهاب لأسرة سالمين وحيداً. قال وفي صوته سيماء التعقل والهدوء إنه لا يستطيع الزواج من غير موافقته. انبسطت أسارير الأب تعبر عن سذاجته وخبثه وانثنى إليه. وعلى ملامحه فرح ماكر بقوة سلطته وقال: تظن نفسك فقيه.. عالم في الدنيا والدين.. «أيوااااا».. سار على فمك شارب وأصبحت تقود «الكهرباء»[10]. زعمك ركبت فرس صرت خيال.. «أيوااا».. أما أنا فقد أكلت مقعد اللوطنطة»[11] من جلد مؤخرتي. ننام أمام الميناء بيش أكون أول من يدخل الميناء. ونرحل باكر للصحراء والعجاج بيش نقدر نحصل في مرة ثانية... تظن أنك عديت لأوروبا .. باهي .. باهي .. «أيوااا».. أنا طردتني امرأة أبي وعمري اتناشر عام. ورغم ذلك لما عقدت

---

(10) السيارة

(11) الشاحنة

أول صفقــة مع اليونانــي. رجعت لباتى أستشــيره. امرأته أبقتني بالطريــق حتى جاء بالمســاء. وأنا نقعد قدام عتبــة الحوش أنتظره.. وعندما جاء ما قال لي ادخل اتعشــى معنا.. اليوم عندنا عصيدة أو بازيم أو معكرونة. ادخل ما ريتك من خمس سنين. قولى يا ولدى عن همومك وأحوالك. بتخسر..بتكسب.. باتى ما فعل شى من هذا.. سد الباب بظهره وقال شنو تبى؟ عدى غادي وافعل ما تشاء. ما لى بك دخل.. هكى.. ما لى بيك دخل بُكّل ...»أيوااا».. تو تيجي وتقولى نبى نتزوج بنت ســالم على الفيتــوري .. من هو الفيتوري هذا حتى تتزوج ابنته.. «أيوااا».

قال ونيس في سخط: مو فاهم شى..

- أيــوااا.. مــا يطير الســمك فى الفضــاء. وما يحــط الصقر بأعشــاش البوم. وما يتزوج الذئب كلبة؟. استشاط ونيس وقال إنه سيتزوج أحسن بنات غرناطة مو كلبة.

- بتعرفها.

- نعم .

- «أيــوااا» تعرف باتها؟ نفى ونيــس. قال الأب إن ابنه غبي. يصر علــى أن أباها وكل أهلهــا لا يعرفون. وأنهم ينصبــون له مصيدة. ضحك ونيس بسخرية موضحا أن راتبه لا يستحق مصائد.

- لماذا وهل اسمك ونيس ابن مفتاح بوزوى. خلينى نشوف جواز سفرك. ترى تكون غيرت اسمك.

- اسمي هو ونيس ابن مفتاح بوزوي.

- باهى.. فهمتها لوحدك.

- تقصد أنت.

- أقصد نحن .. أنا وأخوك وعمك وعائلتك هذا ما أقصده.

- ولكن هذا ما يحل شى .. هل أذهب على أبيها وحدي.

- ما تخشى شى ح يقول لك على الرحب والسعة

- لن يقبلني دون أسرتي.

أجاب: ســاعتها يثبت أنه رجل يعلم الأصول. اهتاج رئيس وصاح:

شنو استفاد أنا.. أجاب: ساعتها أقوم أنا على زواجك. تبي الزواج «باهي» أثرياء بنغازي معدودين وأنت أيضاً كذلك. سنختار لك الفتاة المناسبة.

- هه زواج هو ولا شراء. ثق إنني لن أعتمد عليكم في شيء حتى الذهب سأدفعه أنا

أدار العجوز وجهه بنهي المسألة. وبقى ونيس صامتاً في غل مكتوم ونهض وكأنه كان يحاول اختراق حائطٍ مسدود. رد فعل حميدة هو حب الاستطلاع. تحول فيما بعد إلى تحمس شديد عندما عرف أن الزواج يخفي وراءه قصة حب. صديقة كانت ترى أن أخاها يجب أن يتزوج بفتاة على مستوى ثرائهم. وعندما بلغ الأمر أخاه الأكبر عمر قال: عظيم إذا كان يريد الزواج فلنزوجه .. ولما أخبروه أنه يريد التزوج من درناوية لم يهتم بالأمر وقال الزواج هو الزواج. ليست له فتاة بعينها. أما إذا كان يريد الحب. فليأت وأنا أدله على عشرين بنية إذا ما تكفيه واحدة. في مساء أخبره عمر من مكتبه بواسطة الهاتف أن ينتظره صباحا.

* * * *

في الصباح الباكر لليوم التالي قاد عمر بوزوي سيارته المرسيدس طراز 480S.L. وبجواره أخوه الأصغر ونيس وراح يجوب مواقع العمل. ورغم الفارق الضئيل كان كلاهما صنوا من ذات الشكيمة. القامة المديدة والأكتاف العريضة وخصلات الوجه المهرولة. والحركة المملوءة بالثقة. وجه ونيس كان أكثر استدارة وبشرته أكثر سمرة. حوى عينين تتألقان بالسعادة لإنسان منكتف. وابتسامة مشرقة لمن ليست لديه رغبة فى إحلال الأذى بالآخرين. أما أخوه الأكبر فقد كان وجهه مأخوذاً من سلالة الصقور. حاد التقاطيع ينم عن شكيمة صلبة المراس. وأنفاً قوياً صلداً. وعينين آمرتين تملكان نفوذا لم يعرف أحد نهاياته بعد.

في موقع معسكرات الذخيرة بالرجمة سار ونيس خلف أخيه وهو يحدث مقاولي الباطن والملاحظين بخشونة. ويداعب مهندسيه

والمقربين منه بلهجة من لا ينتظر ردا. يلاحظ ونيس الجبناء ويروع الأقوياء. يتابع الرجال وهم يهرولون جهة أخيه. أو يختفون من أمامه. وقد امتدت الأعمال التي تقارب نصف مليون من الدينارات. محتوية معدات وخلاطات متحركة وأوناش ومئات الأمتار المكعبة من مواد البناء والأسمنت وأطنان الحديد. كلها ملك يمين أخيه.

في معسكر المدفعية في الفتايح. انبهر أنيس وقد شيد المعسكر بما يقارب الخمسة عشر مليونا من الدينارات على مساحة تبلغ اثنين من الكيلومترات المربعة. ضم العشرات من المنشآت العسكرية. وخزانات وشبكات المياه والصرف والطرق. وتحلقت حوله الرافعات الضخمة العالية وعربات الخلط المرسيدس والأوناش المتحركة ومحطة الخلط المركزية والعديد من البلدوزرات المجنزرة والحفارات الميكانيكية المجنزرة الحديثة والمحملة على عجلات والرافعات المتوسطة والخفيفة وعشرات المعدات الثقيلة التي تتجاوز مئات الألوف من الدينارات. تديرهم ماكينة بشرية ضخمة ترتكز على المئات من العمالة المصرية المسكينة وعشرات من مقاولي الباطن السوريين والفلسطينيين.

توقفت تعابير وجهه. وعقله ينفتح من الهزة. وفي الثانية عشرة انطلق إلى الغنايم بدونه وبقي نصف ساعة. وتحرك بعدها إلى الصحراء. فبلغاها سويا في الخامسة مساء.

* * * *

نزلوا بفندق صقر قريش. على جمعة وزوج أختهما عائشة النقيب مفتاح الشهيبي آمر حامية الشرق. الذي دهش لوجود ونيس. في تلك الليلة أمضوا سهرة عامرة أعدها على جمعة. حضرها عدد من كبار المقاولين والشخصيات الهامة. تناولوا فيها الشراب والحشيش. ودارت الأحاديث في موضوعات شتى.

في الصباح الباكر رحلت قافلة تتألف من سبع سيارات رانج روفر

تضــم عـدداً من كبـــار رجال الجيش والمخابرات وأصدقاء عمر. وســيارتين شــيفروليه نصف نقل لحمل الأمتعة وأدوات الطعام في رحله لصيد الغزلان بالوديان الجنوبية للصحراء.

ما واجه ونيس لم يكن يخطر على باله. وبدا أنها بدأت من شعور ضئيل مــن الضيق يتخلل مســامه. تحول إلى حائــط صلد. يصعب اختراقه. لن يســتطيع الزواج دون موافقة أسرته. لن يستطيع الزواج بســالمين. براكين من الســخرية والســخط يتعذر معها الاختيار بين البــكاء والضحك. فدون أي مشــكلة مادية وبعيــدا عن نظرة خاصة يحملها كل من يمت إلى برلمان العائلة بصلة. تبقى مشكلة بسيطة. وهي اعتبار كل منهم لنفســه محور العالم. تتبلد العقول. يتحول كل ما هو تافه إلى جوهرى وحيوى إلى ما لا يجب التفريط فيه. ودونه الموت.. الآن أنا فى مشكلة.. بأي نوع من الأقمشة تكفن الخمسة عشر مليونا من الدينارات. قضيتك في يد عمر. وعمر دفع زوجة أخيه ناصر إلى الانتحار ليلة عرسها. تمنى أن يجد نفســه وحيداً. عله يكفى رغبته من الضحك ثلاثة أيام متواصلة..

عبــرت الســيارات حقول الألغــام التي خلفتها معــارك الحرب العالميــة الثانية. تفرقوا شــرقا عبــر الأراضي الوعــرة. في صحراء مترامية الأطراف. تبرز من بعيد الغبار الذي تثيره إحدى الشــاحنات المتجهــة إلى مناطق خزانات المياه بموقع الشــعبة. ولــم يلبثوا أن عادوا ميممين جهة الجنوب حيث بلغوا خزانـات المياه التي أصبح العمل يتم فيها باســم علي جمعة مباشــرة. وهناك تحلق الجميع حول النار يشــوون شـاة.

أشــار علي جمعة إلى نقيب بدا مهيباً من الجميع. حتى أولئك الذين يعلونه في الرتبة. وهمس إلى ونيس قائلا - هذا هو المســؤول عن تدريب ال (ص.ش.) من العوايلة اللى بعيشــون فى مصر. أخذنا عقود الخزانات بواســطته. أهداه عمر سيارة بيان فيو 700 ســبور ثمنهــا فقــط احد عشــر ألف دينــار. وتوا نبنــى فيلا. قــال ونيس

بدهشـــة: فيلا وسيارة بيان فيو 700 سبور. أجاب علي جمعة: نعم وإذا أراد أكتر بنعطيه.

وعندما انتهوا من تناول الشـــاي رحلوا في اتجاه الوديان الجنوبية. هناك امتدت الصحراء أمام السـيارات التي أخذت تسـير على أرض مســتوية من الصخور تتخللها أعشــاب شــوكية خضراء. تقترب مــن الجفاف. تعالت الصيحات من الســيارات. وبين حين وآخر كانت إحدى السيارات تقف وينزل منها مقاول أو ضابط ليصوب على طير بالسماء فيخطئه أو يصيبه.

وكلما توغل الزمن أحس ونيس بينهم بالغربة. وما لبث أن داهمه شـــعور بالضياع. ذهب بخياله إلى سالمين. يقيم جنة منفردة. لكنه يعود فيقبض عليه إحساس شديد بالعجز والضآلة.. كان يكتشف أن العالم يمكن أن يدور بدونه. وأن الرجال الذين يحيطون به يقبضون على مركز الحركة بالحياة. وقد صمموا على أن تكون داخل دائرة الحدود التى تقف عند سقف تفكيرهم. بغض النظر عما تزينه لهم رغبات قاصرة عن أن تتسع لجميع الناس. لحرياتهم العامة والشخصية.

كلما اقترب منهم واســتمع إلى أحاديثهم. يشـــعر بأن المجتمع ينكمش فجــاءة لدائرة تقف عندهم. ويصبح هــو خارجها حتى لو أراد أن يصير حرا. صفقات مالية هائلة تمر في سهولة ويسر. ومبالغ هائلة تنفق بالقاهرة على الخمر. وأســماء لفنانات مصريات شبكة هلامية من العلاقات الوطيدة الراســخة القوة.. من الســلطة.. من المال.. علاقات مشبوهة وأحاديث خطيرة. ونكات وأحاديث جنسية عن نســاء وفتيات يظنهن محصنات. لا يوجد أحد بعيدا عن سلطتهم النافذة. والناس حولهم مثل قطع الشطرنج.

للمــرة الأولى يلمس عمر عن قرب. المقاولون يحترمونه بشــدة. ويقدمونه عليهم ويعتبرونه الأكبــر قدرا. وكبار الضباط وصغارهم يلعنــه فـي ظهره. ويعرضــون عليه صداقاتهم وودهــم. حتى أولئك

القلائل الذين كان عمر يقدم لهم احتراماً خاصاً. بدا له بعد فترة من الوقت أنه ليس أقل منهم قط.

احتدم بالغضب وألم به ألم شديد. عندما سمع عمر يتعرض له بالحديث عندما جاء ذكره. وقال « تعلمون أن الدكتور ونيس يعشق الحب الأفلاطوني وترى وين بمدينة النساء». هكذا عمر منذ الطفولة كان يعرض به دون اعتبار لأى شيء ولو كان كرامته.

انطوي علي نفسه كأسد جريح. رغم أن الرجال والشباب الذين يحيطون به كانوا ودودين صريحين. يمتلكون تحت جلودهم قلوباً واسعة وأيادي ممدودة بالصداقة. والكرم البدوى لأهل الصحراء. رغم ذلك شعر أن الصفات الأخلاقية التي يتمتعون بها تنتمى لمجتمع قبلي. لم تحطمه بعد علاقات برجوازية ناضجة. وكل منهم لا يعوزه الشرف في اللحظة التي يتعامل بسهولة داخل قوانين رأس المال التي راحت تشب عن الطوق. وتلقي بظلالها علي الجميع.

انفرجت الصحراء عن أحد الأودية الخضراء. وأبطأت السيارات من سيرها. حتى وقفت علي فم الوادى. حيث أقاموا معسكرا صغيرا للنوم. ورحلوا جميعا إلى الداخل. وقد حمل كل منهم بيده بندقية صيد. أو بندقية عسكرية. ومن بعيد لمح ونيس قطعان الغزلان تفر هاربة. ليتبقى الضحايا: غزالة صغيرة وقفت تنظر بدهشة إلى الغرباء الجدد الذين اقتحموا عالمها.

اختلي ونيس بنفسه وحيدا وعاد القهقرى إلى فتاته ينشد لديها الصحبة. وأخذ يستعيد رائحتها وعبق التصاق جسديهما وارتشاف ثغرها. بحثا عن دفء يقيه شر البرد. في حين رحل الآخرون تجاه القطعان. في المرة الأخيرة تعثرت سالمين من اضطرابها. وقعت إلى الأرض. ولما انحني كانت دموع الخوف. همس وعيناها لا تبرحا فمه. تستمع إليه يسألها سبب بكائها. وإذا ما كانت تخشي شيئاً.

سألته وهي منزعجة مترددة وأمامها المصير المجهول إذا ما

كان مصيرهما الفشل، فهل سيقترن بغيرها؟. ضحك وقال: لماذا تسبقين الأحداث؟. لماذا نفشل؟.

- أجبني.. شنو تفعل؟

أجاب بحكمة المنطق. يبتسم في ثقة إنه سوف يسعى بكل جهده كي يتزوجا. أما إذا فشلنا فقد ألتقي بأخرى. وأضاف بقسوة لم يدركها حينها أن العالم لن يتوقف عند افتراقهما.

بكت وهي تدفعه عنها برقة. دهش ساعتها. لم يكن يتبين سببا لبكائها. كان يجلس على جبل من الثقة.. أما الآن فقد وجد أن العالم يستطيع أن يدمر مدناً كاملة دون أن يشعر بضحاياه.

أمسك بذقنها ورفع وجهها المليء بالدموع وهمس: هل تعتقد أنه قادر على العيش مع فتاة غيرها. فأجابته: «لم يلمسني أحد قبلك ولن يلمسني سواك».

اقترب بشفتيه من ثغرها يلثمها. وقد صارت تستطيب التهامه لذقنها والجانب الأيمن لعنقها. وهناك عندما يرفع خصلات شعرها الأسود الكثيف ويحط بثغره. كانت تترك شفتها السفلى بين شفتيه. لحظات طوال وقد اكتنفها خدر عام لذيذ. يستعيد رأسها لتنام فوق كتفه. وذراعاها تلفان عنقه. ونهدها الممتلئ الصغير ينام على صدره..

اندفع الرصاص يملأ الجو فسقطت سالمين من مخيلته. وسقطت الغزلان. استعادها فأسقطها الرصاص مرة أخرى. وأسقط المزيد من الغزلان. فاستعادها هذه المرة بصعوبة. لكن الرصاص راح بها بعيداً وراء الغزلان التي هربت إلى جوف الوادي أفاق على أصوات القادمين الجهورية. وخطى أقدامهم ووطء الأحذية العسكرية على الصخور. واندفعت إليه عبر القادمين رياح ثقيلة. هبطت على صدره فكادت تخمده. واقترب الرجال المنتشون بالسطوة. وعلى وجوههم الثقة.. ثقة السلطة وثقة رأس المال فدهمه مرة ثانية إحساس بالعجز وشعور بالضآلة.

* * * *

تخلف ونيس بعمله غير قادر على مواجهة سالمين. وأخذ يعد العدة لمواجهة جديدة في سبيل الحصول على موافقة أسرته. وبعد لقاء عاصف مع أخته عائشة استطاع الحصول على قبولها بالذهاب لأسرة سالمين على مضض. وفي إحدى المرات وكان يقود السيارة بأخته في شوارع المدينة عندما صاح بها مشيراً إلى فتاة تعبر الطريق: هاهي.

- منو؟

- سالمين.

لحظتها مال قلبها إلى الفتاة التي تسير باستقامة خجولة على الطريق. فقال لأخته الكبرى: عليك بأمي..

أجابته: والله هذه مشكلة.. تورطني معهم في مشاكل.

وبعد أيام جاءته رسالة من أخيه عمر يطلب فيها منه الاستعداد للسفر إلى القاهرة فرفض أن يذهب إلى أي مكان دون الحصول على الموافقة بزواجه. فطلب يستدعيه على وجه السرعة.

حل بينه وبين أسرته ستار كثيف من الريبة والتوجس ولوهلة انعكست بظلال باهتة حول صحة اختياره. وانتابته الهواجس السوداء حول ارتباطه بفتاة توصف بكونها أقل شأناً. فكان يعيد ترتيب أفكاره ويعيد تقدير الأسباب والدوافع التي تؤكد اختياره فيجدها جميعاً تقف بجانبها. فرحل عائداً إلى الحضر كي يبدأ معركة جديدة وهناك وجد في استقباله ثريا وحيدة. كانت الأسرة تقضي يوم عطلتهم بغابة القوارشة.

المشاعر التي أحاطت بالمرأة الصغيرة إزاء الأحاديث المتناثرة والمتكررة التي تميزت بالانفعال والتوتر عن زواج ونيس بدأت لديها باللامبالاة. وشعور مبهم بالضيق لاحتمال انفصاله عنهم.

واســتقلاله بأسرة جديدة. على أن تعابير السخرية من جانب الكبار والحماســة التي يبديها حميــدة. والتي نمت عن قصة حب بين ونيس والفتاة التي يريد الزواج بها ملأتها بالحقد والغيرة تجاه الاثنين معاً.

وللمرة الأولى أخذت تتوق للشــاب تستدرجه بين خيالات الليل المحرمــة. وصباحها المشــئوم وكما تحمــل الريح البــذار إلى كؤوس الزهور حســب قانون العشــوائية. بدأت تهزها لســعة الانتشــاء عندما اســتند كتفها بكتفه للحظات وهي تستعيد ابنتها التي ترفض أن تترك عمها.

اشتاقت إليه حتى العصاب. وفي طريق عودتهم تحققت رغبتها فقد جلســت زوجة أبيه في المقعد الأمامي بجوار حميدة. وجلست أمــه وأخته وثريــا بالخلف. وجاء متأخراً وهن علــى عجلة من أمرهن. جلس بالجانب الأيســر بجوار أمه. ولعنته ثريا لو فعل. مقبض الباب الــذي امتنع عــن الحركة جعلهم يطالبونه ســاخطين أن يركب من الجانــب الآخر. بجانبها تماماً. تحركت صديقة للأمام وانزاح الاثنان إلى الخلف. تاركة نهدها ينام على كتفه وبقية جسدها يلتصق به. حلت على عينيها غشــاوة ونعاس. فلما أفاقــت لابنتها تداعبها أزاحتها برفق فراحت إلى عمها تقبله. اســتثيرت ثريا ودفعتها بخشونة إلى جدتها وهي تدمدم.. الفاجرة الصغيرة.

في المساء تحلقوا حوله عدا عمر وأباه. وافترشت المرأتان الأرض. وجلــس حميدة قبالته وبجــواره أخته. أما ثريا فقد جلســت جوار العجوز صامتة عدا أوامرها لابنتها بالهدوء. وكلمات عابرة تتبادلها مع كنتها.

ســألته امرأة أبيه هل يحبهــا؟ فأجاب كمتهم لا ينفي تهمة. قالــت أمــه إن هذا ربيع خادع. وســألته صديقة مســتفزة ما الذي يجعلــه واثقاً لهذا الحــد؟ فأجاب لأنه أنا وليس أحد آخر. اســتطرد حميــدة مؤيداً أخــاه أن ونيس مو عبيط بريالة حتى يســيء اختيار

شريكة سيرتبط بها طيلة حياته.

قال «لا أريد أطفالا مشوهين. أريدهم يعرفون طعم السعادة. وهذا يعتمد علي أمهم لا أريد أن أعود المساء لأجد حشية في انتظاري أو صخباً من التأوهات المفتعلة. انزعجت أمه لكلمات لم تسمع عنها من قبل. ماذا يعني إنه يبحث عن مشاركة حسية. أو جمال الحياة. أو حديثه عن نساء عندما ينتهون من أكل أنفسهن. يأكلون أطفالهن. ربما فهمت ما يقصده بالزوجة التي تحيا جارية لا تشغلها سوى الثرثرة مع النساء وصنع أرتال المكرونة والبازم»..

سمعته وهو يقول «هكى يكون الجحيم» فقالت باستياء إنها ما عرفت فتاة تقابل شباباً خارج حوش باتها وتكون باهية الأخلاق. احتد عليها متسائلا « وكيف تقدر الأخلاق. بالتلصص خلف النوافذ وأعتاب الأبواب المسكرة؟ بأقفال يضع الرجل مفتاح حوشه في قاع جيبه. فيكون مطمئناً مرتاح البال. وقال لها «يا أمي كل واحد فينا يشك في الآخر».

قالت بغضب إن البنت اللي تخرج مع شاب. تخرج مع عشرة. فوجئت به يعترف بإنها قابلته بالفعل. وأنه كان أول شاب قابلته في حياتها. وأنها لو قابلت العشرات ما يغير الأمر. وكيف لفتاة في بلادنا تختار شريك حياتها؟. صاحت به زوجة أبيه: هكي تزوجنا. وهكي ربنا باتي وأمي وأجدادنا يتزوجون.

- لكل حصاده. قالت أمه برجاء لشنو العند يا ولدي؟ لم لا يترك باته أو أخوه عمر يحصلوا له على أحسن بنات الحضر. أجابها بنفس الحدة: علي شنو تبي تختاري؟ أنا ونيس نختار بنفسي الزوجة التي تعيش معاي أنا مو باتي ولا عمر. وقال مندفعا خلي عمر يهتم بزوجته الأول وبعدين يهتم بزوجاتنا؟ أجابت أمه: البنية ما يعيبها إلا أخلاقها.

قال بحنق: شنو أخلاق؟ تبوا تكون طيبة ولا تبوا تكون ساذجة. منافقة ولا تحب النميمة. يا عالم أنا اخترت إنسانة صادقة. شنو تبوا أنتم؟.

تدخلت صديقة في عصبية: شـــنو أخلاق.. أخلاق.. ما فى شـي علي لســانك غير الأخلاق. حدق فيها بغضب. وقال فـي اسـتهزاء: وكيـف تظني الدنيـا؟ وراح يجمع بيــده مال. وآخذ يهــز يده كمن يجمع شــيئاً واستطرد ثروة.. جاه.. سلطة.. قولى لى يا من تركعي الليل سجدا.

تدخل أبوه وهو يشـيح بيده: ما تظن أنك تخوفنا بتهويشاتك كنك تعيـط بأوهامك المثالية. وهز رأســه برفض مســتطرد «كل اللــى تعيط عليه ما لــه علاقة بالواقع. كنا نظن إن تعلمت شــي فى أوروبا؟

- ليست له علاقة بالواقع.. باهى.. باهى. قول لى يا باتى شنو هو الواقــع؟ قال وعلي وجهه غضب شــديد « تبي تعرف الواقع - ضرب المنضدة بيده - الواقع اهنا .. فى هذه الأسرة.. فى الشايب والعجوز- وكشر وجهه كذئب عجوز» إذا تبى تدخل الأسرة هاذى إنسان جديد لازم يكون بموافقة الجميع. حتى صديقة هاذى بدا توافق.

تدخــل حميدة بصوت خافت للمرة الأولــى وقال هاذا مو صح. هذا خطأ.. هذا اللى تقوله مو صحيح. نظر الأب لأبنه شزرا وطلب منه الصمت. ســاد السكون قليلا. أصبحت أثناءه ثريا اذانا صاغية لمــا يدور حولهــا. وخاصة بعد تعريضــه بعلاقتها مــع زوجها. وقد تنازعتهــا عواطف متضاربة بين ميل لنجاح ونيس. ورغبة في رؤية الفتــاة التي يقاتل من أجلها كل هذا الحشــد. وبين أمنيتها في أن تعود هى مجرد فتاة مراهقة يرغب فيها آخرون.

توجه ونيس لأبيه قائلا إنه يبحث عن السعادة ورضا النفس. المال ما يطفئ رغباتنا. شــنو يعني الشرف والصدق والوفاء تحت سلطان المال. كل ما هو قيمة إنســانية يصير بدعه حقيرة.. بلاهة وسذاجة. وكيف ما قالــت صديقة المثالية الحمقاء. لكــن بدى أفهم كيف لما يسيطر الزروق علي ثلاثة ملايين دينار في ثلاث سنوات ونصف وهو لا

يستطيع القراءة والكتابة. شنو معناه؟ إن الشباب علي درجة عالية من الكفاءة بالثقافة والعلوم. لا هذا معناه الانهيار.. الفقر الداخلي.. الجرب.. أنا عارف الواقع اللى نعيشه تماما.

* * * *

كانت ثريا عكس الجميع. أبدت به اهتماما كبيرا طوال اليوم. أعدت له القهوة والشاي. ودعته إلى غرفتها تريه ملابس ابنتها الجديدة. مطلقة شعرها ينسدل طويلا خلفها. وكلما انشغل عنها مع إخوته أو العجائز. جلست قبالته تعبث بجدائلها.

وعندما عاد متأخرا قامت علي تحضير طعام غدائه. ولم تكن قد تناولته. دعاها ألا تتركه يأكل وحيدا. داهمتها دموع الوحدة. هى التى تعيش وحيدة. شاركته الطعام بعد أن أخفت ما ظل جاثما على صدرها طويلا. هى الآن تدرك ما كانت لا تدركه.

كان عمر قد طلب منها أن تجعل ونيس ينتظره بالثامنة مساء. فلما جاء العصر نادت صباح. ألبستها ملابس الخروج وارتدت هي الأخرى بنطالاً جينز وفانلة قطيفة. وجلست تنتظر أن يدعوها للخروج كما كان يفعل سابقا. كان تائها فى مشاكله. أرسلت الصغيرة التي راحت تتمسح به مثل قطه أليفة. فلما لم ينتبه راحت تجذبه برفق. أفاق علي أناملها الدقيقة تقبض علي ساعده تدعوه للخروج: هيا.. يا ونيس.. هيا نخرج إلى السمك. سألها مندهشا: شنو سمك ؟

- السمك .. الصيادين.

- شنو تبى يا صباح ؟

أجابت ثريا: تسألك أن تذهب بها للبحر منذ ساعة وأنت منشغل يا مسكين فى همومك. ابتسم وقال: باهى هيا بنا.

جذب الطفلة خارجا. وقفت حائرة بينه وبين أمها. سألته

أن تأتـي أمها معهما. وافق بلا اهتمـام. فقالت وهي تتمني أن يلح عليهـا أن يكتفي بصباح. لكنه قال باهى كيف ما تبى. واسـتدار خارجا. وللمرة الأولى استجمعت كل شجاعتها لتعلن عن رغبتها في المجيء معهم.

مرت فترة طويلة قبل أن يلاحظ أن هناك شـيئاً غريباً لا يعرفه حتـي فطن فجـأة إليه. كانت ثريـا تلاعب طفلتها. تمس شـعرها وتأخذهـا إلى نافذة السـيارة وقـد التصقت وجنتـا الأم والطفلة بالزجـاج. تحدثها في صبر وأناة عما يشـاهدونه بالطريق. وتضمها بحنان. تلعقها مثل قطة تلعق وليدها.. هذه سيارة بيجو.. فتصيح صباح وهذه فيات.. وهذا شرطي المرور الذي يخاف منه عمك ونيس. تصيـح صباح. قطة. هذه قطـة.. وتتابع النظر في واجهات المحلات سـعيدة فلما التفتت إلى عمها تداعبه قالت ثريا: عمك مشغول عنك بفتاة أخرى يا خايبة..

قالـت لها ثريا اسـأليه. جذبت بكفها الرقيـق وجهه نحوها. وهو يقود وسألته عنها. قالت ثريا : اسأليه شنو اسمها. ففعلت. أجاب: سالمين.

عادت إلى أمها مسرعة وهي تصيح: سالمين .. اسمها سالمين.

قالـت ثريا: مـو قلت لك. يحبهـا أكثر منك. نظـر إليها ونيس مغتاظا. وقالت ثريا لصباح أن تسأله عمن يحب أكثر أنت ولا سالمين ففعلـت الطفلـة. أجابها إنها هـى التى يحبها أكثـر. فضحكت سعيدة. وعادت تلقي بنفسها إلى أحضان أمها مزهوة. وتلقتها ثريا بسـعادة وبصدق شديد ضمت ابنتها المشـتاقة إلى كل هذا الحب. ولكن ثريا اسـتمرت بالعبث وقد أعجبتهـا اللعبة وطلبت منها أن تسـأله عن من هـي الأجمل أنت أم سـالمين. فلما سـألته الطفلة أجابها بأنها جميلة وسـالمين جميلة. قالـت ثريا لابنتها ألا تصدقه فهو يتهرب منها وطلبت منها أن تسـأله شـعر من الأطول أنت أم سالمين. كاد أن يقول سالمين لكن الطفلة قالت في فرح وقد بدا أنها

بدأت تفهـم اللعبة الخفية التى تدور حولها «شـعر ماما الأطول». احمـر وجه ثريا خجلا. والطفلة تعبر عن ما تود الإعلان عنه حقيقة فلما ضمت ابنتها أرادت التحقيق فقالت: لا شـعري ليس الأطول .. باهى اسأليه إذن. فلما سألته كان مندهشا وقال شنو؟ .

أعادت الطفلة السـؤال نظر إلى جدائـل ثريا الكثيفة محدقا في تفكير عميق ثم ما لبث أن قال: شعرك جميل.

فقالـت وكأنها مجروحة فعـلا وبسـخرية: لا .. أنت في حل من المجاملة. فقال لها بدهشة: ما في مجاملة. أنت جميلة وعاد ينتبه إلى الطريق وهو يردد بطريقة جوفاء.. هذا واضح ما يحتاج نقاش بُكّل .

تصلبت نظرتها ومرت علي عينيها سحابتان من القسوة وحل الصمت ثانية فعادت لابنتها تلاطفها.

هبط رذاذ من المطر علي شـاطئ الخليج الصغير بجوار الميناء. وقـد تناثـر عـدد قليل من النـاس. وصيـادان يقومان علـي الصيد بالصنارة داخل البحر لثلاثين مترا فأسرعت الطفلة لتشاهدهم.

ومـا لبثت أن عادت مسـرعة إلـى أمها التي كانـت تتحرك في حيويـة جديدة. تجري خلف ابنتها وتنادي عليهـا لتعود ثم لا تلبث أن تجري عنها بعيدا. وونيس يتابعهما في دهشـة حتى أحس في لحظة أن تصرفاتها بها رعونة واستخفاف. شعر باستياء. كانت جذلة لا تني تحاول أن تشـركه في عبثها مع طفلتها. جذبت يده مرات تدعوه إلى ترك السيارة. فلما لم تستطع أن تخرجه من دائرة تفكيره كانت تدفع إليه ابنتها قائلة: «عمك عقله مشـغول عنك». تذهب الطفلة إلى أحضانه تقبله وتحدثه تطلب منه أن يحضر لها الحلوى من الكشـك المجاور. والمطر ينقطع ليعود فيتساقط خفيفا فوق شمس ساطعة.

وعندما عاد وجدها تجلس علي مقعد القيادة فأنثنى إلى الباب الأيمـن وجلس بجوارها وصباح بين يديـه وذهب إلى الجانب الآخر من البحيـرة الخالية من المارة وهناك كانت ثريا أكثر حركة. أثار انتباهه

كونهـا جد مختلفة عمـا هي عليه بالفيلا أو مـع الآخرين. كانت لدهشــته أكثر رقة.. أكثر بساطة.. أكثر قدرة علي الفضفضة فى الحديـث معه. نامت الطفلة بين ذراعيهـا فجاءته بعبارة أحس به غريبا: إذن ستتزوج.

همس لنفسه قائلا أي غبار هذا وأجابها: نعم .. سأفعل.

قالـت وهي تحـاول التعبيـر عن أشـياء بنفسـها دون جدوى: لشنو؟

- كيف يفعل الناس؟

- باهية

أجابها وقد شـعر بأنها سـألته هذا السـؤال عشـرات المرات: نعم

استطردت قائلة: أنا مو هكى؟

قال متعجبا وقد تخلى عن أسـلوبه الناعم الذي كان يحادثها به من قبل: لشنو تقولي هكى. كنك مو مشوهة ولا ناقصك كراع. عندك قوام متناسق وبشرة ناصعة ووجه بدرى.

قاطعته: وشعري؟

أجـاب دون حماس»وشـعرك«. صمتـت وحل بها توتـر داخلي. نطقت غير قادرة علي التعبير: ولكن الرجال ما يهتمون.

تقلص وجهه واتسعت حدقتاه ونظر إليها مستطلعا. محاولا تركيز تفكيره. لمح علي وجهها تسـاؤلاً لدهشته. قال: ولشنو تبى إعجاب الرجال؟ لكنه تيقن لحظتها من سـذاجة سؤالها وعجزها عن التعبير فاسـتطرد موضحا بدقـة: صدقيني أنت جميلة. يمكن أن تكوني أجمل نسـاء الحضر. وكل الحضر تعلم أن لعمر زوجة من أجمل نسـائها. نظرت بعدم تصديق فاسـتطرد قائلا : لسـت في حاجـة إلى الإطـراء. فلم تفهم مقصده وقالت فـي إصرار:.. أنا مو جميلة. سألها مسـتطلعا عن السـبب. فنظرت نظرات مفعمة بالقلق والمعاني والمشـاعر تعصف بها، فجـأة هبط عليها ما تريد

قوله بالضبط فسألت في سرعة وعصبية لمن جمالها إذن؟ أجابها بنفس السرعة لعمر.

التعبير الذي حل علي وجهها كان أعنف من القسوة والبغض. جعله يكتشف أكذوبته بسرعة. وعندما كادت أن تبكي ضحكت في هيستريا شديدة حتى استيقظت الطفلة. سحقتها بيدها وهي تقبض علي ساعدها الصغير بعصبية. حاولت أن تجذبها منه لكنه أمسك بها بقوة. حتى شعرت بالألم استكانت وعادت إلى هدوئها. وبها ألم عميق. كان بجوارها إنسان يتعذب. بينما هي كتلة من الشقاء.

أرخي يده مبتسما. وحدثها برجاء أن لها أن تفعل ما تشاء. أن تنتقم ممن تريد. تحرق العالم لو أرادت.. ولكن الطفلة هذه ليس لها ذنب. سألته: ذنب من هو؟

صمت لحظات طويلة.. كيف يمكن أن يجيب سؤالاً كهذا؟.. قال إن عليها ألا تظن أنها الوحيدة التي تتعذب.. هو الآخر يعاني من غباء الآخرين. قالت وهي تشيح بوجهها منه «لكنك رجل».

قال مؤيدا وهو على وشك أن يفقد صفاءه إلى الأبد:

«معك حق.. لكنني رجل».

* * * *



الجزء الثالث



هذا مساء البهّيات
فلتركضى يا جياد الدماءْ
فما كل من يقتلوته سيغدو ترابا
وما كل من تاكل النار سيغدو زمادا
فإن شئت أن تعرفى سرًّ هذا التفجر
قومى إلى البحر كى نستحم
ونساله السرَّ
فذاكرة البحر صافية لا تخون

-12-

فى طقس ملبدة سماؤه بالغيوم ذهب إلى مكتب أخيه عمر . وفى نيته أن يصل هذا اليوم إلى حل قاطع ونهائي. وقد بات مقتنعا أن كل ما يدور بينه وبين الأسرة لا طائل منه. وأن أغلب الخيوط تتجمع عند أخيه الذى يكبره بثلاثة أعوام. لا يعتقد أنها كافية كى تمكنه من التحكم فى حياته.

غادرا سويا مبنى المؤسسة واتجها إلى إحدى الفيلات التى استأجرها عمر لرجل لبنانى فى الأربعين من عمره. كان على صلة وثيقة به أيام ملاهى بيروت وسهراتها الحمراء. حيث كان يتولى عمليات الإعداد لإقامته وسفره. وحجز الفنادق والطائرات. فلما اشتعلت بيروت بالحرب الأهلية. انتقل هو وامرأته إلى الحاضرة الشرقية حيث تولى الأعمال التجارية الخاصة بالمؤسسة. التى تستلزم السفر إلى الخارج. وجعل من منزله مكانا أكثر خصوصية لسهرات صاحب عمله. تاركا لامرأته إدارة المكان.

هناك وجد ونيس على جمعة جالسا بجوار الباب الصغير يداعب امرأة. وعلى الأرائك جلست فى الملابس القصيرة امرأتان شابتان مغربيتان، وفتاة لبنانية صغيرة. وبينهن جلس ضابطان بملابس مدنية. ثم جاءت فاطمة سكرتيرة عمر الشخصية تسبقه حيث انضمت لجموع الجالسين.

كانوا يدخنون بشراهة. ويتجرعون الويسكي وسط أنواع فاخرة من المشهيات واللحوم المشوية التى أجادت صنعها المرأة اللبنانية. ولم تمر نصف ساعة حتى انتحى عمر إحدى الغرف الجانبية. ودعى على جمعة ونيس للتعرف على الفتاة اللبنانية. مراهنا على أنها ستنال إعجابه وقدمها قائلا: جان.. أجمل الحاضرات. تتكلم الألمانية كيف أهلها.. دكتور ونيس.

كانت تعرف أو ربما كانت بانتظاره. حياها ونيس بإيماءة من رأسه. وكفتاة تعودت المجتمعات وحفلات الاستقبال. مدت له أناملها وأخذته إلى ركن قصي. جلست أمامه ترتدى جوباً قصيراً جدا وبلوز تلتئم عند الرقبة. تاركة ظهرها وكتفها عاريين وصدراً لا يضمه مشد. سألته بالألمانية: هل تجيد الألمانية. فأجاب بطلاقة أنه درس الطب بألمانيا.

- كم سنه قضيت؟
- سبع سنوات.
- .. دعنا نتحدث الألمانية. بلكى ما أحدا هون يتحدثها سوانا.

ضحك بابتسامته المعهودة لفكرة التخلص من عالم يمقته أحكم عليه دائرة الحصار. أجابها بالموافقة. حلت على وجهها معالم الارتياح. قالت وقد تجمعت على وجهها نظرات الاحتقار إنها لا تفهم (وذكرت تعبيراً ينم عن كونهم غير متحضرين أو متوحشين) وقالت بعصبية إنها درست بالجامعة الأمريكية فى بيروت. لم أكن أظن أن العالم يضم أكلة لحوم بعد. ورجالاً جاهلين بأصول معاملة سيدة.. هل تقرأ الأدب؟

أجاب بالإيجاب. قالت تصور إنهم لا يعلمون أن هناك شيئاً مثل هذا. فكيف بالفن أو الثقافة وإذا تحدث أحدهم - وأمسكت برأسها تعبر عن الصداع - فكأنه يقول مسلمات.. وهو على خطأ.. خطأ من حيث ابتدأ. وخطأ من حيث انتهى. كدت أجن .. آه أسفة. قد

يكـــون لأحدهـم صلة قرابة أو صديق لك. أجاب مبتســـمـا بالإيجاب.
زامت وضمت شـفتيـهـا وارتعـش جـفـنهـا وهـى تسـأل: مـن؟

- عـمـر .. عـمـر بوزوى
- صديقك؟
- أخـي.

صاحـــت بملء فـمـهـا: أوه.. أوه.. اعـذرونـى أنا آســـفـة - أخـذت تـهز رأســـهـا وهـى تـصيح بنفســـهـا تؤنبها - كـم أنـت حـمـقـــاء يا جـان.. أوه.. قـالتهـــا لـى أمـى من قـبـل .. اندفـاعـــك وصراحـتك يؤديان بك إلى المهالك.

- ولماذا؟
- لا تظن أنني أسيء للهر عمر.
- لا .. لا تهتمي.. قلت أنت تحبين الأدب؟

فأجابت وهـــى تؤكـد حـديثـهـــا بملامح وجـهـهـا: إننـى أعشـــقـه.. قرأت ديكنز وشكسبير وتورجينيف وأوه .. ديستوفيسكي.. كـامـي.. سـارتر.. هل قرأتهـم.. هـل قـرأت كـولن ويلسـن؟

- نعـم
- كنت سأموت لو لم تكـن قرأته. إنه كـاتبى المفضل .. والشـعـر .. الشـــعـر إنـــه يبهـرني. رحلت عيناهـا للفراغ وهـــى تردد « على رمال ماركيت أستطيع أن أربط اللاشـيء ..

وقاطعها ونيس قائلا « الأظافر المحطمة للأيدى القذرة»
قفزت تعانقه وهى تهتف: إليوت.

- إليوت.
- آه .. تعرفه.. أنا سـعـيدة كـتير .. منذ جئت هنا. سـتـة أشـــهر لم ألتق بإنســـان أستطيع أن أتحدث معه كما أريد أنا. وليس كما يريدون هم .. سـاد الصمت طويلا قبل أن يلمح سحابات الدموع فـى عينيها. مســـحـت دموعها بخجل وقالـــت «بتعرف حالى مثل حال العظيـــم رامبو. يوم قضى ليلة فى ثكنات الجيش. اســتمع وقالت

بنغم حزين:

.. إن قلبى الحزين يتدفق على مؤخره السفينة..

..قلبى الذى يغير ...

قوطعت فى هذه اللحظة، وبارتباك شديد ظهر على جميع الحاضرين. كان عراب عمر اللواء (م) يعبر القاعة مرتديا ملابسه المدنية، وخلفه حارسان مدنيان. عرفه ونيس على الفور. صافح الحاضرين من الرجال بابتسامة بشوشة تعلو وجهه. فى مظهر ينم عن التواضع. كادوا جميعا بمن فيهم المدنيون أن يؤدوا التحية العسكرية. تلاشت تحت السطوة البدوية قواعد الإتيكيت، فتوارت النسوة خلف الرجال. لا يأبه بهن أحد. ولما لمح على جمعة ونيس واقفا بعيدا فى مكانه، صاح عليه أن يحضر، فجاء حيث قدمه للواء على أنه أخو عمر. ولفظ وسط ذلك كلمة ردد صداها فى أذن ونيس كتاب «عريس» فشعر بعلى يسخر منه. فابتسم وشدد على يده وهو يقول «توا نشوف». تركهم إلى الداخل ومعه عمر الذى جاء مسرعا من الغرفة التى كان بها.

عاد ونيس إلى الفتاة اللبنانية التى حل بها الفزع بسبب الرعب الذى حل بالآخرين، والذى تخلفه بالجوار رائحة رجال يملكون سلطات لا حد لها. وترحل لتبقى رائحة الزخم البارد للزنزانات الرطبة. قالت بعينين كسيرتين بعد أن عاد إليها يلعن العالم، وقد استشفت آلامه الروحية «رامبو الوحيد الذى كتب حالتنا هذه» عادت تقول شعره.

.. قلبى الحزين يتدفق على مؤخرة السفينة..

.. قلبى الذى يفيض بدخان التبغ..

.. ينفثون فيه الحساء..

..بين سخرية البحارة.. .. يضحكون جميعا..

..إن قلبى الحزين يتدفق على مؤخرة السفينة..

..قلبى الذى بفيض بدخان التبغ !..

.. أفسدته نكاتهم..

..نكات الثكنات الرامزة إلى الجنس..

..أما على الدفة فما يرى المرء غير صور الثكنات الجنسية..

نفثت الدخان بقوة وقالت كيف كان رامبو يحكى قصة تلوثه وسط الجنود.. صمتت وأضافت أنها أيضا ملوثة وسط الجنود.

سألها وهو يستجمع الكلمات وهو يستكشف حالها. مستفسرا عن أسباب وجودها وهى بعد شابة صغيرة ومثقفة. أجابت بجدية وهى تهز كتفيها. وتبتلع دخان سيجارتها. ثم تنفثه حلقات متوالية من الضباب. إنه لا داعى للمجاملة. فهى تمر بأوقات تود لو تلوث نفسها عن عمد. تود لو أن حواسها تدمر تدميرا منتظما. وهزت يدها متعجلة. وقالت إنهم يتواردون علي بكثرة تجعلنى من الأتقياء.. لست أنا التى أفعل ولكن هؤلاء. فالانحطاط البشرى الذى أعانيه من سلوكهم يجعلنى أود لو أفقد حواسى عن قصد دون حاجه للمال.. إننى أفقد الإحساس بحلاوة النشوة. وتقل قدرتى على الاستجابة العصبية ليبدو إزاء المداعبات الجنسية. فأقوم بتمثيلها بنفسى حتى أصاب بالصداع الدائم. ويتكلف وجهى ابتسامه لزجة. فلا أستطيع أن أعيده إلى حالته البكر- وراحت تبحث عن تعبير ملائم - الابتسامة الطبيعة ال .. ابتسامة الطفولة.. تلال من أوجاع نفسية. فلو أن للخطيئة منفذا للسماء لبلغتها.

- لكنها ليست منفذا.. أجابته فى عدم تصديق: حقا .. لكن ما الذى فعله السيد المسيح .. ألم يحملها عنا؟.

- لكن المسيح لم يفعل هذا لغرض دنيوى .

- هكذا يكون اللا منتمى.

- لا.. اللا منتمى شخص يجد الحياة تافهة.. ضيقة.. لأناس عاديين. حتى أولئك الذين يبحثون فى مختلف العلاقات التى تربط الشكل المادى بالجوهر كالعلماء ورجال الدين.. أما المنتمى فهو الذى

يرتقـي عبر الألم إلى الجوهـر ذاته. مخلفـا وراءه كل هذه الترهات رافضا كل إيمان شـكلى بـالله أو أية قيود مسـبقة من طقوس أو كهنوت. هو يعشق حريته إلى الحد الذى يستطيع القول عنده بأنه جـزء من الحقيقة المطلقة.. جـزء من الله.. ومن ثم يعيد ثروته هذه إلى العاديين من البشر.

أجابتـه بصوت صادق خال من الألـم: ولكن ماذا أكون حقا.. إذا لم أكـن لا منتمية.. الحرب. والقتل على الهوية. وجثث أحب الناس إليك ملقاة على الطرقات وسط برك الدم لا تبعد عنك سوى أمتار قليلة. وقد حل بوجوه أشـقائك الصغار العفن. دون أن تستطيع أن تتقـدم منهم لتواريهم التراب. هذا الشـيء الوحيد الذى يحتاجه المـوت.. لقد فقـدت كل عائلتى ولم يبق لى أحد: أبى وأمى رحلا فى تصفيـات القتـل على الهوية. أخواى اللـذان قاتلا كل فى جانب .. ألسـت أحمل نصيبى من الألم السرمدي.. وعندما أعطى جسدى لأناس منحطين كالعسـكر. فى الوقت الـذى عليه فيه أن أتكفل لهم بالمتعة ولنفسى بالشقاء.. بالتدمير.. أليس هذا شوكة على جبين المسـيح؟. هل تكفى بضعه أوراق نقدية لتجعل من كل هذا شـيئاً دنيوياً.. أليس اللا منتمى هو الذى يتحمل الآلام من بشر هم دونه فى المعرفة والإحساس.

- سـامحيني.. إذا قلت لك لا .. الفضيلة فى رأيى أمر لا يتخلى عنـه.. إنهـم فقـط يكسـرون كل الأشـكال والنظـم اللاهوتية السـابقة. وعلى كل منهم أن يبتدع لنفسه طريقا خاصا به.. إنك تغالطين نفسك..

فى هذه اللحظة استدعاه عمر فى الحجرة الخلفية. جلس العراب وعمر وعلى جمعة فقدمه أخوه بشكل أبوى ودود- أخي.. دكتور ونيس .. نبى له مستقبلا باهرا. أنا جعلته عضوا فى مجلس إدارة مستشفى اللى يقام بالقاهرة- واستطرد قائلا - لكنى أريد أن أحذرك منه. رأسه صلبة وتستحق الكسر. هز العراب رأسه وقال بصوت ممتلئ بالسطوة:

ما تخاف شيء نقدر نكسرها كيف حبة البندق.

وفي ثوان قال العراب « باهي.. حياكم الله» وقام فقام الجميع. وخرج وخلفه أخوه وعلي جمعة. ونطق ونيس لنفسه بالكلمة الوحيدة للمقابلة حياك الله. ثم عاد ثانية إلى جان ونفسه مملوءة بالضيق. سألها فيما كانا يتحدثان فأجابت: دعنا من هذا الحديث الآن وقامت تحضر كأسين من النبيذ وعادت لتجلس إلى جانبه سألها عن ألمانيا؟ فقالت الحرية .. الحرية. سألته لماذا رجع وكيف يستطيع الحياة هنا. أجابها ونيس: تظنى أن الحياة هنا لا تستحق. أجابت بالتأكيد. سألها ماذا كانت تفعل؟ قالت إنها كانت تدرس الفلسفة فى نفس الكرسى الذى جلس عليه هيجل. لكن الحرب جعلتها غير قادرة على إكمال الدراسة. عادت إلى بيروت لكن زوج عمتها قال لها إن البقاء فى بيروت لن يفيدها ولن تجد من يعيلها. وعليها بالسفر إذا أرادت أن تجمع ما يكفى لاستكمال دراستها. سافرت إلى باريس لأقرباء من بعيد. بعد ثلاثة أشهر أفلست. وكان لا بد من النقود فأتت إلى البادية والنفط تبحث عن حظها.

- وهل وجدت حظك!

- حظى السيء!!.. أخبرنى أنك لا تعانى من نفس الوضعية؟

- شنو وضعية؟

- أن تكون مختلفا عن الآخرين. يراك الآخرون الأبله. وترى نفسك الأفضل.

قال: تتحدثين عن الاغتراب.

- لا .. أعنى اللا منتمى.

قال هذا شيء يخص الحضارة الغربية.. ضحكت لأول مرة وهى تبدو سكرى: هاها .. وأين حضارتنا إذن؟

- حضارتنا.. لا أعرف.. انحبس الحديث فى فمه.

حل بها سخط وهزت رأسها: ما يحدث حولى لا أفهمه. أعلم أننى

بغي. هل يضايقك أن تحادث فتاة تمارس البغاء.. وقالت ترجوه- أنت شخص مثقف وعشت فى أوروبا. قال يسترضيها إنها حرة فى اختياراتها.

- لكنى لا أنال لقاء ما أدفعه من ثمن باهظ .

- كم ادخرت من النقود؟

- خمسمائة دينار بستة أشهر.

فصاح بها غاضبا: لكنك تستطيعين الحصول عليهم من أى عمل حسابى فى أى شركة. لماذا تنتهكين روحك؟. داخت مختنقة. داخل مشانق اليأس الشديد وامتلأت بالحنق وموجة من البكاء تسد حلقها: إنهم يسرقونني. يسرقون بغياً.. لكنى متورطة. وقوانين العمل تمنع عمل الأجنبيات بالأعمال الحسابية إلا للرجال فقط. على أن أنتهى هذا العام بأى طريقة حتى أرحل من هذا الجحيم.

لمحت على جمعة يتابعها بإشارات ونظرات شذرة يدعوها لأن تعمل جيدا فاقتربت تلتصق به. وهى تنظر إلى على تحمل نحوه نظرات الطاعة أبتعد عنها. قالت معتذرة: سامحنى.. ارجع. دعنى أراك كثيرا أرجوك.

- لا أستطيع.. ما أعمل أهنا..

- وأين تعمل؟

- بعيد واجد.. على مبعدة ثلاثمائة كيلومتر من أهنا.

- حظى السيّء مرة أخرى.

جاءت فاطمة تدعوه لمقابلة أخيرة مع عمر. قام إليه وهو يشعر بأن أخاه جعل منه كرة صغيرة يلهو بها. طالب نفسه بالصبر حتى يحصل مبتغاها وبعدها سيكون هناك شأن آخر . وبالغرفة الرحيبة وجد المهندس المصرى زكى المهدى وبجانبه على جمعة. يجمع عده رزم من فئة الألف دينار. يضعها فى حقيبة سمسونايت. فلما انتهى انحنى يصافح اليد الممدودة نحوه يشكرها فى بلاهة. قبل أن يخرج الاثنان ويتركاهما وحيدين.

* * * *

قال عمر: أخيرا يا حاج ونيس تو نبى ندير بالنا شوى. قال ونيس حانقا إنه ترك عمله يومين متتاليين دون أن يستطيع أن يلقاه رغم أنه الذى أرسل يستدعيه. طلب منه أن يهدأ ولا يدير باله بالعمل فسوف يسوى هذه المسائل البسيطة. وطلب منه أن يخرجا إلى الحديقة الخلفية هربا من الجو الحار الخانق بالدخان.

فى الخارج كان الجو يميل إلى البرودة. قال عمر يلاطف أخاه. وهو مصر على أن يبدو فى هيئة الحريص عليه وعلى مشاعره. والمهتم بأن يأخذ فى الحسبان مستقبله ولهذا ألغى العقود التى أحضرها من أوروبا. وأحل محلها عرضاً آخر تم الاتفاق عليه نهائيا. وهو الذى سيعطى المشروع اسما عالميا. وهو بهذا أيضا يصبح مضمونا بشكل كامل من النواحى الإدارية والتسوقية. وذلك لأسباب قال إنه سيعرفها فيما بعد. وقال إنه يجب أن يكون فى القاهرة بعد خمسة عشر يوما.. حاول ونيس أن يقاطعه لكن عمر خرج عن طوره وهتف به ألا يقاطعه. وأضاف «توا أنت أمضيت سبع سنوات بالخارج. وما كنت تيجى بُكّل . صرت ما تعرف شيئا عن البلاد. كل اللى فى ذاكرتك هناك أيام البوادى. لما أن كنا نرعى قطعان الغنم أنا وخوك ناصر وأنت.. توا الحياة تغيرت. البلاد اتغيرت. وأنا كنت نظن أنك مثقف متعلم وأنا الجاهل. تستطيع أن تفهم شنو يجرى. تعرف أن أنا بدأت من الصفر بعد عام رحيلك. موش أنا بس. لكن فيه ناس كثار. وتوا ترانا فى أرض راسخة».. أحاط كتفه بساعده وأخذه إلى الداخل واستطرد عمر قائلا إنه لو كل جعل من كل قضية صغيرة. وهكى عواطف ومشاعر من هادكاهى مشكلة. ما اتحركنا وما تقدمنا ولبقينا تحت خيمة الصفر. بيننا فى العمر ثلاثة أعوام. لكن خبرتى يا عمر بالحياة تعدى كيف أقول.. ثلاثة قرون. فى ساعتين توا أنت ريت أشخاصا لامعين. ضباط من ذوى الشأن. مهندسين من كل الأجناس: مصريين وسوريين وفلسطينيين لما يقفوا قدامنا يضطربون يخافون.. واستطرد بعصبية ترانى أحمل

عصا.. كرباج أخوف فيهم. هز رأســه فـى ســأم وقال وهو يهز يديه ويحرك رأسه وهو منفعل وقد تعقدت عضلات وجهه: ريت بعينك.. عملنا المخلص. طاقتنا التى تشـهد بهـا البوادى والحضر اليوم. تزيد مع الزمن مو عواطفنا.. أنا شخصيا أحب المصريين. يؤلمنى حالهم. لكن على أن أعامل الجميع فى قسوة ودون لين. حتى نحصل منهم على عمل. أنا أعطى أجوراً ورواتب. الذى يثير عجبى أنك قضيت فى أوروبا حيث ما فى عواطف بُكّل . يا أخى أنا نعرف إنك كنت تدير فى عشرات الفتيات كيف التيس الحرون. وكل واحدة تقدر تشبعك من أى مرة هنا. ترى كيف بالله عليك سـنة واحـدة فى غرناطة تصير بالرخاوة هـاذى وتتحدث عن بنت كيف طفل يتشـعلق بلعبة. ثم إنك تستقبلها بمنزل هذا التيس المصرى.

سأل ونيس بحيرة: من؟

- هذا الذى يدعى رفعت.
- كيف عرفت؟ تتجسس على يا عمر.
- مـا تحـاول تكون ذكى معي. اذا كنت خـدت كيفك منها فما يوجد شىء يلزمك. أنت ما جبرتها على الحضور إلى منازل أحد. هى اللى تجى على كراعيها.

أحتقن وجه ونيس بشـدة. كان أخوه يلوك شرفها مثل قطعة من العلك فقال وقد ضاق به النفس إنه لا داعى لأن يمسـها بسوء. مثل هذا لن يفيد أحدا بشىء.

- لا تجعلنى أظن بأنك مو راجل.
- وكيف ترى أنت الإنسان يكون راجل ؟!
- تـرى ليش تلقى فيها منفردين. أجابه وهو يحاول أن يتغاضى تعريض أخيه المباشر بسالمين حتى لا يبلغ الانفجار: شنو قصدك؟ كنا نتحدث.. نتعارف عن قرب .. نظر عمر إليه فى دهشة وأشار إليه بأصبعه وقد ضاقت عيناه وقال فى ازدراء: هل تعنى إنك ما حصلت

اللى تبغيه. تراجع الشاب الطويل القامة خطوة إلى الخلف وصاح به فى سخط وذراعيه فى الهواء: ولشنو أسوى هكى؟

حرك عمر يده فى دوائر وقال غير مصدق: أنت تحب! .. كنك مو فى ورطة. هل هذا كل ما عدت به من أوروبا.. باهى.. كنت أظن غير هكي.

- يضايقك إنى ما أكون منحط.

همس عمر وهو يضحك فى تعجب: خايف تكون ما عاد فيك للنسوان؟. استدار إلى النافذة. كان المطر يشتد بالخارج. ثم عاد إلى أخيه وقال إنه لا يعرف سبب تشبثه بهذه الفتاة إلى هذه الدرجة.. أبوها - قالها فى ازدراء - من هكى اللى يكتبون المسرح ما يملك حتى فى فلس. يؤلف شوية جمل عن -وحرك يده معبرا عن اللا شيء - ويلف بها فى مطبوعات دار الكتاب بيش نصنعوا منها قراطيس ونبيعوا فيها هريسة.

قاطعه ونيس برجاء وتوسل، لأنه أضطر إلى أن يهين كرامته إلى هذا الحد: عمر.. اسمع زين .. إذا تزوجت بنت الأمراء أو بنت كاتب مسرحى ما يخصكم شيء.. أسرتها لن توافق على قبولى بمفردى ودون موافقة الشايب. ولو أعرف أنهم يوافقون على تزوجى ابنتهم دون الحاجة لكم. لانتهيت. وما رضيت أصير حذاء يرتديه كل منكم كيف ما يريد. حتى الكلبة الصغيرة صديقة.. أنا أريدها. طرق المنضدة بيده وعمر ينظر إليه فى سماحة. وكفى ألا يكفى هذا. ألا نستطيع أن ننهى هذه المهزلة وترحل أمى وعائشة لمقابلتهم..

أستند عمر بظهره إلى كرسى المكتب الضخم وقال بنفي: زواجك ما يضرنا.. بل يسعدنا. أما إنه لا يعنينا فأنت مخطئ. صمت ثم هز رأسه واستقام على المكتب ثم عاد ثانيه يستند إلى سند المقعد بظهره وقال مشيحا بوجهه عنه: تذكر ماذا قالته أختك الصغيرة. زواجك يهمنا جميعا - ثم استدار غاضبا- مو لأننا نشاركك فيها. استطرد فى صوت ارتفعت نبرته: إحنا ندور فى

مســتقبلك.. تعلم.. وصمت فترة وهو ينظر إلى أسفل ثم عاد إليه يصيح: أنت فى ورطة تعبث مع العاهرات وتتسكع مثل مراهق تجره «غرناطية» من خصيتيه على الأسفلت ونحن هنا نحمل همومك ومشاكلك كيف التيوس.

ســكت ونيس علــى الفور، ها هــو عمر يخرج مــن جلده الذى حافــظ عليه معه، ويكشــر عــن أنيابه، وتجلدت ملامحه واســتفز عقلــه خوفا من احتمالات هجوم أخيــه المفاجأة، عليه أن يكيل له الصاع صاعين. كلمتان والإهانة بمثلها لا ينم عن ذلك إلا عن عينين توترتــا تيار الغضب ونهض عمــر عن مقعده واضعا كفه فى جيبه وملوح بذراعه الطليق.

- هذه الفتاة تَسَــكِرُ مستقبل مفتوح أمامك، بإمكانى أجعل منــك فى عشــر ســنوات وزيرا، أو تكون مســاعدى الأيمــن فى هذه المؤسســة الضخمة التى نبنيها، فقــط لو تفهم فى الأعمال، من أثق به غير خوتى، الآن يرتفع فى ســماء المجتمع شــباب ســيكونون ســادة المجتمع غدا، وأنت تنحنى وتنظر إلى الأرض، بل تضع رأســك فى الرمال مثل النعامة، هل أنت ســاذج إلى هذا الحد.. ليكن أقض وطرك منها، وســوف تســلوها على الفور ثم استقام على المكتب وراح يضــرب كفه اليســرى بســيف كفــه اليمنــى وانحنى عليه فتراجــع ونيــس منزعجا محترما فى توتر تصرفــات أخيه الذى قال له: هل هناك ضرورة لورقة شــرعية حتى تكتشف أنك سوف تملها على الفور.. سوف تنهار كل هذه الأحلام الوهمية.. ولكن بعد ماذا. بعد أن تكون قد فقدت مســتقبلا طويلا عريضا، ألا يكفيك هذا .. أستطيع أن أزوجها لأحد الذين لا يهتمون بعرضهم، فتنالها وقتما ترغب، صدقنى أفعل إذا بتبي.

صعــق ونيس ونظــر إليه فاقــدا النطق واســتطرد عمر قائلا: الرجل العملى ما للعواطف دخل فى أعماله وإلا فســوف يفشــل كمن يريد السير فوق الماء.. أن تشترط على أن أوافق على زواجك من

« الغرناطية» قاطعه بس اسمها مو الغرناطية.. اسمها سالمين..
لكن عمر لم يأبه بمقاطعته واستطرد: مقابل أن تذهب إلى القاهرة
هذا شيء غريب لا يمت إلى العاقلين بصلة.

ألقى بولاعته الذهبية ونفث الدخان بقوة غاضبا وعاد إلى
مقعده الضخم صامتا.. مرت فترة طويلة اعتقد ونيس أن الأمر
قد انتهى عند هذا الحد. وعليه أن يرحل وكان على وشك الرحيل
عند ما جاءه صوت عمر يقول فى هدوء وحكمة ظاهرية: لا تكن
عجولا.. فكر كثيرا وأنظر للحياة بواقعية. أنت أخى الذى أرغب له
فى أن يكون أحسن من أنا.. ثم استطرد. لو تساعدني. يجب أن
تكون طموحا ذا علاقات وسلطة.. هكذا تستقر وهكذا تحصل.
ليس على فتاة واحدة بل على من ترغب من النساء. وليكن أننى
مقتنع بوجهة نظرك ولكن تستطيع تأجيل هذا الموضوع عاما أو
عامين.. هه.. اختبر فيها يا أخى عاطفتك. لكن لا تشترط على
هذا بأعمالنا.. جهز نفسك للسفر خلال أسبوعين. أجابه ونيس فى
حزم: لن أسافر لأى مكان.

- شنو.. لن شنو؟!
- لن أرحل من هنا.
- لشنو
-انتهوا من الموضوع الأول وبعدها لنتحدث فى السفر.

هز عمر رأسه وقال: لن تتزوج هذه الفتاة.. أنت ما تستطيع.

- ما أستطيع شنو؟
- أنا خلاص.. عطيت كلمة.

انتفض من مقعده وقد استند بذراعيه فوق سندى المقعد: لمنو؟

- للراجل اللى ريته منذ ساعات.
- أى رجل؟
- اللواء (م)

انحنى ونيس إلى الأمام وقد انتفض جسده. وتنبهت كل خلية من حواســه إلى أخيه وحدق فيه بعينين ملتهبتين بالتســاؤل: عن شنو؟

- اهدأ .. لشنو أنت منفعل هكذا.. لقد طلبت يد أخته لك.

هتف ونيس غير قادر على التصديق.

- أخت منو؟

أجابه عمر : أخت اللواء

- أنـا.. وضرب صــدره بمقدمة أصابعه عده مـرات وهو يكرر فى هيســتريا أنا . وأجابه عمر : نعم أنت - لشــنو ما تصدق .. أنت مو أقل شــأنا من أن تأخــذ أخته . أنا أبحث عــن مصلحتك.. هذا هو مستقبلك فكر به وسوف ترى أنى لم أخطئ فى أى كلمة قلتها.

أجاب ونيس وشبح التروس العملاقة التى تختفى تحت قبعات العســكرية. وذهبـا لمن يحــوز رضاهم وتطحن كل مــن يقف فى سبيلهم يقترب منه وثيرا:

- مــن ســمح لك بــأن تعطــى أحد كلمــة عني.. لســت أحد مشــاريعك .. لســت امرأة حتى يتحدث باســمها الآخرون. وصلت به الهســتريا وأخذ يردد كيف .. كيف فعلت هذا .. من ســمح لك .. هذه حياتي.

بلغ صوته المرتفع إلى الخارج. فلكز على جمعة جان وهو يعنفها لكونها لم تجتهد فى عملها أثناء جلوسهما سويا. فوقفت تنتظره خارج الغرفة كى تستقبله فى أحضانها.

وفى الداخل قام عمر فى غضب يحاول تهدئة ونيس الذى أخذ يصيح فيه: كنك .. أنت تبيع في؟!

- أهدا .. أنا نبغى مصلحتك.

- بكّل .. أنت تبغى مصلحة نفسك .. أنت تبيعني.

فصاح به وقد عاد ثانية إلى مقعده: قلت أهدا. لشنو تصرخ هكى؟

نهض ونيس وهو يكز على أسنانه من الغضب من المكتب وهو يصيح فيه: وليش تلعب بى . رد عليه فى سخط: كيف ألعب بك ..اهدا وما ترفع على صوتك. فكر مليح هذه فرصة ما تتكرر ثانى.. دمدم فى صوت أمر أستفز ونيس أنه لم ير غباء.. وفى جنون حيوان وقع فى المصيدة قذف ونيس عمر بالحبرة الرخامية الموضوعة قبالته على المكتب يردد

- وغد .. وغد ..

مرقت الحبرة بجانب وجه عمر مباشرة لتصيب لوح الزجاج الضخم الذى سقط بكامله خلفه. محدثا دويا هائلا. وتناثرت شظاياه فى كل مكان وعمر الذى لم يواته الوقت كى يلتفت خلفه. ظل محدقا فى ونيس الذى اندفع إلى الخارج. استقبلته جان تحيط عنقه بذراعها فلطم صدرها يدفعها عنه بقبضة يده فى قوة فهوت أمامه على ظهرها على الارض وقد اتسعت عيناها دهشة. وتساؤل ممزوج بألم يغشى ضباب الدموع وقد كشفت ملابسها القصيرة عن فخذها الناصع البياض وسروالها الداخلى الأسود القصير التى مدت يدها تغطيه فى سرعه فانطبع المشهد فى عينيه. والفتاة تردد فى خوف: ماذا فعلت.. هل فعلت خطأ.. لماذا هو غاضب؟

صفق الباب خلفه. واندفع على جمعة إلى الداخل. فوجد عمر جالسا على مكتبه فى غيظ: القرد هادا قذفنى بالحبرة.

- توا أنت سليم ما فيك شىء.

- سليم .. أبتسم على جمعة ثم ارتفعت ضحكته عاليا فابتسم عمر هو الأخر. قال علي: أسد نشهد الله هو أخوك وما قصر.. ما يصير يفعلها سواه.

- هذا تيس.. نحن فى ورطة شنو نسوى؟.

هـز على كتفيه باستهانة موضحا بأنه لا توجد ورطة ولا شيء. تساءل عمر إذا لم تكن هناك ورطة فما الذى ينبغى. قال ببرود أدهشه: تزوجها أنت.

* * * *

سار ونيس فى شوارع المدينة هائما على وجهه. وفى منتصف الليل وبعد خروجه بنصف ساعة اتصل عمر بثريا يسألها إذا ما كان قد عاد. أجابت بالنفي. عادت إلى فراشها. بينما كان يجلس ساهما على الشاطئ يستمع إلى صخب البحر يعلن له بأن الحياة تكون فشلا ذريعاً للإنسان الذى يرى أعمق مما يجب. عبر السماء شهاب يحترق. فخطر له أنه قد يكون ستاراً لحيوات أخرى مدهشة.

كان مذعورا إزاء المجهول. يود لو يصرخ فى وجه النظام الكونى الماثل أمامه. ومرأى سروال الفتاة الداخلى الأسود القصير الملتصق ببشرتها الوردية الناعمة. والمنطبع على عينيه. وصورة الجسد البشرى الضعيف المرتطم بالأرض يخنقه حزنا. وقد ملأته أحاسيس البؤس لفضح سترها غيلة. تبدو الحياة قدرية تسحق الضعفاء. ولو أنها صفعته أو سبته لاستراح. لكنها كانت تعيسة ممهورة ببصمات المذلة والشقاء.

امتلأ قلبه بالتعاسة حتى سلمى صارت بعيدة.. ما يؤلف أزمته. المفاجأة التى جعلته يتماس مع رجل عسكرى يمتلك سلطة نافذة. رجل يهشم العالم. هوائيون وطغاة يلتذون بالقسوة ويوزعون نبلهم المزيف على عبيد إحساناتهم.. أيقن بينه وبين نفسه أنه حتى لو لم تكن هناك سالمين. فما كان يقبل أن يكون رجلاً من الدرجة الثانية. يعيش بالتزلف. على التقاط ما يتساقط من بقايا قوتهم المطلقة. معرضا نفسه للهوان أمام ماكينات طغيانهم الضارية. تدهس كل من يقع فى طريق أحذيتهم الثقيلة..

برقت السماء وفتحت أبوابها . ملأ الرعد سمعه وانهمر المطر شلالات. وأخذ يجر قدميه فى الطرقات المهجورة على غير هدف. وفكرة محورية تترسخ فى يقينه: عمر يستخدمهم فى مصالحه. وسوف يبيعهم بيعا لو احتاج الأمر.. وينبغى عليه ألا تتماس حياته معه فى أى مكان أو زمان..

فى الرابعة والنصف صباحا بلغ الفيلا منهكاً مبتل الملابس. وألصق المطر خصلات شعره الأشعث على جبينه. كان يسعل بشده. دق الجرس طويلا قبل أن تتململ ثريا من نومها القلق، لتغادر فراشها تنظر الطريق من زجاج النافذة. لمحت فى ضوء الشارع شبحا مبعثر القوى أشعث الوجه يجلس أمام البوابة على أرض الرصيف المبلل بالمياه. ملقيا بسترته على الإسفلت جانبا. حدقت لتتعرف عليه. ثم اندفعت فى قميص نومها. تتعثر فى درجات السلم. فتحت الباب الداخلى وعبرت الباحة تحت المطر. وهى تهتف باسمه. حلت البوابة المعاندة وقد صدمها مرأى وجهه الشاحب: ونيس .. ونيس .. «كنك.. شنو بك» رد علي.. يا ربى .. يا ربي.. أسندته على كتفها ورفعته حتى عبرت به المدخل الخارجى.. تركها يجر أقدامه. تهزها عيناه المطفأتان. سبقته تفسح الطريق وقد امتلأت الأرض بآثار أقدامهما المبتلة وهو يردد.. الخنزير .. التيس.. يبى يبعني.

تعثر على درجات السلم سارعت تمسك يده فأخذ يتوكأ عليها وقد ناخ ساعدها لثقله. وضعت كتفها تحت إبطه واحتوت ظهره بساعدها تساعده على الصعود. تطلب منه فى جزع وهى لا تعلم شيئا أن يهدأ، وأن كل شيء سيكون على ما يرام.. لو تخبرنى بما حدث لك .. هل تشاجرت مع أحد .. أنت لست سكران .. كيف بك إذن؟.

بلت ملابسها وانتقل لنهديها ونصفها الملاصق له من جسده البارد دفء سيبقى معها طويلا. وفى غرفة نومه قادته إلى مقعد ضخم. فتهاوى متهالكا. وراحت تستبدل ملابسه العلوية. تخلع عنه ربطه عنقه. تفك أزرار قميصه الملتصق بجسده. وهو يساعدها

فـى خلع فانلته الداخلية. وانثنت تنحى علـى قدميه تخلع الحذاء والجوارب. فنظر اليهـا بوهن وهى تحت أقدامه وقال إنه لا يعرف من أين واتته النذالة كى يضربها.

سـألته منزعجة «من؟» . قـال: «اللبنانية اللـى يقيم عندها عمر». شعرت بطعنة نافذة؟. ضاقت عيناها وهى تسأله: كيف؟

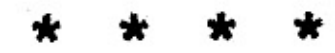
أجاب فـى صوت ضعيف: رميتهـا الأرض دون ذنـب. التمع فى عينيها ضوء التشـفى وقالت وهى تدلف خارجا لتصنع له الشاى: ربتك قتلتها. . ولم يسـمعها. ولما عـادت وجدته ممددا على وجهه فى نـوم عميق. لا يرتدى سـوى سـروال منامتـه. يلفحها بظهره العاري. تتمنى لو تمددت فوق لوحه البربرى الصلد. حاولت أن توقظه حتى يسـتكمل ملابسـه كى لا يصاب بالبرد. كان يغط فى النوم.. أحضـرت غطائها الصوفى. وأحكمتـه عليه كى تظل لزمن طويلا تتشمم رائحة عرقه وهى تستجلب اللذة. وأغلقت النور عائدة إلى غرفة نومها.

كانت الباحـة الداخلية يخيم عليها الصمت. خرج الشـايب إلى دورة المياه ثم عـاد يتخبط بقطع الأثاث المتناثرة. تمددت ثريا فى فراشـها مسـتيقظة تتابع ضوء الطريق القادم من زجاج النافذة. ينتشـر فى الغرفة المظلمة. مرت عشـر دقائق قامت متسللة إلى غرفتـه. وجدته نائما على جانبه وقد أعطاها ظهره.. هزته فى رفق فلم يستيقظ .وقفت مترددة. وعاودت تهزه فلم يجبها.

دون أن تـدرى ما هـى فاعلة. صعدت الفـراش. رفعت الأغطية ومددت جسـدها خلفه. أنعشـتها برودة الفراش. ارتخت للحظات وتنفسـت بعمق شـديد رائحة الظلام. وقد مسـتها نشوة العبق الرجولـى الذى امتلأ به الفـراش. عاودت الارتخاء ثم أخذت تمسـد جسـدها الخام بأناملها. وهى مستسـلمة للعبـق المتصاعد من الجسـد الملقـى جوارها. تكتشـف كمراهقـة مبتدئـة غموضه

الســـاحر. تتابعت الموجات خافتة فى طريقهـــا الوئيد للذروة. مدت ذراعيها على طولهما إلى الخلف واستقامت بجسدها ترتفع قباب نهديها للســـماء على أشده تشتد أوتارها حتى كفل القدم. وعلى قمة الموجـــة قاومت الســـقوط وهى تضغط علـــى الحائط الخلفى فى انتشـــاء باهر. وتراقصت بعينيها المغمضتين وأنفاسها اللاهثة الومض الزاهى لقوس قزح.

بحيـــرة ودون وعى انثنت تلتحم به بقوة. فلما حل بها الارتخاء بطيئـــا تراجعت عن الجســـد الخامد بجوارها ووضعـــت بينها وبينه الشرشـــف مغطيه بـــه نصفه العلـــوى العارى ثـــم ارتكنت عليه ببـــطء وما لبثت أن التصقت به وراحت ممددة فى ســـكون ترشـــف نشـــوتها وحيده فى هدوء. كاد النوم أن يغشـــاها وفى السادســـة والنصف تســـللت عائدة إلى غرفتها وقد بـــدأ الصباح فى الانبلاج فلما استيقظت تبحث عنه. كان قد رحل.



فى الأسبوع التالى عاد حميدة من غرناطة الشرق حيث التقى بسالمين. فازداد حماسة لأخيه وصار من أشد المدافعين عنها. مما أثار ضيـــق وحب اســـتطلاع لدى ثريا. وفى اجتمـــاع عائلى دار نقاش حاد بين حميدة وعائشة مع أخيهما. عندما صرخ فى وجههم متسائلا عمن زوج ناصر؟ قـــال أبوه فى تردد «أنا» فعقب ونيس «هو وعمر مو هكى؟

- نعم.. أنا وعمر.

- باهى لن تفعلوا بى ما فعلتم بناصر .. هل تفهمون. وسأتزوج من أريد شـــئتم أم أبيتم. وســـتوافقون وإلا نســـجلها عليكم. ولن أدخل البيت بُكّل .

وفى اليوم التالى وافق أبوه على مضض بعد أن قال عمر « هذا

الطائش ما منه رجاء اتركونا من مشاكله». اتفقوا أن تذهب أمه وعائشة لخطبة الفتاة تمهيدا لذهاب أبيه وعمر وقراءة الفاتحة.

* * * *

في حوش سالمين اعتذر الشايب. فالتفت جدر صخرية على جسده بفعل قوى خفية كامنة في أعماق الماضي. وهي تهتف به «يجب أن تنسى الطفولة »

قال الشايب: عطيت كلمه لأخي. فانكمش الجدار بشدة على صدره يضغطه بقسوة. والحياة تبتعد سريعا مخلفة وراءها الظلام وردد ونيس سأرى الضوء لآخر مرة.. يجب أن تنسى الطفولة واطمئن فهناك ما زال بعد آلاف العجزة والمرضى والمشوهين والمتخلفين عقليا.. ما زال هناك القاذورات بالطرقات ومتخصصو السوق السوداء والتهريب والقوادون. ما زال على وجه العالم الفقراء والمتسولون وسكان القبور وآكلو اللحم البشري. ما زال الجمال الإنساني بعيدا عن الجمال يأكله الموت بيسر.

أجاب .. لكني .. كنت أريد أن أكون ..

عادت النسوة ثائرات وقد أهينت كرامتهم من رجل يعتبرونه لا قيمة له. عنفته أمه في قسوة وكاد أبوه أن يلعنه. كانت ساخطة في ظاهرها. جذلة في داخلها فقد عاد إليها ابنها الذي كان على وشك أن تختطفه واحدة من بنات الساحل.

وعاد هو إلى شقته مهدوم القوى منسحقاً. وبالشرفة المقابلة كانت نزيهة لا تزال تدخن في شراهة. وهي تداعب كلبيها. وصديقه دكتور رفعت وزوجته يواسيانه وسط حزن يحثانه على المقاومة. أجاب بيأس أنه سيكون مضغة في أفواه المدينة لو أعاد المحاولة .. صمت قليلا وقال في سخط إنه يستطيع أن يضعه أمام

الأمر الواقع ويجبره على الموافقة مرغما. ظننا أنه يستطيع الزواج بها. فحثوه أن يفعل. لكنه قال في يأس إن الزواج بها دون موافقة أبيها مستحيل والحل هو أن يفض بكارتها. صمتنا من الرعب. هز رأسه قائلا: لكنني لا أستطيع ولا هي تستطيع. تساءل رفعت بحزن كيف يمكن أن تتوفر كل الشروط المادية والمعنوية لزواج طبيعي ثم يمنع حق الاختيار. يفرضون آراءهم وأحكامهم التعسفية. هذه دعوة إلى الخطيئة.

قال ونيس في غضب مكتوم» الخطيئة وحش ضار يدور في شوارع المدينة. ضباع ضارية تنتظر النفايات التي يلقيها الكبت يلتهمها بشراسة مسعورة.

* * * *

دق جرس الباب في لهاث. انطلق يتلقاها مندفعة إلى أحضانه. غير قادرة أن تنظر عينيه. ضمها بقوة حتى يتأكد من أنها بين يديه حقيقة. يبحث عن عينيها المختفيتين في صدره وهمس «سلمي».

فكان جوابها بكاء حارا يخرج من أحشائها. أخذ يمسد شعرها كطفلة تبكي بين ذراعي أبيها. أعاد الهمس المتقطع «سلمي.. سلمي.. أعطيني عينيك». فاندفع بكاؤها مريرا كالعلقم.. عاد يضمها بقوة وسرى الدفء إليها وهو يلف بها أرجاء الغرفة وحيدين .. يردد «أريد ان أرى عينيك.. اشتقت إليك».. اختلج صوته .. «كنت أظن أنني لن أراك بعد الآن.». استطرد بصوت ذاهل وهو ينظر حقيبتها المدرسية الملقاة على الأرض «جئت بملابسك المدرسية» وكانت تجيبه بشهقات بكائها وجاءه صوتها ملتاعا «أحبك.»

واخذ يخف بكاؤها وغرق وجهها في صدره فاستطرد .. أحبك .. لا أستطيع الحياة بدونك هذا الأسبوع مضى كالجحيم . كدت أقتل مرضى في غرفة الجراحة حتى منعوني من دخولها .. كدت أرتكب

عشـرات الحوادث حتى أخذ منى رفعت مفتاح السـيارة.. لا تبكى .. أعطينى عينيك.

مد أصابعه إلى ذقنها ورفع وجهها نحوه واستسلمت مرتجفة وهى تشـهق. وقـف وجهها أمـام ناظريه مغمضـة العينين. وهو يمسح دموعها بأنامله ويقبل وجنتيها وجبينها وعينيها المغلقتين ويلثم أرنبة أنفها. اشـتهته عنـد ثغرها وهى تهمس «ما تتركني.. بالله عليك ما تتركنى.. هل ستتركني»؟

لا .. كيـف أفعل هكـى... كيف أترك نفسـي. وعاد مع صوتها ابتسـامته الرحبـة فحطـت برحالها هنـاك على شـاطئها. قال باسما والعذاب يملأ وجهه يسألها «وأنت؟». فردت باندفاع وصبابة « ستشرب من بين يدى الماء».

نظـر إليهـا بجسـده المنحنى يرشـف المـاء من بـين كفيها المفتوحتين ونهديها القريبين منه. يلمس أناملها الرقيقة كقطرات من ندى رصعت بها زهور السوسن .. كانت عيناه تتألقان فى لمعان غريب بانتظار رؤية بزوغ ميلاد جديد.

* * * *

طرق أبواب الشـيوخ من وجهاء المدينة وكبارها وراح يرسلهم واحداً خلف الآخر إلى دار سـلمى باسـطا بـكل روية وتعقل كافة الأسـباب التى تجعل من زواجه بسالمين زواجا صالحا وكانت عباراته صادقة للحد الذى كان يلقى تقدير الشيوخ.

أما سـالمين فقـد اعتزلـت الدار وتوقفـت عن القيـام بأى من واجباتهـا لا تجيب أحداً الحديـث حتى أبوها تحاشـت لقاءه وعافت الطعـام فهزلت وانمحـت عيناها من البكاء. ومـع كل يوم يمر كان ونيـس يصبـح بعيد المنـال أكثر مـن ذى قبـل فأضافـت المدينة لشـائعاتها وأحاديث النسوة والرجال هوة يصعب اجتيازها. قالت

• لفاطمة فى

ذلة وانكسار» بقى محمد بورويه إن أبى يعتبره ابنه وهو أعز أصدقائه ورفيقه بالمسرح ساعدته أمى فى الزواج بمن يحب بعد أن كان يلاقى نفس الصعوبات التى نقابلها نحن توا سوف يساعدنا بإخلاص هو وزوجته هما شابان ويقدران على الفهم نبى الدكتور رفعت يروح إليه .. هذا هو ملجأنا الأخير.

* * * *

قال محمد بوراويه لونيس «اطمئن إذا لم يعطها لك بوها نعطيها لك أنا». وفى اليوم التالى رحل وزوجته إلى الأب وقال له أنت أستاذى وأنا نعتبر نفسى ابنك. ونعتبرك أبى ولقد عهدتك دوما متفتحا ما ترضى وما تقبل العلاقات القديمة المهترئة. والأمر مو محتاج للشرح والتبيان. أنت رجل من أهل الفكر والفكر لا يحيا إلا بالحرية.. سالمين أختى ومانا محتاجين للتأكيد على هكى.. فهل أخذت رأيها؟..

قال الأب وقد تجهم وجهه: ما انى فى حاجة إلى ذلك. أنا نعرف مصلحتها.. قال بوراويه فى مودة: ما أستطيع أصدق أن هذا الحديث منك ولو لم أسمعه بأذنى ما صدقته .. كنك تعرف مصلحتها ما ينفى أنك تعرف رأيها الشخصى.

- رأيها نعرفه.

أجاب بوراويه فى شك : واثق أنت؟

اكتفى الأب بالصمت. استطرد بوراويه : دعنا لا نتحدث عن الحب مثل هذا يثير الحساسيات رغم أنى مندهش: موقفك من زواجى كان غير هذا. أنت أنقذت زوجتى من الانهيار .. لكن ما هو الزواج؟ شاب يستطيع أن يقدم لابنتك حياة مادية كريمة.. مو تبى

لها شـابا علـى أخلاق عالية وسـمعة طيبة .. مو تبي لها إنسـان يحترمهـا وتحترمـه يقدرها وتقـدره ... وما نقول معجب بسـالمين وما تشـعر منه بالنفـور بعتقد هاذى رغبـة الأب والدين فـى الزواج الصحيح. هز الأب كتفه وعدل من موضع قدمه وهو يسـله: باهى وشنو المقصود من كلام المزوق هادا.

- تقدم لسـالمين طبيب مرمـوق من عائله طيبـة وثرية وعلى أخلاق يشـهد بها الجميع. وهو إنسـان منفتح عاش فـى أوروبا مدة طويلـة ولا يريـد من كل البـوادى والحضر غير بنتك. يبغى يسـافر ألمانيـا وياخوذهـا معه بيش يحصـل الدكتوراه فى طـب الجراحة.. هو اختـار بنية من أكمل بنـات غرناطة. فكان اختيـاره دليلا على معدنـه. واعذرنى إذا قلت إنه لـم يبحث عن المال. بل هو يبحث عن عيلة مترابطة كأسـرتنا وانا أراه إنساناً عظيماً له مستقبل باهر يستحق عليه أن تعطيه بنتنا .

- وأنا عطيت كلمة لأخى.

- وهذا بالـذات مو منطقى من كاتب ومفكر مثلك. الإنسـان يبنى السـجون ويبنى الحدائق. وأنـت الكاتب المفكر ما تبنى لبنتك سجن.

- انظـر لهذاكهاى نافذة. هى مغلقة ما تعرف شـنو خلفها. كذلك ينتى بينها وبين الحياة نافذة ما تدرى شنو وراها.. هى تعتقد إنهـا تعرف. فى الحقيقة هى ما تعـرف. ولهذا أنا أعطيها لين بيش يحميها. مو ولد يبى يلعب ويدير شغلات هكى ولا هكى.

* * * *

- 13 -

أتى الصباح على منشآت ومدرجات والأبنية الحديثة لجامعة الحاضرة الشرقية بطيئا يتلكأ الظهور وكأن به رغبة فى عدم المجيء. عاهرة تود لو تخفى حملها السفاح الذى زرعته فى رحمها أحذية العسكر الثقيلة.

كان للمطر طعم الحامض. وللرياح القادمة من البحر رائحة الزنخ. ولمئات الطلاب القادمين فى الصباح الباكر من منازلهم، تحملهم سياراتهم الخاصة وباصات الجامعة طعم الفاجعة. الصيحات المخصبة بالذكورة ينادى الشباب أسماء أصدقائهم. غابت هذا الصباح أمام الوجوه الغريبة، التى امتلأت بها أركان وممرات الجامعة من رجال الأمن السرى. تتحدى كعوب مسدساتهم المدلاة من خواصرهم وجوهاً فى مقتبل العمر، معلنة أن القمع والكبح والإخضاع هو المصير الوحيد لمن يبغى التمرد.

ولكن لماذا التمرد: عمليات القمع الوحشية التى ووجِهت بها نتائج انتخابات الاتحادات الطلابية. القسوة المتعمدة التى قام بها ضباط الصف أثناء عمليات التدريب الوهمية الطلاب الذين فرض عليهم الانضمام لمنظمات المقاومة الشعبية. رايات الحرية الحمراء التى تخفق فى صفوف الشباب عنوة لا تحتاج إلى دوافع أو أسباب.

الأعداد القليلة من الطلاب النشطين الذين تقدموا الصفوف،

معرضين أنفسهم للخطر، متخطين كافة الخطوط الحمراء التى تزعج البنية الفاشية لسلطة العسكر.

المنشورات السياسية التى امتلأت بها جامعات العاصمة والحاضرة الشرقية وكليات ومعاهد البادية والحضر والساحل تندد بالطابع اللا ديمقراطى للحكم، وتطالب بالحقوق الديمقراطية.

معلقات من أشعار الشلطامى والسنوسى الهونى داخل الحرم الجامعى يتغنون بالحرية، ويندّدون بالديكتاتورية العسكرية، وقمع الحرية، وخوذ العسكر والقبعات الحمر.

الأسباب المجتمعة التى تجعل من فرض طالب من العاصمة رئيسا لاتحاد طلاب جامعة الحاضرة الشرقية غير مقبول. إنه يطلق القوة التاريخية للعشائر، فى مواجهة السلطة العسكرية، فهل قدر للشرق أن يظل تحت إمرة العاصمة؟

وهل قدر للشاب الأنيق الحلو المعشر الهادئ الملامح، الحليق الشعر، الذى لا يتشبه بطبائع الهيبز والذى اختارته جموع الطلاب أن يكون ممثلهم فى الاتحاد فى مواجهة القادم من العاصمة والمفروض من قبل السلطة أن يجسد الدلالات الحصيفة للنهايات غير المتوقعة.

والطلاب يصعدون مدرجاتهم فى جدر الصمت والترقب، لا يفترق حالهم عن حال أساتذتهم الذين قطعوا شوطا طويلا فى التغنى بجمهورية البادية الوليدة، بين الأنواع غير المدرجة فى قواميس اللغة السياسية والعلوم التى يتعين تلقينها للطلبة الملتحقين بكلياتهم ليتخرجوا مهندسين ومحاسبين ومحامين وأطباء وكل ما تحتاجه الدولة الفتية والغنية من أبنائها الشباب لمستقبل زاهر حر.

إذا كنتم قد أعطيتمونا حق الانتخاب فلماذا لا تقبلون بالنتائج؟ نحن لا نكره الثورة.. نحن لا نرغب فى عودة الملك، نحن لا نعادى القائد

الزعيم العربى اللواء القائد ولا أعضاء مجلس قيادة الثورة.

لكن إذا منحتمونا حرية الاختيار فلماذا يرعد سماء الجامعة بطلقات الرصاص. لماذا يسيل الدم على المدرجات وفى أروقة المعامل. وفى الباحات التى يدرس فيها فلسفة أرسطو وارتقاء دارون. وحتمية نيوتن. ونسبية أينشتاين. وعقلانية ابن رشد. وجماليات الفن الحديث؟ لماذا يسير رجال تتدلى من خواصرهم مسدسات الفاشية.. من أنتم وماذا تخوفون تحت قبعاتكم العسكرية وأحذية الموت الثقيلة؟

.. حريتنا.. هذا ما كانوا يتغنون به. وهم منكبون على طاولات الدرس وكتب المراجعة عندما اخترق الصمت الحال فى طرقات الجامعة وفصول التعليم طلقات رصاص مسدسات الشرطة السرية.

الأعداد الغفيرة من الطلاب المجتمعة فى ساحات الجامعة. فى حوار ساخن حول الأحداث. لم تكن تتوقع ما توقعت حدوثه أن يتم فى الحقيقة. لكنه مثل فيلم خيالى سقط بينهم ثلاثة من قياداتهم بطلقات الرصاص. لتسيل الدماء على الطرقات الرخامية.

عندما انحنى الرفيق على رفيقه المخضبة دماغه بالدم. لم يكن يتوقع أن يده التى حملت رأسه ستتلون بلون الدم.. ها هى.. ها هى دماؤهم على أكفنا.. ها هى دماؤهم فى أعناقنا..

حمل جماهير الطلاب جثث رفاقهم الثلاثة المخضبة بالدماء. ليطوفوا قاعات الدرس. والغضب المروع يتصاعد بلا توقف. ليتحول إلى رياح عاصفة محملة بالكراهية. وفى أرجاء الجامعة طاردت جماعات الطلاب الغاضبة أفراد الشرطة السرية. ودارت معارك دامية فى أرجاء الجامعة. وفى الظهيرة أعلن طلاب جامعة الحاضرة الشرقية توقف الدراسة والإضراب العام.

* * * *

منذ ثلاث ليال وهم يطلبونه على التليفون. يحثون عائشة كى يحصل على أجازة من عمله ويسافر إليهم. عندما كان يستفسر عن الأسباب كانوا يمتنعون. فى البداية تعللوا بصباح. ثم أمه المتعبة. وكان صوتها لا ينم عن شىء. وقالت عائشة وهى تضحك ربما وجدوا لك عروسة. لهذا تجاهلهم منتظرا أن يقضى يوم النوبتجية الخاص به. الذى يعقبه يوم الراحة. فليس لديه فرصة للحصول على إجازة وهو فى أول تعيينه.

فى ذاك اليوم الشتوى البارد بلغ مشارف الحاضرة الشرقية فى العاشرة والنصف. اخترقها عبر الصابرى إلى شارع عمرو بن العاص. وبينما كان مستغرقا فى التفكير فى الكيفية التى سيتحاشى بها التعامل مع زوجة أخيه. التى وصف حالتها أخيرا بإنها تعانى من فوبيا الفراغ. وأعراض عميقة لهوس اكتئابى مركز ضده هو. فهى لا تستطيع مثل أى شخص فى العائلة مواجهة زوجها عمر. أما هو فسيكون الحائط المائل الذى يرتكن عليه الجميع. عادت ابتسامته الواسعة وهو يلاحظ أن الرياح تحمل له دمدمات غير واضحة. وأرتال السيارات تتكدس بشكل غير طبيعى. وعندما اضطر للوقوف تماما. سمع بوضوح صوت هتافات غاضبة قادمة من ميدان البلدية.

نحى السيارة جانبا وسار على الأقدام مخترقا الحشود. كان الدبيب يقترب. على ناصية شارع عمرو بن العاص شاهد الجموع الغاضبة لطلاب الجامعة يركضون فى كتلة واحدة بالخطوة السريعة. يدكون الأرض بكعوب أحذيتهم فتهتز تحت أقدامهم. وهم يلوحون بكتبهم ودفاترهم. يتقدمهم ثلاثة من زملائهم يحملون فى قسوة قمصان قتلاهم المخضبة بالدماء.

هتف يا لغبائى.. «حميدة».. عاد ركضا لسيارته. يحاول اختراق الشوارع الجانبية لشارع عمرو بن العاص. ليعود إلى لطريق الخارجية للوصول لحى العزيزة والقلق يداهمه على أخيه.

استقبلته النسوة والعجائز وهن يبكين أخاه الأصغر الذى كان متورطا بقوة فى الأحداث. صرخت أمه فى وجهه «كنك تدير فى غرناطة . خوك يا ونيس راح من أيدنا.. وأنا شنو أسوى بالحياة من غيره.. كبدى يا ولدى».

لم يجد ما يقوله كى يوضح كيف يمكن له أن يدرك الأمر. كيف يمكن أن يخمن ما لا يمكن توقعه. قالت ثريا «شنو نسوى التليفونات مراقبة». قال إنه يعرف أن التليفونات مراقبة لكنه أيضا ليس ضليعاً فى ضرب الرمال. صرخت صديقة: تبصر أنت وإحنا هنا وباتك. معدتنا تقلب علينا من خاطر خوك.

سألهم الهدوء لخاطر أخيه « ترى حد يقول لى ايش بيه خوى».

تدافعوا حوله يحكون. أمه قالت إن حميدة لم يعد منذ أسبوع. وعندما سألها أين هو. قالت صديقة يدور فى المشاكل. يهدر فى هرجات ح تضيع فيها روحه. ترى الشرطة السرية قتلت اليوم ثلاثة طلاب فى الجامعة.

امتقع وجه وهو يستمع لأبيه يتأتأ قائلا إن الحاج الفرجانى وناس كثير حتى على جمعة والمهدى عمران أجُم. يقولن حميدة متورط فى مشاكل سياسية. وهكى وتوا هو فى خطر واجد. باهى. أضافت ثريا أن على جمعة قال لها شنو يسوى حميدة هادا مو لعب عيال. هو ما يدرك أن هذا خطر على عمر. وقال صار لنا شهور إحنا ندير كيف ما ندير من شان نسوى مشاكل عمر. توا يطلع لنا حميدة. توا يضيع كل شيء. وعمر يخسر كل شيء ونصير نخسر معه كلنا ما فى حدا كسبان. قال لى أرسلى لونيس يجى من شان يدير له صرفة معاه. نحنا فى خطر.

لم يتوقع من سريا أن تستطيع تلاوة هذا التقرير الطويل عن مصالح عمر. والخطر الذى يتهدده بسبب حميدة. دمدم عاضبا أن

كل واحد يشيل راسه. واتجه للخارج منفعلا وهو يغمم.. المجنون هادكاهى شنو يظن نفسه عمر المختار.. توا نجيب فيه.. أوقفته ثريا وسألته أن ينتظرها دقائق. وقالت «أنا نجى معاك». دخلت المطبخ وخرجت تحمل له شطائر البيض والجبن الشيدر. وسألته أن يتناول إفطاره. وقفزت السلالم ونزلت ترتدى بنطال جينز وكنزة صوفية سوداء. وهى تجمع جدائل شعرها فى وشاح زهرى. حملت عنه بقية طعامه. ورحلا باتجاه ميدان البلدية..

فى الطريق كانت اللافتات السياسية على جانبى الطريق قد حطمت وطالتها الحرائق المتعمدة. ولطخت صور قادة مجلس قيادة الثورة. رغم ذلك كانت المدينة نظيفة لا تبدو عليها آثار الدمار. توقفا فى شارع جمال عبد الناصر. قرب ميدان الشجرة. كان الطرقات تهتز بانضمام طلبة المدارس الثانوية للمظاهرات. وقد رفعت اللافتات المنددة بقانون التجنيد الإجبارى. وسوء المعاملة التى يلقاها الطلاب فى معسكرات التجنيد.

للمرة الأولى فى تاريخ ثورة يجرى التنديد شعبيا بفرق المقاومة الشعبية. التى خلقت أسطورة مقاومة الشعوب المحتلة فى الشرق والغرب ضد الغزاة والمحتلين. كان جوهرها الانضمام الطوعى. ونظامها ديمقراطية الكفاح المسلح. والانضباط الطوعى. لكن لم تكن أبدا ذات طابع عقابى.. الآن تحولت إلى امتهان جسدى وتهشيم نفسى غير مفهوم. من اجتثاث الشعر الطويل. واحتقار الطابع الهيبى للشباب صغار السن. وتوقيع العقاب المكون من الحزمة التقليدية للعسكرية. من التمرينات الرياضية الشاقة والأعمال البدنية المتواصلة. والشد طوال أيام عديدة فى أرض الطابور وفى ظروف جوية سيئة. أمطار وصقيع وشمس من اللهيب. وجحيم من الإهانات المتكررة والزحف العقابى على رمال الصحراء الخشنة تحت زخات الرصاص. فى ظل معارك لا يعيها الشباب. معارك وهمية فقدت مضمونها لكثرة ترديد شعاراتها دون شيء ملموس.

وإنما هزائم متواصلة. وعزلة دولية متزايدة..

توقف ونيس وثريا أمام الطريق لميدان الشجرة المغلق بالمتاريس التى وضعها الطلاب المحتجون على قتل زملائهم. انحرفا يمينا جهة كلية طب الأسنان. ومنها توجها إلى شارع عمرو بن العاص. كان مغلقا هو الآخر بالمتاريس. تركا السيارة فى شارع القاهرة الجانبى. وترجلا باتجاه ميدان الشجرة. وأمام محل لبيع العدسات وقفا يتابعان الأحداث ويتفحصان المتظاهرين بحثا عن حميدة.

كانت المظاهرات المعززة بطلاب ثانوية يناير والحضر العامة قد توجهت إلى الحى التجارى وطافت به. ثم عادت إلى ميدان الشجرة. وهناك افترش الطلاب أرض الميدان. واحتلوا الساحة الواقعة أمام مبنى الاتحاد الاشتراكى. ومبنى المرور المركزى. ووقفوا على الأرصفة المجاورة. تتوسطهم أعداد ضئيلة من الطالبات.

على منافذ الطرقات المحيطة أشرف عدد من قيادات الطلاب وبينهم حميدة المعبأ بروح الغضب والرغبة فى الثأر. بسبب مصرع صديقه وشقيق صديقته زاهية. على وضع المتاريس أحضرت من بناية حديثة تحت الإنشاء. على كافة منافذ الطرقات الجانبية والرئيسة.

كان الهدوء سائداً فى الميدان. تقطعه صيحات البعض على القائمين بعمل المتاريس لاستكمالها. بينما وقف عدد من قادة المظاهرة يلقون الأشعار المنددة بالحكم العسكرى.

لم يستمر الهدوء طويلا. فقد أصر قائد سيارة بيجو بيضاء من طراز 404 أن يأخذ طريقه من شارع عمرو بن العاص إلى شارع جمال عبد الناصر مخترقا جموع المعتصمين على الإسفلت. راح الطلاب يجادلونه. لكن ضغط على دواسة البنزين فانطلقت السيارة تئز لمسافة قصيرة. كان يحاول أن يفسح لنفسه طريقا عبر فرجة فى المتاريس كاد أن يدهس أجساد الجالسين من الطلبة.

وكى يتفادهم مال جانبا بشدة كى يرتطم بإحدى اللافتات الجديدة ليهتز محرك السيارة ويصمت متوقفا.

اهتاجت الجموع، واندفع نحوه أعداد من الطلبة الغاضبين. دار الجدل لفترة بين الطلاب والسائق. والسيارة فى منتصف الميدان. عندما دخل نافذة السيارة جسد ضئيل الحجم. لطالب ينسدل شعره الهيبى حتى كتفه. وعاد مختطفا سماعة سوداء لهاتف لا سلكى. رفعها لأعلى يمتد وراءها سلكها الحلزونى الأسود داخل العربة. هاجت جماهير الطلاب ووقفوا جميعا والغليان الشديد يعصف بهم والرغبة المحمومة فى الثأر. إنها عربة تابعة للشرطة السرية. جذب الفتى السلك بشدة منتزعا الهاتف وصعد أعلى السيارة. رافعا الهاتف حتى يراه الجميع.

لم تمض لحظات حتى اندفع شاب ربعة قوى البنيان لينزل على زجاج السيارة الخلفى بقطعة من عرق خشبى جذبه من المبنى المجاور. تهشم الزجاج وتناثرت شظاياه فى الأرجاء. وخرج السائق مذعورا. ولم تمض لحظات حتى انهال سيل من قطع الحجارة على السيارة من جميع الجهات. لحظتها لمحت ثريا حميدة يحاول إنقاذ السائق من سيل الحجارة. أخبرت ونيس كان يقف بجوار الفتى الذى نزع الهاتف. يطالبان الجموع بالتوقف عن القذف بالحجارة. عندما توقف القذف نزلا من فوق السيارة. عندها تقدم شاب يافع رزين هادئ وكأن ثلاثتهم على اتفاق. وببرود شديد شرع ثلاثتهم فى إشعال النار فى الفرش والمحرك.

لقد خرجت الأمور من يده. لم يكن ونيس قادرا على التدخل لإحضار أخيه. وعلى الأسطح المجاورة. كان رجال الأمن يلتقطون صور الأحداث وصور قادتها.

تصاعد الدخان المحترق من داخل السيارة التى بدأت مقاعدها فى الاشتعال. وتراجع المتجمهرون بعيدا عن السيارة التى بدأت الاشتعال.

علـى حين بقى عدد من الطـلاب غير مبالين بالانفجـار المرتقب. حل الذعر بالمتجمهرين. جذب ونيس ثريا خلفه. بجانب نتوء لأحد الأبنية. فراحت تتابع الأحداث من فوق كتفه. وتصاعد الدخان لعنان السماء. وأشعل الطلاب الإطارات وقلوب النسوة التى تتابع الأحداث من النوافذ والشـرفات المحيطة. ترتعد خوفا عليهم من شدة قربهم من السيارة التى قد تنفجر بين لحظة وأخرى.

للحظة اقترب حميدة من المكان الذى وقف فيه أخوه. دون أن يدرى بوجوده. اندفع ونيس نحوه وامسك ساعده بقوة. جذبه إلى الخلف. وهو يصيح به أن يأتى معه للحوش من أجل أمه التى تبكيه منذ أسبوع.

صاح حميـدة وهو يحاول أن يخلص يده من يد أخيه. أن يتركه وشـأنه. وتجمهر الطلبة يحاولون تخليص زميلهـم. وقد ظنوا أنه فى مأزق مع رجال الأمن. واندفع حجر قوي ليصيب ونيس فى وجهه وأنفه. ترك أخاه وضم يده حول الدم النازف. والطلبة يبرحونه ضربا. انتبـه حميدة والتف هو وأصدقاؤه حول ونيس يحمونه. ولما لمح ثريا دفعه إليها وانفلـت بعيدا تتبعه زاهية. ودت ثريا لو تقول له تعال. لكنه كان اختفى.

* * * *

أخذت ثريا ونيس وهو يدمدم «التيس ما يبى يرجع». أمسـكت بسـاعده على كتفها ولفت ساعدها الأيسر على خصره. متجهة ناحية السـيارة. كان يخفى وجهـه ولا يرى شـيئا. أخذت تفتش باضطراب عن مفاتيح السـيارة فى جيبه حتى وجدتها. أجلسـته علـى المقعـد المجاور للسـائق. وأخرجت منديلها تمسـح به النزيف السـائل من جرح أعلى حاجبه الأيمن وأنفه. ولما يئسـت وبدا عليها الاضطراب والجزع. طلب منها أن تذهب به إلى صيدلية.

جلسـت وراء المقـود وقبل أن تتحـرك بالسـيارة دوى الفضاء

بانفجار هائل: كانت السيارة المحترقة قد انفجرت وانتشر الدخان في سماء الحاضرة الشرقية. تحركت بهلع باتجاه شارع جمال عبد الناصر. فوجئت بالطلاب يندفعون كالسيل الجارف في اتجاهها. لم تفهم . لكن من خلفهم ظهرت شاحنات الجيش المحملة بالجنود. وأمامها ظهرت السيارة المحترقة.

لمحت صفوف الجنود بعرض الشارع وهم يتقدمون باتجاهها. انحرفت عائدة لمكانها السابق. وقد حاصرها الطلاب المتظاهرون وهم يهاجمون الناقلات بالحجارة ويهتفون «بلادى .. بلادى » .

وقبل أن تفهم ثريا شيئا سمعت في سماء الحاضرة الشرقية طلقات الرصاص. فأصيبت بالرعب. وخيم على المدينة الفزع الذى سيتحول إلى حزن كئيب. عندما سقط عشرات القتلى والجرحى جثثاً ملقاة في الطرقات.

وأمام ثريا سقط شاب سورى مدرجاً بالدماء. كان ونيس على وشك الإغماء. دارت حول نفسها وهي تخشى أن يخترق الرصاص أو الحجارة السيارة. بدا أنها وقعت في مصيدة. عندما فتح ونيس عينه رأى الجنود قادمين في مرآة السيارة. همس بصوت ضعيف أن تسرع كي لا يمسكوا بهما.

كان المتظاهرون يطاردهم الجنود. يندفعون للشوارع الجانبية. ويهربون ثم يعاودون التجمع من جديد. استدارت في خوف وعلى عجل . ودار المقود بين يديها في الاتجاه المعاكس لشارع عمرو بن العاص. وانثنت السيارة البيان فيو تحت قدميها. وارتفع صرير عجلاتها فوق الإسفلت. فتراجع الجنود للوراء. ولمسافة ثلاثمائة متر خالتها دهرا تمكنت من بلوغ بداية الشارع حيث اخترقت مجموعة من الشوارع الجانبية. لتصل شارع جمال عبد الناصر قريبا من متجر الألعاب. وقد خلفت وراءها منطقة مليئة بالاضطرابات. دارت حول المدينة حتى تمكنت من الوصول إلى مستشفى الجلاء الذى

غص بأهالى الجرحى والمصابين، وتدافعت حولها سيارات الإسعاف تطلق صفارات الإنذارات.

وسط الفوضى السائدة لمحهما أحد الأطباء من أصدقاء ونيس، أدخله إحدى حجرات عيادات الاستقبال، حيث قام على إسعافه وتضميد جرحه، ووضع ساعده فى جبيرة، وطلب منها أن تأخذه لأقرب صيدلية وتعطيه حقنة مضادة للتسمم.

عادا إلى الفيلا فى العاشرة مساء، وقد بلغ التوتر بالجميع مداه، والمرأتان تلومان أنفسهما لأنهما استدعيتاه من غرناطة، وكل منهما تتمنى لو بقى ولم يأتو، ثم يتوجهان لثريا يسألانها عن حميدة فتعيد روايتها للمرة الألف.

عندما عادت به من المستشفى، أخذوه إلى غرفة نومه القديمة بالطابق العلوى، وبينما كان الجميع مشغول تماما على حميدة الهارب دون أن يعرف أحد أين؟ والمطلوب من قبل الشرطة السرية لتسليم نفسه، ليودع مع زملائه المقبوض عليهم فى سجن الكوفة، كانت ثريا تدور حول نفسها تتحين الفرصة للذهاب إلى غرفة نومه، والتطلع إليه ممددا على الفراش، تقف على مبعدة تحدق به دون أن توقظه، وإذا استيقظ كانت تنهمك فى تلبية احتياجاته وخدمته وتقديم أنواع الطعام والفاكهة، ثم تعكف بانتظام على تضميد جراحه، لقد تركوا لها العناية به، وقد تولتها تماما. كان يختمر بذهنها خاطر سرعان ما أصبحت مهووسة به، أن تلمسه: لقد التصقا بسهولة أيام المظاهرات وأمسك بيدها، فشعرت بموجات من السخونة لم تشعر بها من قبل.

وبينما كان رجال على أهمية عالية، أثرياء وموظفون كبار، وضباط قريبون من السلطة يدخلون ويخرجون وهم يذكرون أسماء شخصيات هامة للتوسط فى الحصول على الأمان لحميدة، وخصوصا أن يقينا لدى أمه أن حميدة مقبوض عليه ومودع فى

مكان سرى. بقيت ثريا تعانى من قسوة الرغبة فى اللمس. وخز بارح يعصف بفخذيها وصدرها وألم بارح فى البطن. أحاسيس جامحة. ومشاعر جديدة تعصف بالمرأة البدوية الشابة. بينما يتبادل العسكر والطلاب فى طرقات وشوارع مدينة الحضر إطلاق الرصاص المحمل بالموت فيجيب الطلاب بقذف الجنود بقطع الجيلاتين الديناميتية. فينتشر الموت بين الجميع جنوداً وطلاباً. عنف مكبوت. لا يدرى كيف يجد طريقه للعالم الظاهرى. بينما ثريا وهى تقترب منه لسنتيمترات ثم تتراجع. لتعود لتختلق عشرات الأعذار كى تقترب أكثر. لكنها لم تستطع عبور تلك المسافة. كأن هناك جداراً من الصلب يفصل بينهما. وعندما يحل الليل تسقط مهزومة منهكة صريعة فشلها. وسط أحلام مفزعة وكوابيس مخيفة لرغبات مدفونة فى ماضى سحيق.

فى تلك الظهيرة التى بلغهم فيها بمكان يشتبه فيه اختفاء حميدة. خلى المنزل من سواهما. وجاءت أختها خيرية لتجد باب الفيلا مفتوحا. ظلت تجوس وحيدة حتى وجدتهما بالطابق العلوى. ثريا تقف مولية ظهرها للباب تنظر ونيس النائم . وقفت خيرية أكثر من خمس دقائق تنظر المشهد الذى بدا أنه قد يستمر حتى يستيقظ. عندما شعرت بوجودها أسرعت تتشاغل بتنظيف الغرفة. وقام ونيس خارجا. لمح خيرية فحياها. وتابعته وهو ينزل الطابق السفلى. حاملا ذراعه فى جبيرة. وما إن اختفى حتى أطلقت خيرية ضحكة طويلة مطوطة تحمل كل معانى السخرية والاتهام. جفلت ثريا للمفاجأة وخيرية تغلق الباب عليهما فى تواطؤ: يا سعدك يا هناكى.. المسكين حايس فى أوروبا. وأخوه بالسجن. وأنتى بتدهورى هون.. «أخصى» ... قالتها بصوت مطوط. همست ثريا: شنو بيكى؟

- مانى نقصد شى.. حتى أنت يشهد ربى مسكينة.. زوجك ما يكفيه يدهور فى نسوان أوروبا راح يدهور فى المصريات القحاب..

وانتى تدهورى مع إخيه.. يا ويلى منك يا ويلى.

قالــت ثريــا والألفاظ تتوالــد بعصبية وغضب: وجهك أســود كيف قلبك. أنا شــريفة وزوجى شــريف. ليش هكــى وأنا ما سويت لكى شى بُكّل .

- المسكينة زوجها شريف. وكل اقحاب الحضر تعرفه.

- وأيش يخصك فيه؟

- أنا ما يخصنى شي بُكّلْ. أنا يخصنى مصلحتك. لما تتدهورى تبى تقفلى الباب عليكى بيش ما تجيبى فضيحة لباتك.

هتفــت وصدرها يختنــق وهى تخفض صوتهــا إنها لم تفعل شيئاً. عقبت خيرية إنها تقول ما سوف يقوله أى واحد يرى ما رأته منذ قليل. فســوف يسألك شنو تســوى فى غرفة اشكابلى نائم وزوجــك مو هون؟ قالت ثريا أنها تســوى الفراش. فضحكت خيرية بسخرية وقامت وهى تحذرها من العبث راحلة.

عندما اختفت تحاملت ثريا على نفســها بصعوبة حتى بلغت غرفة نومها حيث ســقطت على الفــراش ووجهها مخضب بزرقة قانيــة. ورغبة عارمة فــى الصراخ لا تقدر علــى تحريرها من صدرها توشك أن تفتك به.

وطوال أســبوع بقيت المظاهرات على حالهــا. وتبادل الرصاص وقذائــف الديناميت يتــرك القتلــى والمصابين بالعشــرات. وطلبة مدرستى الحضر الثانوية وشهداء يناير فى الشــوارع يحضون طلبة المدارس الأخرى على الإضراب عن الدراسة. وينطلقون فى مسيرات عبر شوارع المدينة. تطاردهم جماعات الجنود. ولا يمضى وقت طويل حتى يتبادلوا القذف بالحجارة . فإذا أطلق العســكر الرصاص عادت قطع الجيلاتين تفجر الغضب.

وأمام مدرستى الحضر وشهداء يناير الثانوية دارت معارك عنيفة بين الطلبة وجنود الجيش. شىء ما كان منتقصا. شىء ما كان يجب أن يقدم ضحية على مذبح الديكتاتورية. رسالة ما كانت الصدور تبحث عن طريقة ما كى تبلغ هدفها.

كان أول ما فعله ونيس هو استباق الشرطة السرية فى تنظيف حجرة أخيه من أى ممنوعات سياسية. ومنذ البداية تبين أنه متورط لأخمص قدميه فى الصراع الدائر بالجامعة بين انتخابات الاتحادات الطلابية. والحقوق الديمقراطية. وفى مكتبه وجدت أكداس من المنشورات والمطبوعات المناهضة للحكم العسكرى. والمطالبة بحرية تكوين الأحزاب. وإذا كانت الثورة تهتم بالقضايا العربية. فإنه ينبغى أن تكون هناك رقابة على الهذر والسفه الذى توزع به الثروة النفطية القومية على الأحلام الإمبراطورية.

.. هل هذا أخوه الصغير الذى لم يخرج لرعى الأغنام فى القبة إلا عقب سفره لألمانيا.. ما الذى جرى.. وما دوافعه حتى يوقع نفسه فى هذا النوع الخطر من المشاكل.. تذكر أيامهم معا فى القبة وحميدة لم يتجاوز الثانية عشرة. وهو يحلو له القول «أنا حميدة» جئت فى مهمة. أعدل لأمى ضد أبى. ولولاى لكانت لزوجة أبى ولدان هما عمر وناصر. ولكانت لأمى ولد واحد فقط هو ونيس.. أنا إذن رمانة الميزان فى هذا الحوش. ولم يكن يلقى سوى السخرية من الجميع. ها هو يشق طريقا مخالفا لأخيه الأكبر عمر.. وكأنه يعلن عن غضبه وسخطه.. لكن..

وفى مكتبة أخيه لم يجد كتباً تنتمى للفكر الشيوعى. وهو ما أشعره بقليل من الراحة جمع كتب الثورة الفرنسية المكتوبة بالإنجليزية: العقد الاجتماعى لروسو وروح القوانين مونتيسكيو ورسالة فى التسامح لجان لوك. لكنه وجد أيضا مطبوعات عن الثورة الفيتنامية . وكتب حرب العصابات لجيفارا. جمعها جميعا

وهو يرتجف. وقبل أن يغامر بإشعال النار فيها. قرر فجأة أن يحتفظ له بها. حميدة الأخ الأصغر الشقيق له هو ونيس بوزوى «رمانة الميزان»..

فى اليوم السابع تحركت جماهير الطلاب الغفيرة وقد ضمت كل الغاضبين من طلبة جامعة الحاضرة الشرقية ومدارسها الثانوية. هذه المرة كانت تعرف طريقها. فهناك بعد أن عبرت ميدان الشجرة. توقفت المظاهرة فى ساحة البلدية أمام مبنى المرور المركزى ومبنى الاتحاد الاشتراكى. حيث تجاهلوا الأول. واقتحموا الثانى. ولم تمض ثلاث ساعات حتى جرى تدميره بالكامل. ولما انتهوا. أشرف حميدة على جمع أثاث الطابق السفلى. وقام بنفسه بقيادة المجموعة التى تولت إضرام النيران بداية من أساسه. ومنها انتقلت النيران إلى المبنى الذى يمثل عقيدة الثورة وأيديولوجيتها.

لقد بدأت المظاهرات بقتل ثلاثة من الطلاب. واحتراق سيارة بيجو بيضاء 404 للشرطة السرية. قتل أثناءها الكثير. وانتهت باشعال النيران فى مبنى الاتحاد الاشتراكى. والانتقام بأحكام الإعدام. فقط كان الإعدام مؤجلاً.

* * * *

بعد يومين من إشعال النار فى مبنى الاتحاد الاشتراكى. وقبل أن تغادر صديقة باب مدرستها فوجئت بفتاة ترتدى الزى المدرسى ونظارات سوداء تمسك بساعدها . لم تكن رأتها من قبل. همست أنا زاهية صاحبة حميدة خوك. سألتها وهى ترتجف عن مكانه وماذا تريد؟ قالت إن عليها أن تتماسكى وأن تبدو طبيعية فهما مراقبتان. سألتها عن ما تريده. همست معاى رسالة من حميدة لخوك ونيس: خوذينى لونيس.

سألتها أن تأخذ الرسالة له. لكن زاهية قبضت على ساعدها ودفعتها للسير إلى الأمام قدما وهى تهمس« ابتسمى ما تكشرى».

وطـوال الـطـريق وصديقة ترتعد. وعندما عبـرت مـدخلاً لبـاب البهو الخارجي سـقطت وهي تشـهق وتشير إليها باسـم أخوها الهارب.

لم تكن هناك رسـالة بالمعنى المعـروف. قالت حميدة قالي قابلي ونيس ومو حدا غير ونيس. لا عمر ولا باتي. واسأليه شنو يبي مني أفعل.

قال مندهشا «ما أفهم عليكن». قالت يسألك تبيه يسلم نفسه أو يهرب؟ قال طبعا يسلم نفسه. قالت تعرف شنو سوى خوك.

- شنو سوى.؟ قتل ضابط.. جندي.. شنو سوى حميدة؟

- هو اللي حرق بذاته مبنى الاتحاد الاشتراكي.

رفع رأسه وتراجع للخلف. وقال بصوت صارم «يهرب لحين ما يجي عمر». وأضاف بلوعة «أنا نهربه. هذا خوي أنا».

أمضت الأسرة الليلة بأكملها في مناقشة ما يتعين عمله. كان الأب يرى أن على ابنه تسليم نفسه تعبيراً عن حسن النوايا. وأن يصحب ذلك طلب المغفرة والصفح. هكذا فعل هو مع الملك. وهكذا نجح واستطاع البقاء. ولو لم يفعل لكان ألقي من طائرة أو انقلبت به الشاحنة. فالسلطة لدى أبناء العرب لا تعرف أعداءها سوى قتلى. واقترح أنه يستطيع أن يذهب به بنفسه. أو يصطحب شيخ قبليتهم الزواوية. وأضاف أنه يمكن الاستعانة بزوج ابنته عائشة النقيب مفتاح الشهيبي.

وذهبت اقتراحاته هباء. كان ونيس يعلم أن ما فعله حميدة لن يغتفر. وأن الوحيد القادر على حل هذه المشكلة هو عمر. لكن عمر نفسه بالخارج. وتدور حوله الشبهات. لكن بقي يقين أنه قادر على إيجاد حل. لابد من هروبه. وأن عليه مغادرة مدينة الحضر قبل شروق الصباح. ويستقر مؤقتا في القبة لحين توفير ملجأ آمن.

* * * *

بعـــد أذان العصر بقليل خرجت تحت المطر فى تتابع السـيارات الأربعــة التى يملكهــا آل بوزوى منطلقة مــن العزيزية. فى اتجاهات مختلفــة. حيث جرى تفتيشــها بدقــة. وعندما عبرت السـيارات الأربعة نقطة المرور الرئيســية على الطريق الســاحلى. والتى جرى تفتيشها مرة ثانية. كان حميدة يدور سيرا على الأقدام كما يفعل المتسللون المصريون هربا من كمائن الشرطة. بصحبة زاهية حيث اسـتطاع عبور تلك الكمائن فى السادسة مساء بمساعدتها. إلى حيث كانوا ينتظرونه. اسـتقبلوه بلهفة ورعب. وقدا بدا غير ما هو حمية الابن الأصغر للحاج مفتاح بوزوى. الآن بلحيته السوداء التى غطت وجهه. قال شـنو. صار لى أخ اسـمه أرنستو تشى جيفارا؟ هـذا ما قاله ونيس وهـو ينهار على صدر أخيــه الأصغر بين البكاء وضحكته الشهير بها. ضحك حميدة. وقال هذا كتير واجد بعد أنا ما فعلت شيء. تبادلوا ضمه بشوق. تقاسموه بين أحضانهم. كان الابن المنسى فصار الضمير المورق بإشراق شمس الحرية.

أمــه بكت بكاءً مراً. زوجة أبيه بكته أكثر. ثريا اكتفت بالدموع فــى عينيها. صديقــة التى تماســكت واكتفت بابتسـامة الفخر بكونهــا أختــه انهارت بعــد رحيلــه. كان يبدو فى لحيتــه الداكنة، وشعره الأسود الغزير قديساً مقاتلاً. شعروا به وقد استطال فجأة وعندما قال ونيس عليش طولت هكى. قال الأب هادول أبناء مفتاح بوزوى كلهم طوال كيف النخيل..

كان يضحك بينهم مثل طفل سـعيد. وبعد أن ودعوه جميعا أمــه وأبوه وزوجــة أبيه التى أصرت على الحضــور لتوديعه وصديقة وثريــا وقبــل أن يرحلوا شــاهدوه ينتحى جانبا بزاهيــة. وعلى قارعة الطريق السـاحلية وقف الاثنان كلاهمــا يعانق الآخر بعينيه بكفه بمشــاعره. يهمســان مثل مناقير عصافير الزرزار. بينما بدأت حبات المطر فى الهطول.

وأمامهمــا وقفــت العائلــة مشــدوهة. هناك عاشــقان. كان

يهمس لها فهما أنه ينشـــدها شـــعرا. رغم كونه يهمس إلا أنهم تبينوا جيدا كلماته..

.. هذا مساء البهيات فلتركضى يا جيادَ الدماءْ..
.. كل المدائن مفتوحة كى تغوصى إلى العمقِ..
.. أو تحبلى زهرَ التفجرِّ..

* * * *

.. وأنت الهوى يملأ القلب..
.. والقمح يحمل جذر التحول..
.. من يعرف الحب هذا المساءْ..
.. لن يتراجع فى المحن القادمةْ..
.. وأنتِ معاناة جيل تخيرً..
.. أن يمتطى الحزنَ والموتَ..
.. من أجل أن يورق الحبَ فى راحتيك..
.. فلا تجزعى إن تاخرت ذات مساء..
.. فما كل من يقتلونه سيغدو ترابا..
.. وما كل ما تاكل النار سيغدو رمادا..
.. لا تجزعى إن تاخرت ذات مساء..
.. ففى العمق أفراس بحر وأسماك قرش ..
.. ولكن دغدغة الموج للرملِ فى خاطرىً ..
.. مدن تزدهر..

كانت تبكى، وكان يبتســم. دفع ونيس صديقة نحوهما برفق. فتقدمت وجلة تحيط زاهية بساعديها فاستسلمت لها وانفجرت بالبكاء. وأســرع هو يفتح لها باب السيارة فثمة سيارات للشرطة تعبر المكان. ورحلت صديقة وأمها وأبوها وبصحبتهم زاهية. بينما توجهت ثريـا ومعها أمه إلى القبة عبر الطريق الرئيســية. وركب

حميدة بجوار ونيس وقد تخلى عن الطريق الرئيسية ونزل الطريق الرومانية القديمة، الموازية للساحل، فبلغوا البوادى في العاشرة والنصف متسربلين بالليل، حيث وجد أمه في انتظاره على مشارف مدينة القبة في سيارة لاند كروزر يابانية، ومعها أبناء أخيها. انتقل حميدة على عجل إلى السيارة التي صممت من أجل الغوص في مجاهل الصحراء، ولم يبقو طويلا وبعد وداع حار سريع رحل مع أبناء خؤولته، وعندما غابت السيارة اللاند كروزر في الظلام ميممة شطر صحراء البادية، كانت عينا ونيس مغرورقتين بالدموع، والمرأتان تبكيانه بمرارة. حمل ونيس أمه للمقعد الأمامى وهو يهدئها، وفكر كجنتلمان أن عليه أن يهدئ ثريا أيضا حتى تتمكن من القيادة وحدها على الطريق الخطرة، وبتلقائية ودون أن يدرك ما يفعله، والنتائج التي ستترتب على خطأ تراجيدى من مخرج العرض، ضمها إلى صدره، يهدئ من روعها ويربت على شعرها، فاستكانت من فورها تستمع إليه بالموافقة وهو يسألها أن تستعين بقوتها حتى تتمكن من العودة بالعجوز سالمتين.

لكن العناق الذى استمر دقائق طويلة، كان بين جسدين شابين في مأزق عاطفي، لهذا تركت نهديها ينامان على صدره العريض، وكان ساعده يلتف حول خصرها، والآخر يعبر بكفه العريض جيئة وذهابا صفحة ظهرها العريض المشوق . شعرت بصحرائها التي يقتلها الجفاف ترويها أمطار غزيرة، لكنها للغرابة تشعل الحرائق في هشيمها الذى لم يعرف الطريق إلى الرغبة والعشق والانتشاء، وقد بدأ ينتبه للحالة التي تحدث أمامه، فنهداها بدوا وأنهما وجدا عشهما أخيرا بعد طول ترحال، قبلها من جبينها، ثم فعل غلطته الثانية عندما قبلها من وجنتيها، وهو يضعها على الكرسى خلف المقود، جففت دموعها، وساعدها على ذلك حتى هدأت جيدا، وعندما بدا أنها جمعت أشلاءها وشرعت في الرحيل، تركته وتركت معه نظرة طويلة محملة بالشزر من العواصف

والرياح على سطح بحر هائج مضطرم.

* * * *

عندما اتخذ ونيس طريقه إلى غرناطة حل بالمرأة البدوية التى تحولت على حين غرة من وعيها البدوى البدائى بالأشياء، لامرأة برجوازية تعانى السأم العاطفى ومرض الكآبة، وهو الاختراع البرجوازى بامتياز. وبدت مثل لبوة تجوس فى قفص لا تراه. وروحها الضائعة لا تجد مستقرا لا لدى زوجها المشغول عنها بأعماله وطموحاته وفضائحه النسائية، ولا لدى ابنتها الصغيرة. وقد تحول جسدها الفتى إلى جواد جامح فقد بصره وغشيته غمامة البرودة الجنسية. فراح يدفعها إلى مسارب شتى، عمياء تسير فى النور، مبصرة تتخبط فى الظلام دون أن يتمكن عقلها الواعى من تلمس المسارب الجانبية التى تأخذها أخيراً إليه.

كراهية الليل إذن، الضجر من النوم وحيدة فى فراش وثير ذو رياش فاخر، كان يوما فى زمن مضى مثار غبطة وزهو ودافع للغرور أمام الأخريات. أما الأيام فتتساقط كأوراق خريف جافة ذابلة، الجسد لموتى يعيش بين الأحياء.

* * * *

- 14 -

فى ذات الليلة التى عاد فيها عمر من العاصمة. وكان قادما من القاهــرة وبعد أن حضر حفلة عرابة اللواء (م). حيث كان عليه أولا أن ينقل الأخبار التى جاء بها من مصر حول المخططات السياســية والعســكرية التى يضمرها الســادات للبلاد. وبينما هو فى طريقه إلــى المطار مال عليه أحد الرجال المقربين من كليهما. وقال إن هرب حميدة من الشــرطة السرية الآن يضر ضررا شديدا بأعماله. فقال دون أن يــدرك بالضبط التهمة المتورط بها. مــن أيش يهرب؟ توا أنا حين ما نصل الحضر نسلمه.

وقبل أن يغادر مطــار العاصمة دعى ونيس ليقابله فى حاضرة الشرق. ومن المطار لم يذهب إلى منزله بل توجه إلى مكتبه الجديد فى شارع جمال عبد الناصر حيث كان المهندس زكى المهداوي.

وبينمــا كان عامل البوفيه المصرى يصنــع لهما القهوة. فتح عمر علــى مكتبــه مجموعة ضخمة من الرســومات الإنشــائية والمعماريــة على درجة عالية من الدقــة والتفاصيل والتى صممها مكتب استشارى إنجليزى.

عندما وصل ونيس استدعاه وطلب منه أن يشاركهما. فوقف يحــدق فى الخرائط ويســتمع إلى الحوار الدائر بــين أخيه والمهندس المصري. الذى جلس قبالة عمر وهو منبهر بدقتها. معتذرا عن رداءة

الرســومات التـى يقـوم بهـا فـى الأشــغال العـسكرية لصالح جيش البادية متعللا بضخامة الأعمال والمسؤوليات التى يقوم بها. وندرة المهندسين والرسامين بالمديرية. وأشار إلى الرسومات موضحا موقع قاعة السينما أو الاحتفالات وقاعة الجمانزيوم. والمبنى الرئيسى الذى يحتوى على قسـم الجراحة ومعامل التحاليـل والعلاج الطبيعي. وأشار إلى الجزء الخاص بحجرات المرضى الذى يتسع لمائتى سرير. من الممكن زيادتها إلى ثلاثمائة وأشـار إلـى موقع الإدارة. عندها أوقفه عمر. وأشـار إلـى ونيس موضحا أن هذه هـى حجرته. أجاب ونيس مندهشا «حجرتى !!»

أجاب مؤكدا: نعم وأضاف وكل هذه المنطقة حدائق وقد ننشئ مرفا صغيـرا للقوارب البخاريـة على النيل. هكـى تبلغ التكاليف الكلية عشرة ملايين دينار. واستدار إلى المهندس زكى قائلا تستطيع أن تأخذ الرسوم معك إلى المنزل لدراستها وتجيئنى بتفاصيل كاملة غدا العصر. وأضاف مهددا .. لن أقبل بأن يخدعنى أحد.

طـوى المهندس المصرى الذى يعمل بالجيش جسـده فى خنوع. وابتسـامة بلهاء. وهو يجمع الخرائط . وخرج يسـلم على عمر فى حرارة. وهو يمنى نفسه بسبوبة ضخمة.

خوت الحجرة على عمر وونيس الذى شعر بأن أخاه يحمل شيئاً خاصـاً له. فى البداية ظنه سـيكون تعنيفا بسـبب عدم انتباهه لتورط حميدة. لكن عمر كان منهكا منشغلا فى أوراقه. ولم يلبث أن خيم الصمت على الأخوين الشـابين اللذين جلسـا كل منهما أمـام الآخر. ولم يلبـث أن قال ونيس ضاحكا وهـو يلفت أخوه إلى وجوده: ها .. شنو تبى؟

التفت إليه عمر وقال: سامحنى يا أخى. وأشار إلى الباب يعنى الرسوم التى حملها المهندس المصرى. استطرد يتحدث عن مشروع المستشـفى الذى سـيقيمه بمصـر بتكاليف تتجـاوز الملايين من الدينارات. وسأله بغتة إذا كان بستطيع تحمل مسئوليته. تساءل

ونيس بدهشة عن أية مسئولية يتحدث؟

- الطبية والإدارية.

- بالطبع لا.

صاح عمر به مؤنبا أنه بهذا يكون ليس بطبيب وليس بوطنى ولا ببدوى حقيقى. وأنه لم يوافق على هذا المشروع إلا اعتمادا عليه. قال ونيس إنه يريد منه الذهاب إلى مصر وعليه أن يقبل هكذا وبسهولة. ثم لمن تبنى مستشفى تحوى مائتى سرير بملايين الدينارات للفقراء المصريين أم للصليب الأحمر. ألا تعتقد أنك تغامر؟

ابتسم عمر سعيدا منتشيا بوقع المفاجأة على أخيه. وما بدا له حرصا منه على ماله وقال وهو يشرح فى اهتمام تقديرا له: إن المشروع موجه لأثريا الشرق الأوسط .. الخليجيون والسعوديون وللأثرياء بالبلاد العربية التى تفضل القاهرة عن أوروبا. الجانب المصرى يرى فيه تنشيطاً للسياحة الطبية العربية والأفريقية. خاصة أن الأطباء المصريين على درجة عالية من الكفاءة ويحملون سمعة عالية.. الأرباح عالية وباستطاعتنا أن نستقدم أطباء أوربيين عند الحاجة.

قال محذرا إن سمعة المصريين الطبية صارت محل شك كبير. وإذا كان الأمر كذلك فما نفعى انا.

أجابه فى هدوء كيف لا يفهم ما نفعه. فهو فى حاجة إلى من يمثله بمجلس الإدارة وهو لا يستطيع أن يتفرغ لذلك. على حين أنه طبيب سيأتمنه شخصيا على المشروع. ولو أعطيت المشروع فكرك وجهدك سيصبح شراكه بيننا.

قال ونيس متعجبا من أفكار أخيه أن يكون المشروع شركة بيننا فهذا هراء. وعمر بوزوى لن يعجز عن أن يجد من ينوب عنه فى أعماله - ضحك عمر - واستطرد ونيس من الناحية الطبية لم يمر عام على تخرجي. ومن الصعب أن أكون مديراً على أطباء يدرسون

فـي الجامعات المصرية أنت تجعـل منى مثار سـخرية. وبالتالى لن أستطيع لك شيئا .. ثم إننى لا أنوى الرحيل عن بلادى .

- باهى أنت تستكمل دراساتك العليا خلال السنوات القادمة. لحين الانتهاء من المشروع هكى تكون لديك الأهلية التى تريدها.

- أنا أقول لك ما عندى مال، وأنت تقول لى أعطيك مال، وأنا مو فى نيتى أن أبيع لك.

صاح عمر: شـوى شوى.. ريح نفسك لشنو أنت مشدود هكى على طول. ليش كل هذه الفلسفة. فكر وبعدين رد على.

وافق ونيس على مضض. سأله عمر: امتى ترحل غرناطة.

- بعد باكر .

- زوج أختك النقيب مفتاح الشـهيبى أخبرنى بأنه سيقضى هو وأختك وأطفاله أسـبوعين فى قريـة الخيمة بمصيف الضباط . قال لى أروح أنا وثريا معاه وأنا ما عندى وقت بُكّل . وصباح تبى تروح مع خالتها. خوذهم معاك.

حـاول ونيـس الهروب دون جـدوى. فعندما رفض تسـاءل عمر محتدا إذا كان عليه أن يحضر رجلا من الشـارع ليأخذهما. ثم قال بود أنـه لا مجال للرفض. عليه أن يأخذهما كيفما يكون أضاف«لا تجعلنى أشعر أنك تتخلى عن أخيك».

قـال ونيس فى استسـلام: ماذا أفعل .. سـأذهب بس بشـرط طلعنى من دماغك نهائـى. اتركنى فى حالى. الله يرضى عليكى.. اتركنى فى حالى..

- كيف ما تبغى. كان بدى مصلحتك.. أنا نسافر مصر بروحى.

وفى السيارة سأله عمر شنو بيه حميدة. أكو مشاكل؟

نظر ونيس عمر فاتحا فاه على سـعته. وهتف توا .. توا تسـأل عن أخوك؟

* * * *

بعد أن تجاهل ونيس عرض أخيه سـواء بالمشـاركة أو الاكتفاء بإدارة مشروع المستشفى السياحي. ولم يستجب لإلحاحه المتواصل بالعودة للقائه. اضطر عمر للسـفر إلي القاهرة لحضور وضع حجر الأساس للمستشـفى. ثمة مشـاكل تعيق أعمال الافتتاح. حلق الرجال المهمـون حول أجهـزة الهاتف. وعبقت الصالة الواسـعة الأرجـاء ذات الرياش الفاخر بدخان كثيف. وامتلأت المنافض بأعقاب السـجائر ورماد الغليون الذي يسـتعمله بعضهم. ورصت كؤوس الويسـكي على الموائد الصغيرة المتناثرة. والكل في حديث وصياح. في حين بقى عمر صامتا وقد ران عليه تفكير عميق.

في غرفة جانبية ملحقة على الصالة دعت مدام تحسـين عمر ليبقى جوار زوجها. جلس يتابع حديث محمود بك راغب الذي تحول مـن «جنتلمان» إلي آمر ناه تطل من وجهـه عينان ذئبيتان. يحدث ضابط شـرطة برتبة عقيـد بلهجة غاضبة: فيه قانون يا سـيادة اللواء. شـاهده يرفـع مجموعة من الأوراق والمسـتندات الموضوعة أمامه ويطرق الطاولة بها وهو يصيح بأعلى صوته: فيه أمر قضائي بهدم وإزالة الدور المقامة على الأرض. عندك أنت شـخصيا نسخة منه. ومش قادر تنفذه من سنة كاملة. واستطرد بعصبية في صوت بطيء: أنت مشترك بواحد من أكبر الأندية. الزمالك على ما أعتقد. وافق العقيد ممتقع الوجه بإيماءة من رأسـه. وأسـتطرد ابن الباشا السـابق والنائب الحالي.. وتذهب إلي الأندية الليلية دون امرأتك كي تعربد مع الشـراميط. ونسمح لك بامتلاك سيارات أجرة بالقسط تطلقها في شـوارع القاهرة بحثا عن حسـنة. فتكسر كل قوانين المـرور وكمان تبني عمارة مخالفة. تأخـذ ثمنها خلوات في جيبك. وتشتري عزبة صغيرة كي تقضي والأولاد عطلة نهاية الأسبوع. ولو والله أعلـم أخذت إتاوات من تجار المخدرات والعاهرات غضينا الطرف واعتبرناهـا هفوة لا تسـتحق .. هـه .. ونفتح لك قصورنـا تزورها. ونسـمح لأطفالك تختلـط بأطفالنا كي تكتسـب تهذيبا وتزداد

رقيــا. وأنت والمدام تدوروا على الحفــلات. وراك بنتك المتخصصة فى اســتعارة الملابس الباهظة الثمن. عشـــان تختار لها عريس لقطة. شـــوف إحنا بنعمــل إيه؟ وأنت بتعمــل إيه! كل هدفنـــا تنام هادئ مطمئن البال. عشـــان تتفرغ لحماية القانـــون. لتنفيذه. وأنت بقى لك سنة ومعاك قانون صادر من أعلى السلطات القضائية. بموجب قوانين أصدرتها الســلطة التشــريعية الأولى في البــلاد. أنا موقع عليه بنفســـى. فاضل نأخد لك إذن من محكمة العدل الدولية في لاهاي أو من اجتماع غير عادي للأمم المتحدة علشان نرجع ألف فدان لأصحابها الأصليــين.. هه.. حاول العقيــد أن يتحدث لكن محمود بك راغب قاطعه في عنف: خلاص مش عايز أسمع كلام. ح نشوف حل تانى.

قام الرجل مسود الوجه وقال: هل تأذن لي سيادتكم بالانصراف؟ أجابه في برود: اتفضل.

- بس أحب أقول لحضرتكم حاجة.
- قول خلصنى؟

-من ســوء الحظ أنا ابوى شيرين باشـــا صدقى. مش جدى. وأنا عضـــو فى نادى الجزيــرة ونادى الصيـــد والأهلى قبل مـــا تولد. ووالد ســعادتك راغب باشـــا كان ســكرتير جدى فى وزارة أحمد ماهر ... باشـــا .. يا بك.. والموضوع ده يخص الأمن المركزى. واطمنك ســعادة وزيــر الداخلية ويمكن رئيس الــوزراء مهتم بالموضـــوع جدا. وأوصى بإرســـال كتيبة من قـــوات الأمن المركزى. وهى على وصول.. شـــكرا على محاضرة سعادتك القيمة.

نظر عمــر لمدام تحســين. رأى وجهها بــارد كالرخــام بينما هو يكتم ضحكة تــكاد تنفجر من أجنابه. فكــر «وكم ذا من مصر من المبكيات». مالت عليه وهمست: تعال نخرج برة.

* * * *

وسط الحقول المترامية الأطراف. رقدت القرية تحت غلالات الليل المتشحة بالسواد. تخفى تحتها الأضواء الشاحبة للدور الطينية الواطئة. وحول طعام العشاء المكون من الخبز البتاو المصنوع من الذرة وقطع الجبن القديمة والمش. والمخلل جلس الفقراء يتناولون ما سوف يقيم أودهم لكدح الغد. وقد خلت الدروب والطرقات الضيقة الملتوية إلا من الأضواء الجاز الكابية. وبعض الكلاب الضالة. والحوانيت التي يتناول أصحابها طعامهم في الدكان. وقفوا في انتظار أكواب الشاي وخروج الساهرين إلي حلقات جلوسهم المعتادة. برأس الدرب أو تحت أضواء الحوانيت. وفجأة وكما تنشق المصائب عن عالم السكينة لتحيل الرضا والقناعة لحقيقة مفزعة من الخراب. انشقت الرتابة عن عربات الأمن المركزى تقتحم المكان. تتقدمها عربات الشرطة البك أب. مثلما يحط الجراد على الحقول ويخلفها خرابا. اندفع جنود الأمن المركزى من السيارات يقتحمون الدور. وهم يقفزون قفزات اقتحام الملاجئ العسكرية تسبقهم الصيحات العالية التي تهز نفس من يسمعها لأول مرة.

وبين لحظات الوجوم التي قبضت على أفواه النسوة والأطفال والشيوخ من وقع المفاجئة والذهول من المشهد الذي يجري أمامهم كانت باحات الدور قد امتلأت بالجند الشاكي السلاح يطرقون الأرض بأحذيتهم الثقيلة. تهزها هزا. وهم يهتفون (واحد؟. اثنين.. ثلاثه) وفي الثالثة تكون أبواب المنادر والقيعان قد انهارت تحت دوي طرق الأحذية العسكرية الثقيلة وكعوب البنادق. وضربات العصى المصنوعة من الخيرزان الغليظ. فى الثامنة مساء كانوا قد اعتلوا سطوح الدور المصنوعة من حزم الحطب. وقد أضيئت بالأضواء الكاشفة لمصابيحهم في ذات الوقت الذي كانت فيه كعوب البنادق والأحذية تدمر الأسوار المصنوعة من الجلة والزلع المملوءة بالجبن القديم. قوت العام وقواديس اللبن وحصائر الجبن. وصوامع الحبوب. تتناثر على الأرض وتختلط مع الطحين والحبوب التي انسكبت من

الجولات التى شقتها السناكي وصفائح الجاز يريقونها على الأواني الفخارية تتهشم قطعاً صغيرة .

تعالـى صراخ النسوة دفاعا عن أطفالهم وجاوب الأطفال بالبكاء والعويل. فزاد الجند من وتيرة ركلاتهم وقبضاتهم الدربة القوية .. وشرعوا يحطمون كل ما وصلت إليه أذرعهم ويلقون به خارج الدور. ولما جرى تدمير كل شىء خرجوا بالرجال والنساء فى قبضاتهم ليلقوا بهم فى الشاحنات التى تحركت بهم إلى أقسام شرطة المركز. بعدها انتهت المهمة. قفزوا إلـى عرباتهم راحلين بنفس الحمية التي جاءوا بها.

فى الساعة الثالثة صباحا وعندما تم التأكد من أن العزبة خاوية على عروشها. أشعل رجال محمود بك راغب النار فى الدور. وفى الصباح الباكر كانت المعدات الثقيلة تدمر كل الأثار الباقية منها حتى لا يجد أحد ما يلجأ به للقضاء.

بعد يومين تمكن محمود بك راغب ورجاله وفى حضور وزير الصحة من قيام عمر بوزوى بنفسه على وضع حجر الأساس للمستشفى السياحى فى احتفال غنائى أحيته المطربة ليلى صالح. حيث غنت الغناء الشعبى للبوادي.

* * * *

- 15 -

عندما عاد من القاهرة، وبعد أن أمضى يومين فى العاصمة، التقى خلالهما بمسئولين على مستوى عال، وبعد قضاء يوم واحد فى مدينة الحضر، استقبل ونيس، هذه المرة لم يتحدثا فى شيء سوى حميدة، شدد عمر عليه بضرورة تسليم نفسه، موضحا أن الأمر لن يتجاوز تحقيقات عادية وينتهى، ولدهشة ونيس لاحظ أن عمر كان يحدثه وهو يعد العدة لسفره إلى اليونان، دون أن يوضح له كيفية قيام حميدة بالأمر.

هل يطرق مثلا قسم الشرطة ويقدم نفسه قائلا «أنا حميدة بوزوى اللى حرق مبنى الاتحاد الاشتراكى» أم يقول مثلا أنا حميدة بوزوى طالب بكلية الهندسة ومن القبة، وأخى هو عمر بوزوى كل الحضر والبوادى تعرفه، وهو على صلة وثيقة بأعضاء مجلس قيادة الثورة.. وكل ما فى الأمر أن أنا حميدة خوه حرقت عفوا مبنى الثورة فى الحضر، هيا سلام عليكم.. لهذا بينما سافر عمر عائدا إلى القاهرة عبر اليونان، لم يهتم ونيس بالأمر وتجاهل الموضوع بانتظار عودته.

بعد لقائهما هذا بدأت المطاردة، فأقيمت الحواجز على مداخل المدن وطرقها الرئيسة، وفى الحاضرة الشرقية أخذت دوريات الشرطة المتحركة والثابتة فى القيام بأكبر عملية تمشيط، وقد جند مئات

من الشباب لمعاونتها. فأوقفت الباصات العامة فى عرض الطرقات. بواسطة عربات الشرطة. يصعد شرطيان يطلبان بطاقات الإقامة من المصريين. يقبض على من لا يحملها فورا. بينما الصبية الصغار يلعبون فى اللعبة السياسية دور العسكر ليكتفى المصريون بدور الحرامية. فطاردوا المصريين فى الشوارع والمنازل وأحواش السكن. ومن لم يكن بحوزته بطاقات الإقامة أودع أقسام الشرطة. وفتشت السيارات على الحواجز. ازدحمت الطرقات وتعطل السير وأفرغت عربات النصف لورى التى تعود بالعمال المصريين من مناطق العمل. حمولاتها منهم عند الحواجز بين رجال الشرطة والجيش. يهبطون وسط صياح الجند والضباط وزئيرهم. تنهال عليهم ضربات وركلات وجميعهم منكسو الرؤوس. يهيمن على وجوههم الامتهان والمذلة. يدفعون دفعا بالهراوات وكعوب البنادق إلى شاحنات الجيش. التى وقفت طوابير طويلة على جانب الطريق وقد برزت من وجوه العمال المكدودة معالم الإرهاق والمهانة. وفى عيونهم استوطنت نظرات كسيرة لفريسة سقطت فى شباك الصياد.

الرواتب المتبقية والأدوات والمعدات والملابس والأجهزة الكهربية من تليفزيونات ومسجلات وأثاث ملقى بالمنازل. والحقائب المكدسة بحصاد شهور طويلة من العمل المضنى قد راحت للأبد.

فى أقسام الشرطة تكدسوا بالعشرات فى الحجرات الضيقة يجلسون القرفصاء وباحات السجون وتصاعد عويلهم. وعبارات الرجاء الخائب. وعزل الذين انتهت تأشيرات دخولهم البلاد وبقوا دون بطاقات عمل ليقدموا للمحاكمة تحت طائلة الحبس أو الغرامة.

ومثل كل حملة اختفى من نجا فى الأحواش الصغيرة بالعشرات. لا يخرجون إلا ليلا. بحثا عن الطعام أو بانتظار قبض رواتبهم المتأخرة. يمضون أيامهم منتظرين أن تنتهى الحملة. أو يأتى المقاولون لأخذهم إلى العمل ثانية أو يلقى بهم إلى المعسكرات للترحيل.

وخلت المدينة وساد الهدوء الأحياء الفقيرة وخوت المقاهى التى كانت مأوى العاطلين عن العمل وسادها الفراغ. وفى شاشات التليفزيون عرضت مشاهد حية لعمليات سرقة متاجر يقوم بها مازجرية.

وراح الرجال يستعجلون الرحيل بأى وسيلة وقد استرجعت ذاكرتهم قراهم وحقولهم ومواقد الشاى والدخان وجلسات العصر على الترع. وأخذوا يلوكون الجبن القديمة وسط المشى ورؤوس البصل فى ألسنتهم وقد عادت إلى خياشيمهم رائحة الأرض الطينية. وسط مشاعر الخوف والانقباض من المجهول الأكبر الذى كان يخيم بشبحه على الجميع. الفقر. والخسارة المخيفة للشقاء البارح الذى عانوا منه طوال حياتهم.

وفى عربات الجيش وشاحنات الماشية انطلق ركب طويل تتقدمه عربة جيب ودراجتان ناريتان عسكريتان على الطريق الساحلى. وتحت أشعة الشمس والأمطار تكدس العمال والفلاحون المصريون جالسين القرفصاء على ظهر الشاحنات وقد أحكمت بشباك حديدية لتمنع هروبهم. وبعضهم ينظر إلى المدن التى تمر فى حسرة. وقد حلت بعيونهم نظرات بلا معنى .. نظرات للفراغ.

* * * *

فى قرية الخيمة أقامت الأسرة فى منزل آمر الحامية بالمعسكر. وفى الصباح الباكر كانوا جميعاً يغادرون معسكر الحامية إلى الشاطئ فى سيارة شيفروليه. تعبر الطريق الرئيسى المؤدى إلى وسط البلدة. ثم لا يلبث أن ينحنى يمينا ليخترق المنازل التى بنيت حديثا. هابطا من ارتفاع شاهق إلى أحد الخلجان الرملية للقرية الصغيرة. حيث أقيم مصيف الضباط. يبقون طول اليوم. حتى يأتى النقيب بالظهيرة. فيتناولون طعام الغداء على الشاطئ الخالى من البشر عدا صيادى السمك ليعودوا مع الغروب.

وكما استمتع الأطفال عاشت ثريا هذه الأيام وكأن كابوسا انزاح عنها. فالنقيب يقضى طوال وقته بالحامية. ونادرا ما يجلس معهم. وهو الأمر الذى كان يجد صدى طيبا لدى زوجته التى شعرت ثريا معها بالراحة . كانت عائشة لا تنى تسخر من زوجها ورغم أنها كانت تتحاشى أى بادرة تصدر منها أمامه. إلا أنها لم تترك فرصة السخرية والتندر بتصرفاته. فتحكى كيف تحول لشخص موتور. منذ قاد عملية القضاء على الانقلاب الذى أحال حياتها معه جحيما. حتى إنها تسعد كلما كثرت أعماله. وابتعد عنها. وهى تعترف لها بذلك وبصراحة تقول لها إن الأربعمائة جندى بالحامية هم الذين يحمونها من تصرفاته. ولولا ذلك لهلكت من عصبيته. حتى إن حاشية الملك ما كانت لتكفى سيادة النقيب.

وكانت تشعر أنها تشترك معها فى محنتها. كانت تود أن تتصرف بحرية مثلها. تنفث الهم الكئيب الراسخ على قلبها. لو تستطيع أن تتعامل مع عمر بالمثل!

وعند الخليج المواجه للحامية كان هناك واد صغير فى بطن الجبل يمكن الوصول إليه وإلى الشاطئ بواسطة طريق وعر ضيق. يلتوى حول الجبل الوعر. لا يسع سوى إنسان واحد. وفى أسفل الخليج كانت الطبيعة قد صنعت مع الشاطئ الرملى مستويات صخرية ملساء تغرى بالبقاء. وود لو يبتنى مقرا للقيادة هناك وتحت إشرافه السخى اصطف العمال. وقد وزع عليهم الفؤوس لحفر الجبل وراح يحثهم موزعا عليهم ثلاث وجبات يوميا من الخبز والشاى والمكرونة. ويلقى لهم كل مساء ببطانية يفترش كل منهم نصفها ويلتف بالنصف الآخر. ليعملوا إذن لقاء أكلهم.

وراح الطريق يتسع شيئا فشيئا ويمتد إلى أسفل وهو يتابع درجات ارتفاعه حتى تتمكن السيارات الصغيرة والشاحنات من الهبوط إلى أسفل ويوما بعد يوم برز الطريق ملتويا. وقد اجتُث من

صخور الجبل الصلدة بسواعد العمال والفلاحين الذين قتل فيهم الفقر والجهل والغربة، القدرة على الرفض. فقط السخط الداخلي، والأحاديث الغاضبة الخافتة، والشكوى إلى الله على الظالم. وعند منتصف المسافة بين البحر وقمة الخليج توقف العمل فجأه. فقد جاءت للنقيب أوامر مشددة بالتوقف عن أحلامه.

* * * *

إلى أن جاء ونيس في عطلة نهاية الأسبوع. كانت قد استطاعت أن تستعيد الضحك مع أخت زوجها. التي وجدت في ثريا وصباح رفيقة لها ولأطفالها في وحدتهم بعد أن أصبحت سجينة وسط الجنود لا ترى ولا يراها أحد عدا زوجها. وما كانت لتستطيع الذهاب للمصيف وحيدة. لولا أن عمر بوزوى طلب من زوجها ذلك في وعده للترفيه عن ابنته.

تقع بلدة الخيمة الحدودية والتي يعمل أغلب أهلها في التهريب، فوق قمة الشاطئ الصخري الذي يرتفع فوق سطح البحر بعشرات الأمتار. وقد تخللت الخلجان العديدة البحر. وعندما تنظر ثريا حولها. كانت تجمع العالم داخل جوانحها المهيأة للتعرف عليه. ترى الشاطئ الرملي الصغير يقبع في قاع الخليج. حوله ترتفع الحافتان الصخريتان عاليا لتبلغا قبة السماء. فتشعر وكأنهما طائرا رخ على وشك التحليق للسماء. أمامها كان البحر يندرج حتى النهاية. يقبع ساكنا تحت الأفق. فلا تجد سوى البرد والعمق المجهول. والخوف تصنع لوحدتها راحة منبسطة من ذلك السجن والجدران الأربعة. الذي تعيشه مع عمر. وخلفها يندرج الوادي وقد تناثرت الشجيرات على امتداده. تزداد كثافتها وكثافة الأعشاب. كلما توغلت داخله. وقد حمته الحواف الصخرية الصلبة المرتفعة.

ألجمتها الطبيعة التي تراها مجتمعة لأول مرة بخليج الخيمة:

مياه البحر التى تغسل الدهر والأفق البعيد الذى ما طاله الإنسان يوما. قبة السماء الذى درج على عبادتها. الجبل الذى اتكأ بقدميه صامتا فى البحر. يبرز من بطنه الأودية الخصبة الخضراء. وأشجار النخيل وعيون الماء العذب. وعلى ظهره استكانت أحواش البلدة الصغيرة. فبدا الإنسان صغيرا جدا وسط الفضاء الرحب.

قرب الكبائن القليلة يلتقى الماء العذب الذى حملته السيول من خلف السهوب البعيدة. عائدا إلى البحر المالح فتعبث به لتلتهمه فى النهاية وبداخلها عجب واستفهام عميقين لسر اللقاء. لماذا يبتلع البحر مياه الوادى القليلة. ألا يكفيه ما هو عليه من ثراء. ولماذا لا تكتفى السماء بذاتها فتبتلع البحر عند الأفق. وإلى أين تنتهى الكثبان الرملية لهذه الفلاة اللا نهائية. وهى تعلم أنها تقاتل الغابات هنااااااك فى وسط القارة. وأن الغابات لا تقبل بحضور الصحراء بفظاظتها وما تحمله فى قلبها من لعنة قتل الحياة بكل أشكالها. فتتركها تطرق أبواب السافانا أولا. ومراعى الحشائش القصيرة. ولا تسمح لها أن تقترب منها فى حضور مباشر وإلا أصابتها اللعنة.. ثم لا تلبث أن تتنهد لثقل ما حمله عقلها من أفكار. تروح بذهنها إلى أشياء أخرى كثيرة غير مترابطة. تاركة نفسها للألوان الطازجة تغسلها لتبقيها وحيدة مع أفكارها القليلة التى تثير ضحكها. وكإنسان بدائى ومع عادة المجيء اليومية. رحلت الرهبة التى تلبستها مع المشهد الذى ألجمها فى المرة الأولى. وحلت محلها هواجس أخرى. ففى البعيد ترى صائدى السمك يبيعونه على مرسى صغير ببطن الخليج وقد تجمعت حوله سيارات صغيرة لا تلبث أن ترحل. فتتمنى ألا يعودون. حتى جاء ونيس فى الثانية عشرة من صباح الخميس. وكان النقيب منهمكا فى استقبال المقبوض عليهم من المتسللين المصريين من البوادى والحضر وقد تعدوا عشرات الآلاف. تمهيدا لترحيلهم إلى نقطة الحدود وقد حل بهم السخط والإرهاق.

استقبلته عائشة وأولاد أخوته مهللين، ضيف جاء يكسر الوحدة، وكان قد وعدهم برحلة بين وديان وهضاب الخيمة، وبعد الغداء سارعوا إلى سيارته والعمال يقومون على ترميم بعض أجزاء الطريق. وجلست عائشة بجواره وصباح بينهما وبقيت ثريا والأطفال بالخلف.

بدأوا رحلتهم بمقابر المستوطنين الأوروبيين الذين رحلوا بعد الحرب العالمية الثانية. ثم رحلوا إلى نهاية الطريق الذى يخترق البلدة حيث أقيم نصب أشرف منه موسولينى على استعراض أسطول المحور بعرض البحر. النصب الثانى قيل إنه مشنقة للمجاهدين أيام الاستعمار قبل الحرب العالمية الثانية.

فى أحد الأحواش القريبة شاهدوا رسوماً بإحدى الحجرات لأسير بريطانى. لوحة كبيرة رسمت بعرض الحائط مستخدما الأسود والأبيض، وقد تهدم جزء منها وأصابت الشروخ أجزاء أخرى. كانت اللوحة تحكى مأساة الحرب. مئات الجماجم التى امتلأ بها أسفل اللوحة. ورجال المال وآلات الموسيقى والشعر والفن والأدب الذى يحكى السلم والحرب معا. وعلى الجهات الأربعه للحجرة، رسم أسير آخر نساء عاريات اضطجعن فى ارتخاء. أمعنت المرأتان فى سفوره مستترتين بالدهشة والخجل.

واقترب الصبية من الجرف فنهرهم خالهم وتعلقت عائشة بيده، وهى تدنو من حافته هلعة. تنظر المياه البعيدة والصخور الضخمة من علو شاهق، فيصيبها الخوف وتعود مسرعة حيث المسافة الأكثر أمانا. ويحمل ونيس صباح ويدنو بها من الجرف فتهز يديها فى سعادة عائدة إلى أمها. ويدعو ونيس ثريا أن تشاهد المياه البعيدة القرار فتدنو وحيدة على أن خوفها يبقيها بعيدة عن حافة الجرف. فتمد يدها إليه. وتقترب وقبضتها تزداد شدة كلما اقتربت، حتى ترى نهاية الجرف الصخرى. كتلاً ضخمة متناثرة عند

المياه. فيصيبها الفزع وتعود مسرعة وضحكات الصبية وابنتها وعائشة غائبة عنها لتبقى الحرارة التى حمتها كفه.

انطلقوا خارج قرية الخيمة. ويمم ونيس شطر الطريق الجانبى الجديد جهة الساحل. واقتربت الأرض من البحر حتى التقيا. وامتدت الشواطئ الصخرية الخالية من البشر. طويلا لا يقطع الفراغ سوى الرعاة وأغنامهم يسعون خلف الكلأ. وكل فترة تظهر القرى الصغيرة المتناثرة للبادية وعيون الماء التى تشتهر بالحرب وقصص العشق والغرام. حتى جاء المساء فعادوا منهكين.

وفى صباح الجمعة الباكر ذهبوا إلى شاطئ الخليج الرملى. وافترشت ثريا وعائشة الشاطئ. وتجمع حولهما الأطفال يلعبون ويصنعون قصورا من الرمال الرطبة. ولم يستطع ونيس أن يقاوم جاذبية البحر. فخلع ملابسه وارتدى لباس البحر والأطفال يتصايحون ويلقونه بالماء. وهو يحمل كل منهم على كتفه ويغوص به إلى داخل المياه بين هلع أمه. وضجة الأطفال وفرحهم الممزوج بخوفهم الطفولي.

كانت ثريا تسترق النظر إلى جسده الشاب القوى وقامته المشوقة المتناسقة وبشرته الملوحة بالسمرة. الكتف العريض الصلب. ومعرفة الأسد التى يشتهر بها أبناء بوزوى. خصلاته المبتلة المتهدلة على وجهه. وصياحه ومداعبته للصبية والأطفال وهم يتناثرون حوله فى حب وألفة. كانت أنثى واقعية تختزن صوراً حية لذكر يمكن لمسه يدور فى الأنحاء. كيان مكتمل الخشونة لا تستطع أن تمنع إعجابها به. وبنيه قوية تستحق الحياة. تدور حولها وهى الممنوعة من دخول الحلبة.

راحت تتابعه وهو يتوغل داخل البحر. تحسده على حريته. لو يموت.. لن يحدث شيء. انشقت المياه عن جسده من بعيد. وعادت تسترق النظر إلى جسده فى لباس البحر. مرت فى جسدها رعده

خوف. ولو أن رعشـــة جنســـية أصابتها لاســـتراحت. ولاستطاعت أن تشـــق ســـبيلا تفرغ فيه طاقتها الحلوة. لكن مشاعرها لم تعد سوية.

فـــي الظهيرة وقبل تناول طعام الغداء. أصر ونيس على مغادرة الشاطئ، ولم يوافقوا إلا بعد أن وعدهم بمفاجأة لن يصدقوها.

* * * *

- 16 -

عبر مجموعة من الممرات الساحلية الضيقة تمكن ونيس أثناء صعوده الطريق الرئيسية، من تفادى نقاط المرور الرئيسة للبردى وحاميتها. فى البداية توقعوا رحلة ساحلية، لكنه عندما استدار عائدا مستخدما الطريق الساحلية القديمة لمسافات طويلة، لحظتها ظنوا أنهم بطريقهم لغرناطة أو مدينة الحضر. لكن الإطراق الذى اكتنفه، تحول تدريجيا ليسود السيارة. ورويدا بدأ الوجوم يحل بالمرأتين، حتى الأطفال توقفوا عن سؤاله إلى أين هم ذاهبون وفى واحدة من استراحات الطريق توقف. وبينما الأطفال يشترون عصائر مثلجة وحلوى، لحته المرأتان يحدث شابا يختفى خلف نظارات سوداء، تبادلا شيئاً غامضاً. لحظتها نادى ونيس المرأتين والأطفال وطلب منهم وهو ينظر حوله بوجل الانتقال إلى عربية راخ روفر موجودة خلف الاستراحة، متعللا بحدوث عطل بسيارته، سيضطره لتركها للصيانة لحين عودتهم.

بعد كيلومترين انحرف باتجاه الجنوب. وما إن فعل حتى انطلق بسرعة فائقة، وكأنه يسابق الزمن. ومنذ هذه اللحظة شعرت عائشة أنها تسقط من حالق، وبدت وكأن عظامها لانت كقطع من الصلصال. أخذتها ثريا فى حضنها، تشاطرها انخلاع قلبها من صدرها، وفيض الشجن الذى اندفع يكسر سدوده.

عبر الصحراء المنبسـطة المترامية الأطراف. شـق ونيس طريقه باتجاه بير حكيم. والسـيارة الراغ روفور تنهب الطريق نهبا. إلى حيث السماء تنطبق على الأرض برفق. وعندما استسلم الجميع للمشهد الـذى يندفعـون داخله مثـل قذيفة رصـاص. فاتحين عيونهم على اتسـاعها. فاغرين أفواههم من الدهشة. وفى اللحظة التى شعروا فيها بأنفسهم جزءاً منه. متوحدين معه. تحولوا جميعا إلى بلورة من الحياة تشق المسـتوى الممتد على رحابته الفاصل بين اللونين الأصفر والأزرق. الساكن بين سماوين. حيث لا شىء عدا ثلاثتهم. وعندما غفى الأطفال على صدور أمهاتهم كانوا يحلقون فى المسافة بين اللونين.

وبدا أن سـاعات طويلة مرت. عندما كانت الشـمس فى الربع الثالث من السماء. أصبحوا يحلقون داخل اللا نهايات. عندما بزغت بين الصحراء والأفق. نقطة سـوداء. كانت تكبـر كلما تقدموا إلى الأمام. حتى كشـفت عن طارقى على ظهر ناقة بلقاء. يقف أعلى مجموعة من التلال الرملية الناعمة. انحرف ونيس باتجاهه. وسـار حثيثا تجاه الشرق لساعة حتى بلغ قمة التلال. ليكشف وراءها عن واحة واسعة من عيون الماء والنخيل. فى جنوبها كان عدد من الخيام التى نصبت على تبة لا ترى أعلى عين الماء.

دق قلب عائشـة بقوة. والأطفال يسـتيقظون مثـل حيوانات شـمت رائحة الهدف. رفعوا رؤوسـهم يملأون عيونهـم من المكان. لمح ونيس طارقى يشـير إليه بأن يتوجه إلى الخلاء. سار حيث أشار. كانت ثمة خيمة وحيدة وشـخصان يقفان أحدهما شامخا كعلم ينتظر حضورهم. بينما الآخر وقف بعيدا جوار الخيمة.

همسـت عائشـة وهى تنظـر شـقيقها الأصغـر يقف مثل راية سـامقة فى قلب الصحراء ملوحا بسـمرة شمسها وهوائها الفسـيح. تراه فى لحيته للمرة الأولى. لقد تحول فجأة من ذاك الذى طالمـا رأته شـقيقها الأصغر. ليصبـح رجلا تسـتظل بظله. لم

تستطع أن تتفوه سوى بكلمة واحدة تكررها المرة بعد الأخرى وهى ترى أخويها الشقيقين يتبادلان عناقا حارا.

«حبيبى يا خوى». صرخ الأطفال يهتفون باسم خالهم حميدة، وقفزوا يتقاتلون من حوله. ضمهم الواحد بعد الآخر. وانتهى بالوقوف لثوان أمام شقيقته الكبرى عائشة. وقبل أن تتقدم نحوه زكع على الأرض ليأخذها فى حضنه قبل أن تسقط مغشيا عليها.

لأول مرة يدرك ونيس أنهم ثلاثة إخوة منفصلين بصورة ما عن إخوتهم غير الأشقاء. عمر وناصر وصديقة. هم فقط عائشة وونيس وحميدة. من عالم آخر. ولهذا عندما أخذ أخاه وجلس معه على حدة يعرض عليه طلب عمر بضرورة عودته. وتسليم نفسه إلى الشرطة السرية . موضحا أنهم تعهدوا بأن يدلى بمجموعة من الأقوال التى يرغبون التأكد منها. وهى عدم وجود يد مصرية فى أحداث الجامعة. ثم يطلقون سراحه من فورهم. كى يعود لينهى عامه الدراسى. بدلا من أن يفقده.

لماذا خايل ونيس وجه زميل أخيه الذى ظل يجلس بعيداً منطويا على نفسه. شيء ما كان غريبا على الفهم. لكن أفكاره تلك حول زميل أخيه الذى لم يشغل باله بتقديمه إليهم ضاعت وتلاشت. أما إصرار حميدة على الرحيل عبر الصحراء إلى مصر. واستكمال نضاله ضد الحكم العسكرى من هناك. حيث الحياة السياسية وبزوغ عصر المعارضة الديمقراطية الجديدة فى مصر سيتيح له أن يناضل فى سبيل حرية البوادى والحضر.

ارتج الأمر على ونيس. ففكرة هجرة حميدة إلى مصر لم تطرأ ببال أحد. وإن كانت تكشف عن مدى تورط أخيه فى الأحداث السياسة. وعندما سأله كيف سيتسنى له عبور الحدود. قال ببساطة أنا فى قلب صحراء تمتد من نهر النيجر لوادى النيل. لا حدود ولا فواصل طبيعية تمنعه من بلوغ وادى النيل. وأضاف هادى القافلة متوجهة

لمصر. وأشار إلى مرابع القوم وخيامهم وقال. سيغادرون فى خلال شهر. وقال وهو منشغل «انتظر» وطلب من صديقه أن يحضر ديوان رجب الشلطامى. فقام الفتى يحضر ديوان الشلطامى المسى ب «القبعات الحمراء» وقال له توا لسة خارج من المطبعة وتوا يصادرونه. هادا ممنوع هنا. نحن هربنا نسخا قليلة قبل أن تتم مصادرته. صديقك المصرى الناصرى، أعطه الديوان. نريد أن يساعدنا المصريون.

نظر إليه ونيس مندهشا متسائلا كيف تسنى له الحصول على ديوان طبع منذ أيام قليلة وصودر. وها هو يطلب تهريبه للخارج. ما الذى يجرى.. نظر إليه وسأله. إذا ما كان منخرطا فى العمل السرى، وهتف به همسا «هل لك علاقة بالتفجيرات التى حدثت فى ميناء الحاضرة الشرقية؟» نفى حميدة وقال نحن حركة سلمية. أشك فى النظام.

فى هذه اللحظة تراجع ونيس بظهره للخلف. وتوقف عن الحديث. كان مذهولا إذا ما كان صديق حميدة ليس سوى زاهية. حدق تجاهها وعندما التقت نظراتهما لم يعد هناك لديه شك.. كيف جاءت ومع من؟ هى التى أحضرت له الديوان..

من بعيد كانت ثريا التى تعاملت مع حميدة بتحفظ تتابعهما وهما يسيران الهوينا مبتعدين فى الصحراء. قال حميدة بطريقة قاطعة إنه سيسافر إلى مصر ويناضل من أجل حرية البوادى من هناك. هذه المرة قال ونيس باتهام: يعنى أنت وعمر.

تطلع إليه متسائلا: شنو أنا وعمر.. صمت قليلا ثم أضاف:

- أنا ما نحب عمر. أكو فارق كبير بينى وبين عمر.

- شنو؟

-عمر يدور فى مصالحه. أنا ندور فى مصلحة الوطن.

- شنو الفرق؟

- أنا ما نحب السادات.. السادات يسلم مصر لأمريكا وأنا ما نحب السادات كيف كل عربى؟

- إذا هكى شنو تسوى فى مصر؟

قال حميدة بحماس أن مصر بها قوة معارضة كبيرة. وأنه سيناضل مع المعارضة المصرية. مع الناصريين مع اليساريين مع الوفد. وأضاف أكو كل يوم فى مصر مظاهرة. هم يشكلون أحزاب معارضة. مصر تقود حركة الحرية فى الوطن العربى وأنا نريد نكون هناك. بيش نتعلم.

فكر ونيس طويلا قبل أن يعلق على أفكار أخيه بكونه يثق فى المصريين كثيرا. بينما حالهم لا يبشر بخير.

- والله يا خوى هذه مشكلة.. دهور مع المصرى صاحبك يسوى لنا المسائل. كان يريد أن يقول له «والله كتير صعب عليك يا أخوى» لكنه لم يرغب أن يفت فى عضده واكتفى بالقول: باهى توا نشوف. لكن شنو يسوى صاحبك.. يسافر معك مصر.

نظر حميدة بصمت بارد لونيس. هز رأسه فلا مجال للجدال فى أمر فتاة بدوية جرقت كل شيء وراءها من أجل أخيه.. همس يعرض عليه العون وقال ترى تبى منى شيء. أنا نفعل لك كيف ما تبى.

وضع حميدة رأسه بالأرض وهمس: بدى تسلم عليها بيش ما تشعر بالوحدة.

هز رأسه متفهما وقال بصوت خافت تبى عيشة تسلم عليها.

- لا كفاية أنت.

قام يحييها وهناك وقف ثلاثتهم. وقبل أن يرحل قال وهو يضحك لها: توا أنت سلطانة العرب والبادية تعرفى ليش. لأنك صرت تلبسى لبس الرجال.

ورحل لا يعرف إذا كان هذا سيسعدها أم لا.. ثريا المتحفظة شعرت فجأة أن حميدة هو المعارض لعمر وليس ونيس. لم تفهم لماذا بدا وكأن كارثة هائلة تنتظر العائلة. كارثة جديدة ربما تكون

هـــى ضحيتهـــا. ربما يكون شـــخص آخر. لكن فى الخلاء السـرمدى للصحراء. شـعرت والسيارة الراغ روفر تعود باتجاه الحضر. كأن طائر الوحشة يحلق فوقها.

* * * *

فـــى صباح اليوم التالى رحل ونيس وابنة أخيه تبكى رحيله. أما ثريـا فقد حل عليها المســاء بكابوس مخيف وأخذت تقاوم شـبحاً ضخماً يجثم علـى صدرها. مدت ذراعيها تضرب الهواء. التحم بها وعظامهـا تئن تحت وطأة قوته. كانت تصرخ عاليا دون أن يسـمعها أحـد. واختلطت عليها ملامح عدوها. فبدا كأنه امرأة ترتدى الملابس الوطنية يتغير وجهها من عائشـة إلى خيريـة. ثم ضاعت صورته. وبقيت وطأته على أنفاسـها. حتى أحست أنها بين كلابتى كابوس جديـد. أخذت تحاول وهى تختنق أن تفلـت منه دون جدوى. حاولت أن تخلع يدها من وطأة الثقل. وجمعت كل قوتها لتنثنى جالسة. حتى اسـتنزفت قوتها. فسكنت هامدة. ولم تنهض إلا على بكاء ابنتها. تطير إلى حافة الهاوية. تدفعها ريح شـديدة لا تقاوم. ولما أصبحت بين البحر والسماء فشهقت وهى تلهث مرددة.. إلهى.. يا إلهى..

وفـــى الأيام التاليـة تحول الهدوء والسـكينة إلـى اضطرابات عصبية. تنظر إلى حافة الخليج الشـاهقة. ترى نفسها هناك ويد قاهـرة تقبض على عنقهـا وتدفعها إلى أسـفل. أو تحلم بصدفة قدريـة تأتـى بهـا إلى الجرف حيـث لا تريـد أن تأتـى لكونها تعلم يقينا أن قدمها سـتزل لتسـقط بقوى قاهرة. يشتعل رأسها عند منتصف المسـافة بين البحر وحافة الجبل ويتوقف كل شـىء عند ذلك. معلقة فى الفضاء بانتظار تفتت جمجمتها شظايا متناثرة على الشاطئ الصخري.

* * * *

منذ رحيل ونيس وثريا تجلس على الشاطئ الرملى تتابع ابنتها صباح وهى تلهو وتتناول الشاى والمثلجات وقطع اللحم. وتنظر إلى المياه. كامرأة محترمة مثل باقى النساء اللائى تكتفى كل منهن من متعة البحر بآثار الرمال على ملابسها. وفى داخلها رغبة فى أن تقطر المياه من جسدها كما كانت تقطر كحبات اللؤلؤ من جسد ونيس والبحر ينشق عنه . وأخذتها الجرأة لأن تقترب وتمد ساقيها إلى الأمواج المنحسرة. عند فخذيها ارتعشت لبرودة المياه فلما نهضت جرت وراءها رداءها المبتل بالمياه فى سعادة.

وفى هذا اليوم جاء النقيب وبقى مع الأسرة حتى المساء. وقد انتوت البقاء فى كبائن المصيف طول الليل. وتجمعوا حول النار يأكلون شرائح اللحم المشوى الذى تولى النقيب شواءه. ويشربون الشاى الأسود المملوء بالسكر.

فلما خلدوا إلى النوم فتحت النافذة المواجهة إلى البحر تستقبل الهواء البارد. وأخذت تنصت إلى صوت الأمواج وهى تتكسر على سفح الجبل فى دهشة وقلق. وكلما أوغل الليل كلما تتبعت البحر الغامض. ترتطم أمواجه بجدران الخليج الصخرية عند سفح الجرف فترجها. بالخوف. وصوت ارتطام المياه يطلقها إلى عوالم غامضة. استجمعت شجاعتها وعبرت المسافة الصغيرة بين كابينتها وشاطئ البحر. وأخذت تسير بخطى مضطربة إلى المياه وكأنها تنتظر لقاء المجهول أو أن تنينا بحريا سيمد ذراعه ليخطفها ويعود بها إلى قاع البحر بلا قرار.

وقفت قليلا والمياه تصل إلى منتصف فخذيها تحس لبرودتها عذوبة ثم عزمت على المضى وعند أعلى فخذيها اهتزت عندما لسعتها المياه وأصيبت بغصة ملأت عليها حلقها فانثنت بجيدها إلى الخلف وتركت أوتار الأمواج تلامس أديم جسدها الرخامى. تتصاعد أمواج اللذة. تلفتت حولها تطمئن إلى وحدتها. لم تر

أحداً. ولم تسمع صوتا جهة الكبائن داخلها ارتياح وراحت تعبث بالمياه مطمئنة.

قبعت فى المياه الأليفة العمق تحدق لحظات طويلة عند التقاء البحر والسماء الأفق البعيد. شعرت بسطح البحر وسادة ناعمة. صعدت بناظريها إلى قمة الخليج الذى برز شبحا هائلا ضخما يخفى أطراف قمر بدرى. تمددت على ظهرها فالتفت المياه حولها وغطتها سماء من نجوم متلألئة.

مدت يديها إلى حلمتى نهديها تعصرهما بأناملها. ودبيب النشوة يأتيها من الأعماق. دارت على جنبها بين طيات الأمواج. تخدش بشرتها الناعمة حبوب الرمال الخشنة. ثم استكانت على بطنها. وقد كورت فستانها بين فخذيها. صنعت لنهديها عشين بين الرمال. وراحت فى حذر عميق تصعد للنشوة.

جاءها اللهاث يتناغم مع ضربات الأمواج. ضغطت بساقيها ونهديها على الرمال الخشنة. تغرس أظافرها فى الرمال. وانبعث الدفء يزيح البرودة. وأخذت تقترب بثبات من القمة. وامتلأت بالبحر والسماء. وللحظات طويلة شعرت بالأرض تدور من حولها. والخليج يقبض جسدها المعلق بالفضاء الرحب. فلما انشطر أخذت الأمواج تنحسر رويدا رويدا وأصوات ارتطاماتها بالصخور تخرج أنيناً وتأوهاً. وللحظات عابرة ظنتها ساعات هدها الإشباع. ولما أفاقت فتحت عينيها على سماء بعيدة تضيع وتتلاشى فى الفراغ. عادت تزحف لفراشها تتدثر بالأغطية. تختبئ بها من أمواج البرد اللاذعة.

كلما اقترب ميعاد الرحيل زاد استقبالها للأيام بكآبة. وتحت جنح الظلام اختفت داخل الجرد متسللة إلى قمة الجرف المواجهة لمنازل الحامية. وعند مقابر الحرب العالمية الثانية داهمها الخوف لكنها تابعت مسيرها حتى بلغت البحر.

وعلى قمة أحد الخلجان الشاهقة لبحر المتوسط نفضت المرأة البدوية الشابة ثيابها وانثنت إلى الصخر البارد عارية تعانقه. تنقلب عليه وتغرس جسدها على حوافه الحادة. فتصعد من داخلها قوة تنبعث من جذورها.

وعند حد الاستواء والسقوط والأمواج الممتدة إلى الأفق الليلى ترتطم بجدار الخليج يتصاعد الرذاذ والهدير إلى جسدها. عاودت اللهاث وحيدة تحت سماء وجبل يئن من عنق سطوتها. فأخذ يزمجر ويدفع بأظافره الصخرية فى جسدها تاركا خدوشه وعلاماته خطوطاً من الدماء القانية. حتى ارتفع من داخلها الومض الكونى وأخذ المطر فى الهطول.

* * * *

الجزء الرابع

- 17 -

تقع مدينة القبة على القمة الشرقية لمنتصف الجبل الأخضر. تحفها السهوب والتلال الممتدة. على مرمى البصر. وقد غطتها الحقول والمراعى الخصبة. وحفت طرقاتها الضيقة الأشجار الباسقة. هنا يسقط الثلج شتاء. وتغطى الطرقات اللون الأبيض الشاهق للجليد. وتنخفض درجة الحرارة إلى ما تحت الصفر. وفى الصيف تنبثق السهوب وطيات الجبل عن طبيعة خلابة وجو صحو بديع.

فى شمال المدينة أقامت العائلة فى حوش الأسرة القديم. بعد أن قاموا بتجديده وترميمه وإعادة طلائه من جديد. وتولى الشايب الاعتناء بحديقته الأمامية. فعادت الحياة إلى تعريشة الكروم بعد ما كادت أن تفقدها. وقد وجد نفسه ثانية وسط رفاق الصبا. يقضى معهم ساعات طويلة يستعيدون ذكرى أيام مضت كان الملك محورها. وأيام جديدة جاءت بتحولات لم يخطر ببالهم أنها قد تحدث قط. وبينما كانت العجوز تمضى جل وقتها وسط النسوة من الأهل و الأقارب. فى سلسلة من أحاديث نسوية لا تنقطع. وجلسات لا يصيبها الملل حول المواقد التى تعلوها شرائح اللحم. وأباريق الشاى الأسود. وصغار يدورون حولهن فى حيوية بلا كلل ولا تعب.. كانت الحياة تجرى بمنأى عن ثريا. والرتابة التى أسقطتها فى لجة الاستسلام للواقع. لم يكن يقطعها سوى مجيئه من مقر عمله لزيارة أمه.. فمنذ أن أصبحت سالمين عسيرة المنال وأشيع

بالمدينة الرفض القاسي الذى ناله من أبيها. حلت به كآبة حزينة. وامتلأ بالسخط من الفتاة التى ليس لها حول ولا قوة. ونفور من الوجوه التى تعرفه. وقد تمكن منه هوس مر بأن نظراتهم تخفى وراءها السخرية أو الإشفاق. حتى صديقه المصرى تحاشاه. وتحاشى أن يفتح معه ما جرى بينه وبين أخيه من حوار حول اللجوء إلى مصر.

كره مدينة الأندلسيين ونساءها. فلما جاءت أمه وأبوه وثريا للقبة صار يتخطى المنحنيات الخطرة على الطريق الساحلى مرتين أو ثلاثا أسبوعيا. وكلما ضغط على البنزين كلما اقترب من لحظة الخطر. فيساوره إحساس بالحياة يفتقده كلما عاد إلى كآبته وتساؤلاته النفسية المضنية.. وعلى طول الطريق الضيق الذى يتلوى عبر السهوب والهضاب. وكلما أسرعت السيارة. لم يكن يستطيع أن ينحى عن نفسه الإحساس بالارتياح الذى تخلفه الطبيعة البكر ورائحتها.

وعندما يكونان منفردين. كانت تتجاهله تماما. وتدور تعبث بالأشياء التى ليس لها علاقة ببعضها. تاركة ابنتها تعبث معه أو نائمة على صدره. وعندما تأتى النسوة ويمتلئ الحوش بهن. أو عند تناول العشاء والجلوس حول التليفزيون كانت ثريا تتابعه بعينين متعبتين. كأنها تحدق فى الفراغ.. تهبط بناظريها عليه كسحابة من الضباب فتجمده بصقيعها. وتجعله عاجزا مرتعدا غير قادر على الحركة. بينما يأخذه شعورٌ خافت من الخوف والوجل.

كانت تراه وقد فقد وجهه المشرق وابتسامته الدائمة. ضحكته التى تجلجل فى الفضاء تجذب أسماع المحيطين. وسكن عينيه المتألقتين الانكسار. بينما الضمور يأكل قلبه. ساعتها تشعر بالتشفى وأحياناً أخرى بالحزن من أجله. كان يشع من حوله مشاعر الخجل والامتهان. لقد رفض كشاب يتقدم للزواج من قبل أسرة ما. ورغم أنه كان غير قادر على إقناع نفسه بالأسباب الملائمة

لرفضه. أو استنباط هذه الأسباب. إلا أنه كانت تداهمه فترات من انعدام الثقة بالنفس. الأمر الذى يدفعه إلى مزيد من السخط واللوم على فتاته التى خذلته. رغم أنه لم يكن قادرا على تصور تصرفات محتملة يمكن أن يقوم بها عدا الهرب. فإذا الأيام تمر ويحل تقبل الأمر فى مدارج العادة. منتحلا لسلمى الأعذار. مستسلما لسطوة قدرية اجتماعية وبنى مغرقة فى الغيبية.

فى إحدى المرات تململ من شدة النظرات المصوبة نحوه. رفع ناظريه فالتقيا بعينى ثريا واستمرا وهلة لا تحمل نظرات أى منهما. إلى الآخر أى معنى. وكل منهما يحاول الهرب بعينيه المثبتتين وقد شد كل منهما إلى الآخر انجذاب قوى. وعندما استطاع الهرب من عينيها ود لو يجد من يستمع إليه.

. يوما ما عاد من عمله، وجدها ترتدى الرداء على قفطان من القماش الشفاف فابتسم فى تكلف يسألها أيهما أفضل الملابس القطنية أم الحديثة؟ أجابته فى صوت خال من التعبير. وكانت تنتظر أشياء أخرى أن الاثنين سيان.. وأدارت ظهرها مبتعدة.

إذن لا تعلم الريح أى قوى مجهولة تسيرها. ولا سكون البحر عنف التيارات الهمجية بقاعه. وفى لحظة تهب العواصف السوداء. ويهرب النور مسرعا أمام أمير الظلام. ولا تستطيع زقزقة العصافير الورعة أن تخفى ارتطامها بالأرض صريعة ضربات الصقور.

هنا نبتة شيطانية وهناك سنبلة قمح. فبأى وسيلة تختار. وأى مستقبل غامض ينتظرك. وقد اختلط بذاكرتك ظل الأشياء مرآها.. صاح بها أن تبتعد عنه.. أن ترحل.. لكنها كانت تطير حوله وهى تئز مطلقة فى الفضاء رائحة زكية: فراشة النار الملونة بقوس قزح. تطرق أذنه برنين فضى، وتبث داخله أغنيات ساخرة ونكات بذيئة مبتذلة..

طارد وجودها. يلاحقها وهى تفلت منه. تنمو وتكبر مثلما

تتفتح وردة حمراء. اهتاج لاهثا وهى تقف فى منتصف الفضاء أمامه فى حجم عصفور الجنة. تنظر إليه فى ابتسامة متأملة..

ساد الصمت للحظة كانت قد اختفت من دائرة كوابيسه. وعندما استيقظ. كانت هناك كالباز الصغير. يرقد خلف غصن بنى أجرد. تتابعه وفى عينيها ينبعث بريق المتعة والتسلية بانعكاسات أفعالها.. أو أفعى رقطاء تهم فيه بلسعتها الميتة. وظنها يمامة وديعة ترتكن على كتفه فى ارتخاء.. ووشوشت عينيه وانبعثت الأشكال البلورية للرغبة. فأجاب برأسه عن مرأى الضوء وراح إلى الظل يتوسد ذراعيه. لكن غفوته قطعها أزيز يتلاعب حوله كخطر غزال. كف مخملية موسومة بالحناء. مزدانة بشرائط الحرير الهندية. وخلاخيل الذهب المصنوعة فى قصور العباسيين. انتفض يستعيد شجاعته. وراح بهراوة ثقيلة يضرب الهواء شبحا مسيطرا غير واضح الملامح.. يصيح.. اتركينى.. أنا وحيد ..

ارتفعت فى الهواء تختفى حتى السكون. وتعود تنفض بمخلبها تخمش جسده. يزداد انهياره. ويكبر خوفه. تخف مقاومته وتخفت حتى يتوقف. يتابعها تنزع بقاياه. مندهشا لنموها الخرافى. تتمكن منه فكرة عصابية.. أنها تنمو خارج وجوده. بعيدا عن إرادته. واستوطنه خجل مض. كان يضاجع فى أحلامه مدمجا بمتعة لا نهائية امرأة أخيه.

ثمة مصباح لعلاء الدين وجنى وجارية تجمع خلاخيل خيانته. من ضاجعتهم من الرجال فى غفوته. وثمة باب أربعين ممنوع عليه فتحه. لكنه لم يعد مغلقا. إنه يقف أمامه مواربا. يدعوه قصرا للولوج فى عالم السحر والخطيئة.. والجبل الأخضر ينشق عن القبة والطريق الساحلى يضيق ليصبح كالصراط. معبراً للجحيم. وغرناطة تحل محل حاضرة الشرق. وحاضرة الشرق تروح يم الجنوب. يجف البحر. ترتفع صحراء. ينجاب القاع عن عالم من الرسوبيات

الهلامية. يغوص فى لزوجتها المقيتة. ليهبط من السماء الجفاف وئيدا قديما قدم الأرض الأولى قبل الخليقة.

عاريا أصبح؛ يخفى عورته بيديه. وأمامه وقفت يتجاوز فرعها النخلى قامته. أطرق برأسه ذليلا إلى الأرض لا يرى سوى خلاخيل قدميها العباسيتين. حلقات تحبس الجنى المهورة بخاتم الملك سليمان.. يا خيوط الشرف المجنونة لا تتركينى بقصر التيه. إنى ما زلت أقاوم.

ومثل كتاب مفتوح هبط جناحاها بجانبه مباشرة وانغرزا فى الأرض كحد المقصلة وكان رعبا قاتلا أن يفقد بحد النصل كينونته. لفحته حرارتها اللاهبة. المسيلة باحتلامه المنى. ومن رأسه المنكس دارت مقلتاه بترقب. استقرتا بأعلى لا ترى سوى شبح ضخم. يخفى الضوء عن عينيه المتعبتين .. اقترب الشبح يلتصق به ضاغطا فى بطء صبور أعراس روحه الذافقة بألسنة النار تعمدها بما هو آت . ضاجعته مثل فكرة محرمة.. وبانتظار المتعة القصوى قاوم حتى أريق دمه.. وفى المرة الثانية ضمر وخيوله البرية الشهباء تنسحب مسرعة من بيداء روحه. وأعرافها الجنوبية الأصيلة تسقط من ناظريه خلف حد الأمن اللازوردى. والريح تلقى بآخر أشرعته إلى اليم. واليم يحمل بقايا سفينته إلى شواطئ الجزر.. ضاعت منه الطرقات المأهولة ليحل الفراغ اللا نهائى .

فى المرة الثالثة بحث عنها ورغبة مجنونة تدفعه لتلمس مضاجعتها. ها هى أمواج العالم السفلى تأتى متلاحمة فى صخب تحت سنابك الخيل السوداء تتدفق بألسنة اللهب. تتراقص حولها أعراس ذهبية. وخيالات مدنسة لعق قدميها فى عشق وهمس: إنى عبدك الذليل.

منذ أن نأوا بسالمين إلى كوكب آخر انكشفت عن الأرض أقنعتها. وعادت السيارات الحديثة تقطع ذات الطرقات فى تكرار ممل مميت. شبيبة تسبح فى كؤوس الخمر الممنوعة باسم القانون.

وضجيج أجهزة التليفزيون والراديو المكدسة بالمعارك الوهمية المبتذلة. ونظرات النساء المجهولات بالطرقات تشق الحجاب. كحد المضاء. وسقف الوظيفة الفولاذى لا يُمَكِّنْ قامة أن ترتفع تحت وطأة انخفاضه.

غرناطة درة الولاية الشرقية: الشابة المكرسة للفتنة تتحول إلى عجوز شمطاء. تلقى للبحر ثديين مترهلين مثقلين بالقيح. وحاضرة الشرق مدينة جافة يخيم على سمائها شبح المال وجبروته. وأحذية العسكر الثقيلة. التى لا تعرف لسلطتها حدوداً ولعسفها حرمة. وفى حوش الحاج مفتاح بوزوى بالقبة كان يجلس والعجائز تفترش الأرض ومن خلفهن ثريا. بالقرب منه فى أحد المقاعد الوثيرة. تجرى الأحاديث بين النساء من بين فروج أفواههن: أحاديث لا تنتهى وقصص وحكايات متنوعة وفضائح تبعث على الدهشة. وحكايات عن رجال جدد يرتقون سلم المال من العدم متسلحين بفقر النفس. وضباط تثقل أكتافهم نجوم السيطرة والسلطان. يصغر فى نفسه بجانبهم وبجانب أخيه. تبدو أمامه ثريا بنظرتها التى ترقد عليه فى هدوء تطلب منه أن يمد يده ويلتهمها. حمل ينادى الذئاب.

الضياع فى غرناطة الشرق والضالة فى حاضرة الشرق والرغبة فى القبة.. جنة عارمة تناهشه. وجوع ممض تثيره ابتسامات نساء المدينة القريبات جدا. والبعيدات جدا. المشهى بالإيماءات الخفية من عيون ومضها برقا. ولحظها صواعق. فتحرقه على مراقد الراحة إلى زنازين الكبت المروضة لمشاعره الجنسية. تخلف لديه حسرة بؤس ورغبة محضة فى التعويض.

الفتاة التى عبرت عالمه الممل أثناء ذهابه إلى العمل صباحا. ابتسمت له وحيته فى خجل. رد تحيتها بابتسامة عريضة تحمل آثار جاذبية قديمة لا تخلو من الزيف.

لاحظه «على» صاحب حانوت بعداد فسأله إذا كان يريدها.

أجـــاب فـى عـصـبـيـة يـريـد شــــنـو؟ أشـــار للفتـاة التـى مـــرت منـذ قـليـل. فـصـمـت يـراجـع نـفـســـه. شـدد عليـه بالرد. فسـألـه إن كـان يسـتـطـيـع؟. فـقـال لـه إن عليـه ألا يـهـتـم. طلب مـنـه أن يـتـرك لـه سـيـارتـه. وأن ينـتـظـره أمـام مـنـزلـه فـى الثـامـنـة مـسـاء.

وحـتـى الثـامـنـة مـسـاء بقـى قـلـقـا لا يـدرى إذا كـان صـديقـه يمـزح. ولما جـاء وجـده بالسـيارة وحـيـدا. حـل بـه الارتيـاح. قـال علـي: نـصـعـد الفـتـايـح.

اخـتـرقـت السـيـارة الشـوارع الليـليـة مـسـرعـة. إلـى الطـريـق السـاحـلـى صـاعـدة إلـى السـهـب الـذى يـعـتـلـى شـرق المدينـة. حـلـت بـرودة مـنـعـشـة وعـنـد نـقـطـة شـــرطـة المرور وقـفـا لـبـرهـة. ثـم تـركـهـمـا الشـرطـى يـرحـلان فـانـطـلـق بـأقـصـى سـرعـة يـعـبـر الفـتـايـح مـنـحـرفـا فـى اتجـاه خـلـيـج البـمـبـة . قـال ونـيـس: ويـن تـروح؟ . أجـاب فـى اقـتـضـاب أن انـتـظـر.

فـى طـريـق ترابـى مـهـجـور. أطـفـأ أضـواء السـيـارة. تحت ضـوء القـمـر ســـار ببطء عـلـى أرض غيـــر ممـهـدة. ووقـف أخـيـراً خـلـــف إحـدى الـوهـاد حيث لا يـراهـمـا أحـد. وخـرج الـفـتـى مـســـرعـا وونـيـس يـســـألـه: لـشـــنـو جـيـت بـنـا إلـى هـنـا.

اســـتـدار إلـى الشـــنـطـة الخلفيـة يـفـتـحـهـا بـعـصـبـيـة. فـلـمـا ارتـفـع غطاؤهـــا إلـى أعـلـى ســـمـع صـــوت تـأوه. ثـــم مـا لـبـــث أن تبـين صـوت أنثـى. دفـعـهـا «عـلـى» مـسـبـــرعـا إلـى داخـل السـيـارة. وتـبـعـهـا إلـى المقـعـد الخلفى. نـظـر إلـيـه مـشـدوهـا. كـانـت الفـتـاة التـى قـابـلـهـا صـبـاحـا تـرتـدى الجرد. تجلس وعـلـى وجـهـهـا الحياء والخـوف. تـسـوى جـسـدهـا ومـفـاصـلـهـا التـى تـكـســـرت مـن بقـائـهـا مـكـومـة فـى رحـم السـيـارة. مـثـل جـنـين لـم يـولـد بـعـد. مـضـمـومـة السـاعـديـن وقـد التـأمـت ركـبـتـاهـا إلـى صـدرهـا . نـاداه عـلـى: هـيـا يـا راجـل. خـوذهـا.. هـى لـك. أجـابـه غـيـر مـصـدق: لـى أنـا .. مـا لـى بـيـهـا شـأن. وخـرج يـصـفـع البـاب خـلـفـه. وراح يمشـى بـالخارج يـدور حـول السـيـارة فـى غـضـب.

تـصـاعـدت صـرخـات مـن السـيـارة عـقـب صـفـعـة داويـة. كـانـت الفـتـاة

تقاومه فهتف ونيس: العاهرة .علام جاءت إذن. واختفى من الزجاج الخلفى ظل جسديهما بعد معركة عنيفة وتعلق ساقاها عاريين أعلى من مستوى مقاعد السيارة. فراح يسب ويلعن على، وقد أخذ البرد يعض فى عظامه وهو يقذف الأحجار بقدمه . هتف بنفسه.. اهرب.. اهرب.. لماذا لا ترحل. ارجع ألمانيا.. هنا مذبحة لا ينجو منها أحد.. سافر القاهرة. شنو بيك..تعمل عند أخيك وليس أحداً غريبا.. تكون شريكه.. أو اذهب إلى ألمانيا. أكمل دراستك واستوطن هناك..

دار الحوار عنيفا فى رأسه. فلما أقض البرد جسده. ولم يعد قادرا على المقاومة. اندفع إلى المقعد الأمامى خلف المقود الذى امتلأ بلهاث وأنفاس حارة. وبجواره كان سروال الفتاة الطويل ممزقا وبنطال ملقى على المقعد بجانبه. وراح يختلس لهما النظر . كانت الفتاة تصرخ ألما من التواء جسدها وكف قدميها الملتوى ساقطا بين المسندين الأماميين محشورا بين العصا الحديدية لناقل السرعات. المرسوم بالحناء. تتلوى زخارفه إلى الساق يجعله يود لو ينحنى يقبله تقديسا. و«على» يكتم أنفاسها بوحشية همجية.يظنها تصرخ من النشوة. وقد أوشك أن يتمكن منها. قام ونيس غير مدرك لما يفعله. رفع الفتى الضئيل بساعده عنها وألقى به جانبا. ارتمت لاهثة. تكاد تختنق وقد طفرت من عيونها دموع العذاب. وراح على يلعق شفتيه مبتسما. ويسوى ملابسه قال له: دورك. هيا. أجابه: لنرحل.

- دورك ..كنك تدير كيف التيس .
- لنرحل وإلا سوف أترك لكما السيارة ونعود ماشى.
- افعل ما تشاء .
- ضعها كيف جئت بها .

قامت الفتاة المنهكة مشعثة الشعر وفى عينها بؤس ويأس عميق. تنظر إليه نظرة عتاب. كأنها تحمله مأساتها.. كانت تقول بشجن ومذلة كنت أود لو أسلم لك أنت نفسى. فلم تركتنى لهذا الذئب.. دفعها على خارجا. وقفت وقد صفعتها البرودة بعد

المحاولة الفاشلة لاغتصابها. وراحت تنتظره فى ضعة. وهو يبحث فى عصبية عن مفاتيح السيارة فى ملابسه الملقاة على أرضيتها. ولما وجدها أخذ يوسع لها المكان الذى تكومت فيه أول مرة. فأخرج عدداً من الأغراض إلى خارج السيارة ووضعها على المقعد الخلفي.

رفعت قدمها كى تهبط إلى الحقيبة فمد يده يساعدها فدفعتها عنه فى هوان. واستوت على جانبها وحيدة. وناظراها لأعلى. تحت فرجة من السماء مرصعة بالنجوم. هبط الغطاء بقوة وارتطم صوته فى عنف فحل بها الظلام وراحت تبكى الهوينى.

عاد ونيس يحاول ألا ترج السيارة منه وقد امتلأ شفقة على الكابوس الذى تمدد خلفه. لاعنا الطريقة التى كان يقود بها على. أمام نقطة المرور أوقفهما الشرطى يطلب الرخصة والكتيب.

أخرج ونيس للشرطى رخصة القيادة وكتيب السيارة فراح الشرطى يفحصهما. ثم احتفظ بها وراح إلى الحقيبة الخلفية. سأله أن يفتحها فارج عليهما. قال ونيس: اعذرنى ما معاى مفتاحها.. واعتذر قائلا إنه مكسور تستطيع أن تأتى معنا إلى المدينة إذا لم تصدقنا.

نظر إليهما متفحصا. وهو يطرق الحقيبة بقبضة يده. وقد جمد قلب الفتاة من الرعب. ثم ألقى إليه بالأوراق وقال: باهى هيا. تنفسا الصعداء ونزلا المدينة على عجل.

* * * *

أمام حانوته ألقى به ونيس من سيارته. وانطلق يسير فى المدينة على غير هدى. كانت الفتاة قد تركتهم فى حى الساحل وسط العمارات القفرة التى لا تزال تحت الإنشاء.

وفى العاشرة مساء فتح رفعت باب شقته على طرقات

عصبية. وجده أمامه حاملا ديوان الشلطامى (القبعات الحمراء).
الدهشة التى استقبل بها رفعت ونيس سرعان ما تلاشت أمام ما هو أشد إثارة وونيس يطلب منه مساعدة أخيه فى اللجوء السياسى إلى مصر.

الحيرة أم قلة ذات اليد، أم الشعور بالعجز. أشياء كثيرة أخفاها د.رفعت وهو يدارى ارتباكه من فرط قلة حيلته بصنع الشاى. أو القهوة. كؤوس الويسكى التى رأى أنها أفضل رفيق لشرح قضايا كبيرة لنتائج ضنينة.

المعارضة المصرية.. المعارضة المصرية غرقانة لشوشتها فى المعركة ضد توجهات السلام التى يتبناها السادات. المعارضة المصرية .. ثلاثة أرباعها تمول من خزائن اللواء القائد. والربع الباقى من خزائن منظمات المقاومة الفلسطينية.. المعارضة المصرية ليست حرة لتبنى قضايا الديمقراطية فى الوطن العربى..

صمت ونيس مصدوما وهو يتذكر حماس أخيه «سنتعلم المعارضة من مصر..» قال ونيس أخى يعول عليكم واجد. وضع رفعت الشاى أمام صديقه وهو يفكر.. يستطيع أن يتصل برفاقه فى جامعة عين شمس. جميعهم شرفاء ووطنيون مخلصون سيتعاطفون مع طلاب البادية. لكن هل يمكن أن يتبنوا قضيتهم ضد ثورة البوادى.. مستحيل.. قال بعد فترة صمت مدمجة بالحيرة والأسى: أخوك يطرق أبواب الخراب. ولن يجد من يستطيع أن يحمل قضيته لا فى مصر ولا فى السودان. ولا فى أرض الواق الواق.. الحرية ترف.. دعه يعرف ذلك..

قال ونيس بغضب إنه قادم إليه وهو غير مقتنع أصلا بفكرة رحيل أخيه عن البوادى إلى مصر.. هو الذى طلب ذلك. وهو ينتظر عبور الحدود خلال الأسابيع القليلة. وما كنت أبغى أن أتحدث معك. هى الحياة هنا صارت هنا جحيماً لا يطاق..

قاطعه رفعت بعصبية «وقل له الحياة هنا لا تعاش ولا تعاش فى أى مكان فى الوطن العربى. لن يجد من يحمل قضيته.. المعارضة المصرية غير مستقلة. أغلب رموزها مرتبطون. تابعون. يعملون لدى أنظمة الرفض العربية الاستبدادية. ولن يستطيعوا أن يحملوا القضيتين معا.

- أى قضيتين؟

- مقاومة سياسات السلام المصرية. وسياسات القمع والاستبداد القومى العربى. ارتباطاتهم لن تمكنهم من تبنى أية معارضة فى وطن عربى. يمكن منظمات راديكالية ماركسية .. قول لى أخوك ناصرى.. شيوعى .. ملته إيه؟

لأول مرة يفكر ونيس فى الأمر. هز رأسه نفيا وقال حميدة مو ناصرى.. مو شيوعى.. هو وطنى يريد الحرية للبلاد.

- ليبرالى يعنى.. حزب الوفد لم يؤمن بالقومية العربية. سعد زغلول يرى العرب أصفاراً.. قول له لن يجد من يبيع له ليبراليته فى مصر.. يتبقى منظمة أو اتنين أيديولوجيتهم شيوعية راديكالية. أظن هذا صعب على حميدة جدا. طبعا عارف ليه؟

- قولى بيش أشرح له.

- قضية حميدة قضية الحرية .. الليبرالية.. وهذه قضية طوت صفحتها ثورة يوليو.. لن يجد قوى تسانده. طبيعى سيجد أصدقاء من كل نوع.. أصدقاء حقيقيين. لكن لن يجد من يدعمه. يمكن فى بيروت.

ضحك ونيس .. وأضاف رفعت. والسوريون إيدهم طايلة فى بيروت.. إنسى. حرية دلوقت إنسى.

- والناصريين؟

- ناصريين!!

- شنو وحدة شنو حرية.

- حريتك بتكون فى استقلالك.

- والشـــلطامى؟ وأخرج ديوان (القبعات الحمراء) المحظور يعطيه له. أمســـكه يقلبه بين يديه لدقائق وهو مهموم غارق فى التفكير. بغتة أعاده إليه وهو يشعر بالحرج؛ كان يفاضل بين الأمانة والهروب مـــن الموقـــف. فاختار النزاهة. اختـــار أن يكون شـــريفا: قول لأخيك. كل الأنظمـــة الثورية العربية فاشـــية. والمعارضـــة المصرية تعارض الفاشية فى مصر وتتحالف معها خارج مصر.

- طب كيف يعنى.

- معنديش تبرير.. يمكن لسه ما آنش الأوان.

* * * *

- 18 -

اليوم تمت خطبة سالمين على واحد من أبناء عمومتها. استقبلت النبأ بوجوم وظلت غير قادرة على التصديق. ولما قرئت الفاتحة ولم تكن تعرف من هو بعد. ولم تكن لتهتم بأن تعرف. تقبلت الأمر بوجه شابته برودة الثلج. كان المهر ثلاثة آلاف دينار لقاء حليب الأم وكيلو جرام من الذهب. وألف دينار كسوة العروس وأهلها وأقاربها عدا عشرات الذبائح.

بصق ونيس على الأرض ولعن سالمين وجثمت المدينة على صدره. فاندفع يقود السيارة هاربا من جوها الثقيل. كأن شياطين الأرض تطارده. لم يدر إلى أين. عبر الطريق الساحلى بجنون تدهسه عجلات السيارة القوية. والسيارات تنحرف عنه بفزع. تنفتح المنحنيات الضيقة أمامه تحت ضغط سرعتها حتى لا يسقط إلى الهاوية. فيخرج عن الطريق ليندفع الغبار عاليا. ويعود إليه ولا يدرى كيف.

فى القبة جلس تتصادم تيارات الرعب فى رأسه. تنخلع جمجمته. تضيق عيناه يغمضها حتى يروح الغبار. يكفهر الوجه حتى يعود البصر ثانية. وبصعوبة بحث عن أحد يحدثه. وجد ثريا فانتقل إلى جانبها. كأنه يعبر جبلاً وعراً من الصخور وقال: لماذا يدور عمر بين نساء الحضر والبوادى وساقطات مصر وأوروبا ويتركك وحيدة؟

شحب وجهها وندت عنها صرخة. وتوقف مشدوها كيف

خرجت هـذه القذارة من فمه. همس وقد حل بها وجوم: اعذريني .. اعذريني مو أقصد.. بعد صمت قال: كدت ..كدت أقتل إنساناً اليوم.. حتى أنا ..حتى أنا كدت أن أموت صريعا بالطريق ..أنا ..أنا لا أدري كيف نطقت بهذه الكلمات. وراح يعتصر نفسه قائلا: أنا موهكي.. أنا ما أسيء لإنسان قط.. ما أحب ذلك.

بقيت صامتة في برود فقال يرجوها: تذكري .. ما أسأت إليك من قبل.. أرجوك اعذريني . يا إلهي .. إني متعب . كلميني قولي أنك سامحتيني.. لشنو ما تتكلمي .. كان يختنق مطحونا بإساءته. ود لو يبكي لكنه لم يفعلها من قبل. جاءه صوتها برنة سخرية كأن طعنته غير المقصودة بلغت عظامها تقول إنه لم يذكر سوى الحقيقة.. إنها امرأة بلهاء مخدوعة لا تساوي لدى زوجها قلامة ظفر.

- أنا .. أنا لم أقصد قط .. لقد .. وخرجت الكلمات كأنه يقتلع حملا ثقيلا من الأرض: خطبت سالمين اليوم.

قالت في برود: وشنو أسوي لك.

- لا شيء.. إنني آسف. وقام متثاقلا وقد بلغ به العمر أرذله. وانخلع قلبها لمرأى الشيب يخاتل وجهه. غمرتها عليه شفقة عارمة. ومنعت نفسها عن فعل لا تدريه. وهو أن تمسك يده تجلسه بجانبها.

غاب أسبوعا كاملا والقلق يعبث بها منذ أن غاب. خافت ألا يعود ثانية. كانت قد بدأت تتلمس الأشياء مثل طفل يحاور عشرات الصور المهزوزة.. الوحدة التي تعيشها أخذت تحس ببرودتها. وكانت من قبل مجمدة في ديب فريزر. وإذا كانت سالمين قد خطبت فكلاهما بمنأى عن السعادة. وانتظرت أن يجيء لكنه لم يأت. فقررت أن تذهب هي مع عائشة متعللة بمرض أصاب ابنتها صباح. قالت له: إذا كنت قد سئمتنا فما ذنب صباح؟ .أصيب بالتخبط وقال من قبيل الواجب: سوف آتي،

ومر أسبوع آخر قبل أن يأتى وكانت على وشك أن تستقبله بغضب. بقى منفردا. جلست إليه وقالت: تكلم .. أجابها بوجل وكان قد فقد طلاقته: عن شنو؟

- عنها .

- منو؟

- عن.... وصمتت ثم قالت بعصبية ..عنها... عن ... تلك التى تجعلك توشك أن تقتل الآخرين بالطرقات.

ضم عينه متسائلا: سالمين؟

- نعم .

صمت لبرهة يستعيد نفسه. ثم انفك كالسيل. وشرع يحدثها عن حياة الفتيات فى المدينة؛ قصصهن والبؤس الذى يعانينه. الكبت. وسيطرة الأهل على بناتهن. الضياع الذى تسقط فيه الفتيات بحثا عمن يطفئ عواطفهن المشبوبة. السذاجة السطحية والسقوط الذى تدفع إليه الفتيات دفعا. عدم الخبرة بالحياة الاجتماعية. ولما انتهى راح يحكى لها القصص القديمة. ويشرح لها أغانى العلم وعيناها تتفتح على عالم جديد. فلما انتهى حدثها عن لقائه بسلمى. وأغانى العلم التى سبقت لقاءاتهما. وعواطفهما العارمة. وكانت تطلب المزيد. كان يحكى بصعوبة كأنه يستعيد ذكريات قديمة يكتشف حلاوتها للمرة الثانية. وكانت تستمع فى شوق لعناقهما وقبلاتهما ومحاولتهما الصمود ضد عواطفهما. وملابسها التى كانت تجيئه متخفية فيها. لما انتهى وكانت مبهورة. أحست بالتعاسة. لأن العمر سيمضى بها دون أن تلتقى حبا مماثلا .

أصبح متثاقلا تنم حركة أطرافه عن عدم الاتساق. لحظات تستطيل حركة العنق. أو يدور الرأس ببطء ليخفى عدم توارد الأفكار على ذهنه أثناء حديثه مع الآخرين. وإذا ما جالس ثريا محتملا تصرفاتها المتناقضة بملل ودون اهتمام. عندما تحاول خلع ثوب البرود.

أن تكون امرأة تستطيع الضحك؛ سخريتها المستجدة وضحكاتها المفتعلة لأشياء لا تستحق الضحك. قسوتها على طفلتها ثم حنانها الطاغي. تكلفها في التعبير عن الود له. وكان آخر ما يتوقعه منها محاولاتها لفت انتباهه. تقليد ما حكاه عن سالمين. الملابس.. الحديث.. إطلاق العنان لجدائلها وأخيرا التغني بأغاني العلم.

وفي إحدى المرات القليلة التي حملها معه في سيارته من مدينة النساء عائدا إلى القبة، حيث كانت عند عائشة سألته: شنو تقول عني نساء الحضر؟ بقي فترة يحاول استيعاب السؤال ثم أجاب: ما أدري. لكني واثق أنهن يمتلئن بالغيرة والحسد. قالت وهي تشيح له بيدها: مو معقول. تهزر أنت.

- لم لا .. اللواتي طالهن زوجك أو اللاتي حالت دونه ودونهن عفة أو الحياة في قلاع مشيدة معزولة تحت رقابة الحرس.

- كيف ؟

- مثلا.. أختك خيرية ما الذي يثير لديها كل هذا الحنق والحقد عليك؟

- شنو.

- أنت تبدين لهم راسخة بسبب انعدام مظاهر السخط والانفعال عندك. هذا يجعلهن يتصورن أنك أكثر قوة مما أنت عليه حقيقة.

كشرت عن وجهها وقالت: تظن أني أحس بالراحة. أنا أشد شقاء وتعاسة من أي امرأة في العالم. قال ولكنك زوجته. صفقت بيدها غاضبة وقالت وما الفارق بين زوجته أو خادمته أو أي شيء بُكّل؟

- أنت عندهم زوجته الشرعية.

- هه تقصد زوجة جهنم الشرعية.

أدارت رأسها إلى نافذة السيارة ترمق المارة في ضجر وعند

السوق قال لها فى تثاقل إذا كانت ترى السيارة الفيات الصغيرة الحمراء التى تقودها الفتاة، وأضاف إنه سوف يرسل إليها إشارة ضوئية، وأعطى إشارة ضوئية فأجابته بومضات من ضوئها العالى، وعند التقائهما مرت بكفها على جبينها.

رفعت حاجبيها معبرة عن دهشتها، ولم تمض دقائق حتى عبرته السيارة الرينو البيضاء فنبهها، وجاءت الإشارة مصحوبة بابتسامة حارة، ومرت ثالثة ورابعة وخامسة كلهن كن يحيينه تحيات حارة، أما نزيهة فقد صاحت عليه مثل صبى «وينك دكتور ونيس واحشنا واجد».

عقبت ثريا بسخرية: كل هادول الصبايا.. ما عندك فراغ بُكّلْ.

كانا قد غادرا المدينة عندما شرع يحدثها.. هذا لا يحدث له فقط، بل للآخرين، ورغم أن لا أحد يعرف بما يحدث للآخر، فالأحمق هو من يظن أنه المرغوب الوحيد.. زمان كان هناك فى البوادى « بيت الجلاس» فيه يقيم البدو ندوات السمر، تجلس الفتاة تتصدر المجلس وخلفها الفتيات، ويأتى الفتية من كل مكان بعد أن سمعوا بما بلغته هذه الفتاة من شأن فى السريب وصوب خليل، ويأخذون فى السمر وتبادل الألغاز والأحاجى، فإذا تورط شاب، فى لغز أو أغنية وعجز عن الرد فإنه يتنازل لها عن رهينة ويرحل، ولا يعود إلا إذا عرف الجواب عندها فقط يستطيع أخذ رهينته، وما يحدث للفتى كان يحدث للفتاة أيضا، والناس فيما مضى كانوا ينظرون إلى « بيت الجلاس » نظرة احترام وتقدير وكان الجنسان يتبادلان الاحترام، ولا يوجه أحد كلمة نابية إلى الآخر، وكان الأب والأخوة، يتركون الدار قبل قدوم الشباب، فكان بيت الجلاس مدرسة بدوية يتعلم فيها الشباب من الجنسين حرية فنون الاختلاط والحياة، كانوا يحضرون المجالس وهم على مستوى أخلاقى رفيع، فيبرهنون أن الوسيلة المثلى للتحرر من العقد العاطفية والاجتماعية، هى اللقاء بين الجنسين قبل الزواج حتى يتعارفا، هكى كانت الفتاة فيما مضى

حـرة تختار مـن تتزوج. نحـن الآن لا نجد مـن يحل لنا مشـكلاتنا الجنسية والعاطفية بل الحياة تصبح أكثر تعقيدا.

أدارت رأسها إليه وقالت فى تعبير الاندهاش: صار هكى.

- باهـى سـأحكى لك واحدة من أشـهر قصـص بيت الجلاس فـى البوادى.. يقولون إنـه كان هناك ابنة لواحد من أكبر مشـايخ القبائـل. يضربون بها المثل فـى الجمال والأخلاق والذكاء. رغم صغر سنها كانت مرجع فى حل أحاجى السريب التى يحكونها فى بيت الجـلاس. فأقام لها والدها «بيت الجلاس» وأقسـم أنه لن يزوجها إلا للشـاب الذى يسـتطيع أن يتغلب عليها فى أغانى العلم وصوب خليل. فأقبل الفرسـان والشبان الموسرون يحجون إلى خيمتها من كل صوب وحدب. فيمد السـماط بطعام العشـاء والشاى. ويرحل أبوها وإخوتها ويتركونها مع بنات القبيلة. والشـبان. ويظلون حتى آخـر الليل. ويعـودون وقد جردتهم من أسـلحتهم رهينـة إلى أن يجدوا حلا لألغازها وأحاجيها التى كانت شديدة الصعوبة عليهم. فيرحلون إلى البادية يسـألون الشيوخ والعجائز حلا لألغازها. حتى فاضت خيمتها بالدروع المزخرفة. والسـيوف الهندية ذات النقوش الجميلـة. وكانت قبيلتها على خلاف مع قبيلة أخرى مات من أجله مئات من فرسان القبيلتين.

وفى أحـد الأيام عرض شـاب ملثم منازلتهـا. خرجت الخادمة وأمسـكت لجام فرسه تدعوه للتفضل بالدخول لكنه غضب وشد لجام فرسه نحوه ورحل وهو يردد

يصقّصْ عَلىْ قْدَارْ عنْدِى   العَقَلْ , يا بَالْ عَ الجفا

عاد الشـاب من حيث أتى وأخبرت الخادمة سـيدتها وتلت على مسـامعها الأغنية. فابتسـمت الفتاة واسـتمرت فيما كان عليه مجلسها من سمر.

فـى اليـوم التالى رأت الخادمة شـاب الأمس مقبـلا من بعيد.

فنبهت الفتاة فقامت من مجلسها واستقبلته بنفسها. وأمرت بأن يعنى بالفرس وقالت إلى الشاب الذى ألقى عليها بالسلام.

«سلامكْ تمكَّن.. وعِظامكْ أرتكنْ»

«وهات لى ستّين غنّاوة علِىْ صوب العَزيزْ يبكّنْ»

فرد قائلا

«ما يبكّى عَلَىْ صوبْ العْزيزْ .. الا الْياسْ والمْوْحْ والجفا»

لم يكن الفتى مبتدئا فى أغانى الصوب . أجابها إجابة مختصرة. حيث لا يُبكى فى الحب سوى ثلاث اليأس والبعد والجفا. وكان هذا أول اختبار له اجتازه بنجاح. لهذا دعته إلى دخول البيت قائلة له: خلى رأسك وكرعيك برة البيت وتفضل. فخلع غطاء رأسه ونزع حذاءه ودخل. فلما دخل ألقت عليه بكلمات وكان عليه أن يضعها فى واحدة من أغانى العلم فقالت «سلام» .. فأجاب :

«سلاَم غَالْبه الكلام   منْ ضيمْ يا عَلَمْ نار الغَلاَ »

فى اليوم التالى عاد الشاب فاستقبلته على الفور. وكان نجاحه أثار لدى شبان القبيلة والفرسان القادمين من أجلها الغيرة. فترصدوه ليعرفوا من هو. دعته قائلة:

«تريح نحطوك فى عَشَانا »

فاتخذ الفتى من مداعبتها منفذا ليحدثها عن نفسه فقال:

لانى قديدا منشر ..   ولانى شحم ضان غاوى

ولانى سمنا محلي.. نين نتوكل ع الشهاوى

ونطيح فى عشاك نموت..نبقى طليب ليوم القيامة

فكشف بذلك عن سره. حين قال إنه لو وقع فى عشائها سيموت ويسعى أهله للثأر له. ويطالبون به حتى يوم القيامة. ذهبت تتصدر بيت الجلاس وجلسا وسط الفرسان لا يعلم أحد

عما يدور بينهما. واستمر السمر بين الجالسين وبقى هو صامتا. استدارت تفاجئه وقالت:

لا تكلمنى لا تقول ياهيه
نين تطرح لى طرف السما نقعد عليه

وكان الفرسان عرفوا فيه ابن شيخ القبيلة التى تعاديهم فقرروا أن يفتكوا به وعرفت هي. حدق بها وفكر ثم قال:

نجيب لك هجين أسود من لون العوين
يصب على كراعيه ويجيب السما بيديه
حصير تحت عازات خاطري

فعادت تتصدر المجلس وقد أمرت أن يذبحوا لها شاة ويسلخوها. وطلبت من أحدهم أن يقوم على تقطيع اللحم واستمر السمر حتى سألته «صنم» . فأجابها :

صنم شكيت له م الياس جبر بخاطرى قال يقسموا

فأطرقت برأسها وقالت «غصب» فحلت به الدهشة قال»

«نشيل من غفا وأمان.. ونقيم غصب فى أوطان الجدب»

فحلت شعرها وكشفت عن طلعة بهية. سرت الهمهمة بين الحاضرين وجيء بالشاة أمامها. دعته ووضعتها أمامه قائلة: أريدك أن تقسم الشاة كما أطلب منك. ضع الرأس مع جلد الشاة فتغير لونه وامتقع. وفعل ما طلبته منه. استطردت أن يذهب بالعين ناحية القرون. توقفت أنفاسه وشلت جوارحه. منتظرا ما ستقوله. ران الصمت على الجميع الذين لم يعوا شيئاً ما يقال. رأوه يتهلل فرحا عندما قالت: وضع الكراعين مع القلب.

سأل ونيس ثريا هل فهمت شيئاً؟ أجابت بالنفي. قال: قطع الرأس كان يعنى أن موته الليلة. والثانى كانت تدله على وسيلة

نجاتـه. الرحيل إلى الجبال البعيدة. وانتظر قولتهــا الأخيرة بعد أن تمكن حبها منه. وهو أنها ســتتبعه إلى آخر الدنيا. فالأقدام تسير أينما يستجيب القلب.

فى الفجر جهز هودجا أســود وهربا فى غائم الليل نحو الجبال البعيــدة. حيث انتقلا من حياة السـخاء والأمـان. إلى حيث الجدب ووحــوش الجبال والصحـراء حيث ماتا معا. ولم يكن مســها فقد كان حبهما عذريا . وعلى جثتيهما تم الصلح بين القبيلتين وانتهت حرب ضروس بين أبناء العمومة.

* * * *

فــى الليل جافى النوم المرأة الصغيرة زوجة أكبر أثرياء الشــرق. ولما جاءهــا كان يصطحب أحـلام المراهقة. تتلمس الأحـلام والخيالات والصــور التــى تصنعها أســاطير الشــرق. طهــارة الفتــاة وعفة الفتى.الحزن الرومانسى للنهايات المفجعة..

فــى الصباح كانت تنظر بقداســة مأســورة إلــى قمم الجبل الأخضر.

فــى اليــوم التالى قاطع ونيــس ثريا وهى تحكــى لابنتها قصة الأمــس. وألقى بلغز طلب منهــا أن تأتى بحله. ضمــت ابنتها إلى أحضانهــا وتمايلت جذلا. وحل بها فــرح وطرب طفولي. تطلعا إليه مترقبين.

عندى ثنى..نصه طايب ونصه ني
ونصه يدور فى الغلم حي

وضحــك وضحكت صبــاح. ضحك ثلاثتهــم. وامتلأ بالســرور وانثنت ثريا بجذعها تقلد شاة تســير وتطلق صوتا يماثل صوت الشــاة. لكنها توقفت فجأة بجــد واهتمام: بدك رهان. صح. فأجاب غير مستسيغ للفكرة «لا .. لا يهم»

- كيف هكذا؟ ما ينفع. واستدارت لابنتها تسألها «شنو نعطيه يا صباح .. أبوااااه .. خذ المصحف هذا.

- ما فى داعى .

- كيف ما فى داعى. يجب أن تأخذه بيش يصير السريب صحيح.

فأخذه وهو يقول: هكى ستفقدين أشياء كثيرة .

فأجابته فى تحد: ..هه .. هكى أنت تظن .

وانطلقت ثريا وخلفها ابنتها إلى مجالس العجائز بالمنازل المجاورة. تتمسح بهن مثل هرة صغيرة. وتتحين الفرصة التى تمكنها من معرفة جواب اللغز ولم تجد ردا. حتى راودها اليأس. امرأة عجوز تعيش على حافة الربع. أخبرتها بالرد الصحيح . فرحها جعل العجوز تلقى لها بلغز آخر. عصر اليوم التالى جلست وبجانبها صباح على مدخل الحوش الداخلى على نار تنتظر قدومه. لما عبر المدخل الأمامى طلبت منه المصحف. وفى صوتها نبرة انتصار. أعطاها إياه مستسلما.

قالت: باهى وهاك الرد:

«ناكل الطايب ونشوى النى ونلحق اللى يدور ف الغيم الحي
ونطولو أدراج غلاك اللى صعاب ف الروز يا علم»

هز رأسه وقد عادت له ابتسامته الواسعة وهو يقول تتعلمى بسرعة واجد.. لم تجبه بل أخذت سلسلتها وهى تنبهه أن يستعد غدا فالدور عليه.. وظلت متوثبة تترقب مجىء الغد. وبلغ بها القلق والملل من الانتظار ما يحل بمن ينتظر لقاءه الأول. وحتى جاءت الظهيرة فى اليوم الثانى. كانت الرغبة فى مجيئه قد عصفت بها. واتخذت مجلسها بجوار المدخل الداخلى وقد ضمت شعرها. وألقت بخصلة سوداء على طرف جبينها تخمش عينيها فى جاذبية يصعب تفاديها. وبجوارها ابنتها مرتدية رداء وطنياً جديدا يلمع بألوان زاهية. فلما جاء ونيس ألقى لها بسلامه كالمعتاد. وكان ردها سريعا متحفزا:

«تره قوللى على شاه..تمشى بلا مفصل»

وقف ونيس يحدق بها مشدوها فى بلاهة وهو يتساءل: شنو؟ فرددت عليه حديثها ولما انتهت قالت وهى تقول بلهجة جافة تصفق بيدها وتمدها نحوه: الساعة. أعطنى ساعتك. فقامت الطفلة نحوه تجذبها من يده. استاء وطلب منها الصبر. وأن تعيد ما قالته.

قالت . لآخر مرة أعيد .. أيواااا ... لآخر مره.. كانت طفلة تلهو صبية من المراهقات والبشر الذين يبحثون عن طعم للسعادة.

فى اليوم التالى قال لها وهو يضحك بسخرية إنه إذا كانت تريد حلا للغزها فعليها أولا أن تعطيه الساعة. وثانيا أنه غير مسئول عن معناه وعليها ألا تغضب.

- شنو مو على مسؤوليتك ...... شنو تقصد ؟

- هكى ومش من تغضبي.

قالت بثقة إنه لن يوجد ما يغضبها. والحقيقة أنه يراوغ ولا يعرف الحل. ولن يأخذ الساعة. قال على ألا تغضب. فهزت رأسها بالموافقة.

- ويبيى.. لشنو أغضب هيا أجبني..

- هاك هو

«على ما مشيت .. بين الشمس والظل»

«ما ريت شاة تمشى .. بلا مفصل»

«الا بزازينك .. ووحى الحجل »

ندت عنها صرخة وهى تمسك بنهديها. قال مؤكدا أن هذا ليس ذنبه. وضحك وطلب ساعته. وهى تتجاهله بعصبية. أسرعت إلى العجوز تسألها ثم عادت وأوعزت إلى ابنتها أن تعطيه ساعته. لاحظته يحدق فيها وعلى وجهه ابتسامه. وعيناه على صدرها. فمدت يدها مستاءة تسوى من ثوبها ودخلت إلى باحة الدار ترسم الغضب وداخلها ينتعش بالبهجة.

طـول اليـوم تابعـها. يلمـح جسـدها البض داخل الـرداء الذى التـف حول خصرها فـى ثنيات متكـررة. وعاد يعلـو كتفها الأيمن ليغطى نهداً ويترك الآخر تحت بلوز مشـدودة تجعله نافرا مثل طير يقاتل من أجـل التحليق عاليا. وكلما التقـت نظراتهما تجاهلته. وألقـت ببصرها إلى صدرها تدعى الاسـتياء. على سـوء اختيارها. على العشـاء وعندما التقت نظراتهما صدفة. لم تستطع أن تمنع نفسها دون أن تنظر نحوه من أن تنفرط فى الضحك.

ضحكت مثله تماما ضحكة صافية امتلأ بها فضاء الغرفة. نظروا إليها مندهشين. يرونها تضحـك لأول مرة بمثل هذا الصفاء. بمثل هذه الحرية. لم يفهم أحد شيئا. وحدها أمه التى شعرت بالقلق. لقد سمعت على ثغر ثريا زوجة ابن زوجها ضحكة ابنها ونيس ..

* * * *

لم يكن هناك شـىء مثير على طـول الطريق الذى كان ونيس يقطعه باتجاه القبة. عدا قوافل المصريين النازحة فى اتجاه الشـرق ليل نهار. البرجوازيون من فنيين وأطباء ومدرسين ومقاولين عادوا فى سـيارات محملة بأطنان من الأجهزة الكهربائية. والحقائب المحملة بالملابـس. والأدوات المنزلية. ومئات الأشـياء الصغيـرة. أما العمال والفلاحـون والأنفـار فقد حمل كل منهم علامته الشـهيرة: راديو ومسـجلاً. وحقيبة ملابـس رخيصة. تحمل هدايا لأسـرته وعائلته وجيرانه وورقة صغيرة أخذها من مهربى النقد ليتسلم بها كدحه القليل جنيهات مصرية من أحد العملاء بالقاهرة أو الإسـكندرية. وعـدا ذلك كانت حوادث الطريق التى تسـببها السـرعات العالية على المنحنيات الخطرة والسـيل المسـتمر من القوافل العسكرية والمدرعـات والعربات المحملة بالجنود التـى كانت تتحرك طوال الليل باتجاه الحدود. وكانت الحيرة تسلطت على عقول الناس الذين كانت مصالحهـم تضار بشـدة.. هل تقـوم الحرب؟ لم يكـن أحد يصدق..

وترقب الناس على جمر من نار بوادر انفراج للأزمة.. لا شيء مضمون بعد. لقد سبق ورحل المدرسون المصريون من العراق والمغرب بملابس النوم أيام عبد الناصر.

وردت أنباء عن حدوث اشتباكات متناثرة، نجم عنها حدوث إصابات وقتلى وأسرى من الجانبين. هل يهاجم الجيش المصرى..؟ تساءل أهل البوادى والحضر وعلى وجوههم دهشة مريرة. أين ستذهب رغبتهم الصميمة للقتال جنبا إلى جنب مع الشعب المصرى فى يونيو 1967 وحزنهم المرير للهزيمة. وقوافل المساعدات التى كانت تمر على طوال الطريق الساحلى فتقدم النسوة والعجائز والأطفال حليهم ونقودهم والأغطية والملابس إبان الحرب ..هل تقوم الحرب. وكان رفعت يقول: رغم أننا أهنا عن قصد أو بدون. فإن لكل رعية رب. واللواء الركن يرعى الفقراء. وجميعهم يجهزون له طعنة بروتس.

واكتفى ونيس بنوبات اكتئاب. يتابع تقلصات أصابعه غير الإرادية. يتوجس عندما يفقد السيطرة على عضلات فكه. ويطحن أضراسه عاجزاً عن أن يرخى فكه.. كان يأكل نفسه غير قادر على الخروج من دائرة شجنه. لم يعد يهتم بمظهره. طالت أظافره واتسخت قمصانه. يذهب إلى عمله غير حليق. وتسيطر عليه فكرة احتقار الجميع. متخلفون وأغبياء.. يوما ما حاول أن يكون مبتذلا.

فى شرفته مازح نزيهة عندما أشار إلى قميصها الداخلى القصير متسائلا إذا ما كانت تجده طويلا . وضعت كفها على فخذيها تمسك بذيل القميص وعيناها تنتظر جوابه «هل أرفعه أكثر من ذلك». ورفعته بالفعل ليظهر باطن فخذها. صمت فترة مدعيا التفكير وهى لا تحيد عيناها عنه عندما قال كفاية هكى مليح، خلى الباقى بكرة غادى. هزت كتفيها وهى تلعق شفتيها بلسان أحمر طويل وقالت وهى ترفع حاجبها «كيف ما تبى. أعطنى سيجارة .. واستطردت فى همس .. يمنعونها عنى».

ضحك وقال فى سخرية «أووووه... ما لهم حق».

- الأشـياء الممتعـة قليلة .. هى نـادرة ... فاصطنع الدهشـة وهتف: حقيقى ... حتى الرائد.

فعلـت بيدهـا فعـلا قبيحا وهـى تـزوم. فقاطعهـا قائلا فى سـرعة وهو يصفق جبينه مشـيرا إلى نهدها الـذى بدا عاريا تحت قميصها: من أين اشـتريت مشـد الصدر؟ أجابـت فى تعجب: أى مشد الصدر.

- هذا الذى لا ترتدينه. صمتت لفترة ثم راحت فى ضحك طويل قطعته وهى تحاول كتمانه وقالت وهى تنظر إليه فى جاذبية: صرت خطيراً واجد يا دكتور. شنو جرى لك. فقدت حبيبتك؟

سألها مسرعا أن تأتى. سألته أين؟ أشار إلى شقته. قالت فى تعجب «عندك لماذا؟». شـعر بالارتباك وضاعت منه شجاعته. قال لنتعارف. قالت ألسـنا نتعارف هنا . زاد اضطرابه. عرفت أن سلوكه المبتذل أكثر تهذيبا من أن تحصل منه على شـىء. اسـتطردت فى برود: آسفة . ساد الصمت ثقيلا. ها هو ترفضه عاهرة. لعن سالمين وكل العالم والناس. وانسحب والعرق البارد يغمره.

اليـوم كان يجـوب الشـوارع مكفهر الوجه حائر القسـمات. لمحها من ظهرها فجأة تسير بين أختيها مخذولة الساقين ضائعة. عبرها بسرعة وعند التقاطع التالى عقد مكابح السيارة. ارتطمت مقدمها بالأرض وهى تئن تحت سـطوة الفرامل. دارت السـيارة فى سـرعة وعاد إليها فى لهفة. كان الذعر يرتسم على وجه سالمين . التقت عيناهما ورفع لها نظرة طويلة ملتاعة. حملها كل الأسـى والحـزن الذى يعتمر قلبـه. رغبته كى ينحنى علـى قدميها يبللها بالدموع يغسـل الشوك عنهما. وأحست بساقيها غير قادرة على أن تحملاها. كادت أن تخر مغشـيا عليها. شـعرت بأنها المذنبة. وأن جرمها المشـهود يعلن عن وجوده للجميع. ولما صف سـيارته وعاد كى يحدثها كانت قد فرت من الفزع وداخلها يتناثر ذرات للرياح.

بحـث عنها فى الأزقـة المجاورة. وزنا بناظريـه إلى آخر الطرقات

يخمن الاتجاه الذى رحلت إليه. ولما انتابه اليأس امتلأ صدره بالغضب والكراهيـة. صب عليها حقدا مريرا لتورطه فـى حبها. تيقن أنها أضعـف من أن تقف بجانبه فى شـجاعة تواجه الجميع. وبعد أيام قضاها على فراش اليأس قفل راحلا إلى القبة.

اسـتقبلته ثريا بعتاب. فراح يمضى الوقت بينها وبين ابنة أخيه. وقد ازدادت كآبته لا يخرجه منها إلا حكاياته لصباح وأحاديثه لثريا.

فـى إحـدى الليالـى وكان يحكى لصبـاح وهى تجلـس أمامه تصغى فى انتباه شديد. وقد وضعت وجهها بين كفيها الصغيرين قصة علم وسـلطنة وأقبلت ثريا مبتهجة. تسـأل ابنتها وتصيح بها أنها دائما ما تسـتولى على عمها. وسـألتها ماذا يحكى لها. قالت الطفلة لأمها وهى تشير إليها بالصمت: جعمزى واسمعى. وأضافـت وهـى تلتصق بعمهـا مثل هـرة صغيرة. تمد سـاعديها الرقيقـين فـى الهواء: حكاية كبيرة واجد. وراحت تشـد سـاعده تدفعه للاستمرار.

قـال ونيس: منذ مئات السـنين لم يكن خلـف الجبل الأخضر صحراء بل أراضٍ خضراء ومدن مصنوعة من الذهب والفضة. يعيش عليها شـعبٌ عظيم بلغ من الحضارة شـأناً كبيرا. والناس تعيش فى سـعادة وحب. كانوا يختارون ملكهم كل عشـر سنوات. يأتى العامة والناس من كل البلاد. وتقام الاحتفالات سـبعة أيام. ويقف فى السـاحة الضخمة أمام قصر الملك الفلاسـفة وأكثر الشيوخ تقوى وأعدل القضاة والعباقرة من العلماء. أشـجع الفرسان . فإذا اجتمـع الصالحون أطلقت عشـر حمامات للفضـاء. الحمام يعرف عيون الأشـرار والأخيار. وهو الذى حمى الرسـول عليه السـلام فى كهفـه من الكفار. ومكانتـه محفوظة فى الجنـة. ولما يقف على رؤوس عشـرة يكونون هم مجلس الحكم بالمملكة. ينصبون منهم ملكا كل عام ويبقى البقية له مجلساً للشورى.

قاطعتـه ثريا ومـاذا عن «علم»؟ طلبت الطفلـة من أمها فى ضجـر أن تتركه فهو يحكي. فقال لثريـا اصبرى أنا نحكـى.. نظرت لهما فى سخط وصمتت.

كان الحكم لأكبر شـيوخ المملكة وأكثرهم تقوى وحبا للخير. وكانـت له فتاة ذاع صيتها لحسـن أدبها وكمـال جمالها وذكائها. وكانت محاربة تبز الفرسـان فـى ركوب الخيل والمبارزة بالسـيف.. ومرت الأيام حتى جاءه منام قام له مذعورا. رأى حية ضخمة بسبعة رؤوس تفح من رءوسها ألسنة النار. تهاجم البلاد والقرى. وتحل بها الخـراب والدمار. فدعى الملك الكهنة ورجال السـحر والعرافين كى يفسـروا حلمه. فعجزوا جميعا عدا الناسك ذى اللحية الذى جاب الهند والسـند ونزل مصر وراح الصـين وعاد بعلم غزير. وكان طول لحيته يبلغ عشـرين قدما. يحملها أمامه عشرة من تلاميذه. وأمام الملك طلب الإذن بأن توضع لحيته أمامه ويذهب الجميع.

قـال الناسـك ذو اللحية: الأمر خطير يا مـولاي. الإله الأعظم حامينا. وَجَدُّ آبائنـا الأولين. مرض مرضا خطيرا فقدم له إله الطب دواء كـى ينام نوما عميقـاً. حتى يؤذن له بالشـفاء. فلما علم إله الظلام بالنبأ. أعلن الحرب على آلهة السماء. وهو فى غضب شديد لأننـا ما زلنا بعد أوفياء للرب الأعظم. ولا نقدم له النذور والقرابين. فاجتمع وقرروا أن يطلق علينا إله النار والقحط عقابا لنا .

قال الملك فى حزن: وماذا تشير على؟

- ارحل يا مولاى أنت وابنتك الأميرة إلى الشرق حتى يفيق الرب من نومه فيحل السـلام علـى الأرض. غضب الملك غضبا شـديدا وصاح: ما أحسن تفسيرك وبئس تدبيرك. لو لم تكن صالحا لقدمت رأسك قربانا للآلهة. ورميت جسـدك تنهشها الضباع والكواسر. ودعا الملك لاجتماع حضره حكماء وعلماء المملكة. فعرض عليهم الأمر. واستقر رأيهم على اعتبار العام عاماً للصلاة والدعوة بانتصار

آلهة السماء وقيام الرب الأعظم من غفوته. وأن تقدم القرابين مضاعفة ثلاث مرات. على أن يترك للناس حرية البقاء أو الرحيل.

قال الناس: أين نذهب ونترك حقولنا ومنازلنا. إن تمت أراضينا ومزارعنا تمت معها. بعد سبعة شهور جفت الأنهار. ولم ترسل السماء المطر. اجتمع مجلس الحكماء من جديد وقالوا: يجب أن يرحل البعض منا فإذا حدثت الكارثة كان هناك من شعبنا من يعود ويعمر بلادنا ثانية. واختاروا من كل بطن. وكل قبيلة. وقرية ومدينة. عدداً من أحلى نسائها وأقوى شبابها. وجهزت كوكبة من الفرسان البواسل لحماية القافلة من غائلة الطريق. يوم الرحيل خرجت البلاد تودع أحباءها فى غم شديد. لكن الركب توقف عن الرحيل وذهب وفد إلى الملك وقال حكيمهم: بئس ما أقول يا مولاى لكن عند البلاء يزول الخجل والاحتشام والعاقل من يتبصر يومه وغده. يطلب النسوة والأطفال ويهتف الرجال والشيوخ. نريد منك أثرا يبقى على أفئدتنا وقلوبنا فى السفر. نريد حكمتك وشجاعتك وفداءك لأهل البلاد.

أجاب الملك: عجل وقل شنو تبى. ينفذ طلبكم على الفور. أثقلت على.

تنهد الرجل الحكيم وقال: سامحنى بحق الإله. نريد ابنتكم طلطلة.

بكى الملك وقال: وتتركونى وحيدا. قال الحكيم فى شجاعة: معك الشعب يا مولاى. فكر الملك ومسح دموع عينه المتساقطة ثم قال: باهى.. كما تشاءون.

رحل الركب ميمما شطر الغرب. ولم يجدوا سوى الجدب والقحط والصحراء القاحلة. وقلت عيون الماء. والرياح تحمل إلى أنوفهم وأفواههم ذرات الغبار والرمال. وطلبت منهم طلطلة أن يلثموا وجوههم حتى لا يدخلها الغبار. وعند الجبل الأخضر قالت

لهم: سنرحل إلى الجنوب حتى نختفى من آلهة الظلام. فتقدمها الرجال كالأسود. حيث أقاموا فى قلب الصحراء فسيطروا على مداخلها وروضوا ضراوتها. وحفروا الآبار وعيون الماء. وأقاموا مدنا جديدة فى قلب الصحراء وأطرافها من بقايا المدن العظيمة الغابرة. ومرت مئات السنين. والناس كلما ماتت ملكتهم يولون ملكة عليهم من أجمل النساء وأكثرهن فروسية وشجاعة وحكمة.

وكانت الرسالة قد نزلت على سيدنا محمد. وأذن له بنشرها على العالمين: وشد العرب الرحال إلى الشام. وبلاد الرافدين وأرض فارس وبلاد الهند. وبلغوا مشارف الصين. ونزلوا مصر فاستقبلهم أهلها استقبالا حسنا. ففتحوها من غير حرب. ومنها انطلقوا إلى البوادى فى جيش ضخم يقوده أشجع الأبطال وأعظم الفتيان حتى بلغوا إجدابيا وهناك قامت حرب شعواء بين العرب. وأهل البلاد الأصليين من البربر من قوم طلطلة. لاحظت ثريا أن ابنتها صباح غطت فى النوم. وقد توسدت ذراعه. همس لثريا إنها نامت. سوف يكمل الحكاية لها غدا. وحملها إلى غرفتها. وتبعته هناك يمدد الطفلة على السرير واستدار خارجا. سألته فى رقة غير معتادة إذا ما كان تناول عشاءه.

فى مساء اليوم التالى جاءت صباح تجر جدتها والعجوز تسير وراءها غاضبة وهى تشير لعمها وتقول: « اسأليه لشنو أنت خايفة». صاحت العجوز وهى تشير لونيس «أنا أخاف من هذا الخرفان». الذى سأل بدهشة «أنا.. خرفان لشنو». قالت ثريا من الصبح تحكى لجدتها الحكاية. وجدتها تقول هذا تخريف فى تخريف. وصباح تقول هذا مو تخريف. وعمى ونيس ما يكذب بكل

ضحك وأخذها بين أحضانه. وقال لأمه أن تأتى وتسمع بقية الحكاية. وصباح تجرها حتى أجبرتها على الجلوس.

عندما جلست المرأتان والطفلة قال ونيس صرت أحكى

الحكايات كيف المربيات ثم قال لصباح: وصلنا أمس إلى الحرب بين العرب وطلطلة. فقاطعته العجوز: شنو طلطلة هذه. صاحت الطفلة «ترى اسمعى وأنت ساكتة». تبادلت العجوز وثريا الابتسام وجلست مستسلمة. قال ونيس: إن الحرب كانت على أشدها. وأبلى العرب والبربر فى الحرب بلاء حسنا. ومرت الأيام والأسابيع والمعارك لا تنتهي. وكان بين العرب فتى قرشي مقدام وفارس لا يشق له غبار. يحارب وفى يده سيفان هنديان. وسمى بـ «علم» لأنه كان يحارب الأعداء وعينه على راية العرب. فإذا سقط حاملها سارع بحملها. حتى يتناولها آخر. فيعود إلى القتال. وكانت طلطلة التى سماها العرب سلطنة تقود جيوش البربر بنفسها. وبعد حرب ضروس مر عليها أربعون يوما. قرر الجانبان عقد هدنة يتم بعدها النزال بين أبطال العرب والبربر. وفى اليوم الأول جرى القتال والنزال بين الفارسين. وامتلأت الأرض بالغبار ساعة من الزمن وانجلت المعركة عن الفارس العربى شهيدا. وهلل البربر وقال العرب اليوم لكم وغدا لنا. وفى اليوم الثانى استشهد فارس عربي آخر. وخيم على البربر الفرح بنصرهم. وعاد العرب إلى خيامهم وهم فى غضب وألم. قال علم : إننى منازل أبطالهم غدا. ولسوف ينصرنى الله ويؤازرنى بنصر من عنده. غضب كبار الفرسان أن يسبقهم علم فى خدمة الإسلام. لكنه ذهب إلى أمير الجيوش يرجوه أن يسمح له فوافق. وفى اليوم الثالث كر البربرى على علم والتحم الخصمان وقرعت السيوف وتعالى الغبار ولهثت الخيول. ولم تمض الساعة حتى جندله علم صريعا من فوق جواده. فهلل العرب وصاحوا بالنصر. وطوال أيام ثلاثة جندل ثلاثة من أعظم فرسان البربر. سألت طلطلة: من هو هذا الفارس؟ فقالوا هو من أشجع فرسانهم وينتسب إلى نبيهم القرشى.

قالت طلطلة وحق آلهتنا ليس له سواي. وفى اليوم التالى ارتدت خوذتها الذهبية. وتمنطقت بعدة حربية من الفولاذ المطلى

بالذهب والفضة. وأخذت درعها المرصعة بالياقوت والزبرجد على سيف ماض يبرق من حدة لمعانه. وعلم ينادى فى ساحة الوغى. هل من مرادى أذيقه الهوان من حسامى؟

فخرج له فارس ملثم رشيق البنية خفيف الطوية على فرس عجماء كبيرة. تدور بغرتها البيضاء الأصيلة . ونظر علم فزاغت عيناه من الأشعة التى تلمع على دروع الذهب الذى يغطى الفارس. سكنت الساحة وعم الصمت وكأن الناس على رؤوسها الطير. وكالبرق اشتبكا. فزلزلت الأرض زلزالها. ودمدمت السماء نيرانها. والاثنان فى كر وفر حتى غابت الشمس. فعاد كل منهما إلى معسكره فى انتظار لقاء جديد.

فى المساء وبينما علم نائم فى خيمته. استيقظ فجأة ليجد شبحاً ملثماً فانتفض يسأله: من أنت. فأجابه: أنا رسول من الفارس الذى قاتلته اليوم. سأله وماذا يريد؟ فقال: يبلغك السلام ويقول كنا نحيا فى وئام حتى جئتم شاهرين سيوفكم. حاملين المنية. ولو جئتم مسالمين لفتحنا دورنا ولصرتم منا ومن أهلنا. وهو يقول لك. أنت فارس عظيم تعز عليه أن يروح شبابك وتشرب الرمال دماءك. فاجنح عن القتال غدا وإلا فهو قاتلك.

صرخ علم وقال ما نحن باللصوص الأفاقين. ولا طلاب حرب مجرمين. ولكننا جند نحمل رسالة السماء. أنزلها الله على آخر النبيين محمد الأمين. الذى أرسل هدى للبشر أجمعين. يأمر بما أمر الله بالحق وينهى عن المنكر. ويقيم العدل ويساوى بين الناس فى الدنيا والدين. والناس عنده سواسية كأسنان المشط لا فرق بين عربى وأعجمى إلا بالتقوى. هذا ما جئنا لنبشر به فأخبر صاحبك: أسلم تسلم. تلك رسالة الإسلام. فيحل السلام بين الناس. ويسود الأمان. وأما فليعلم أن الموت عندى أحب من الحياة. والشهادة فى سبيل الله فوز عظيم وإنى لقاتله بإذن الله.

قال الشبح الملثم: أعذر من أنذر وغدا لناظره قريب. فقال علم ارحل يا لئيم. وما أبقى عليك إلا لأننا قوم نحترم الضيف ولا نؤذى من نزل ديارنا.

وفى اليوم التالى تأهب علم للقتال وخرجت سلطنة فى لباس حربى من الفضة مزينة بالياقوت الأزرق والزبرجد الأحمر. والتحما فى قتال ساعات وساعات دون أن يستريح الفرسان. وصاح علم الله أكبر وهجم هجمة الأسود وضرب سيفها فصارت عزلاء. ووقعت من على ظهر جوادها. وصمت البربر وشهق الرجال يشهدون ملكتهم توشك على الموت بسيف العربي. قال علم: نحن العرب لا نأكل الجيفة ولا نستحل محرمة. نقدر الشجعان. خذ سيفى يا همام وانهض إلى القتال. ورمى بأحد سيفيه إلى طلطلة وعادا إلى القتال حتى آذنت الشمس بالمغيب فعاد الفرسان كل إلى معسكره والبربر فى تعجب لأخلاق العرب الحميدة.

وفى الليل استيقظ علم فجأة فوجد الشبح ماثلا أمامه. فصرخ يسأله: كيف دخل وماذا يريد؟ وألا يخاف المجيء وقد حذره بأنه قاتله. قال الشبح يا بهى الطلعة.. مولاى يقرئك السلام. ويقول بل أنت الهمام ولكن لا يأخذنك الغرور فتسقط فى كلام المهالك. اليوم نلت المنى وغدا سوف تنول المنية. فاجنح عن القتال وارحل إلى بلادك فى أمان وإلا بحق آلهتنا لن ترحل شمس غد إلا وأنت فى عداد المهالك.

صرخ علم وقال: «ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون». «قل جاء الحق وزهق الباطل». اكشف عن وجهك يا لئيم. ونهض علم يريد أن يصرعه. فامتشق الشبح سيفه ووضع سنانه على عنق علم وهو راقد بالفراش وقال: تبي أن ترى وجهي.

- نعم حتى أجعلك تندم على شجاعتك المزعومة فلا تجوء

برسائلك متسللا ولا تعود تتبجح بالكلام. اكشف عن وجهك حتى أقتلك. رفعت سلطنة اللثام فظهر وجهها كالبدر المضيء. هو الحسن والكمال فشهق علم وقد خطف قلبه. وقال أنا فى حلم أم علم. يا ربى من أين هذا الحسن جاء. ورحلت سلطنة وعلم يضرب أخماسا فى أسداس. وقد خطفت الملكة قلبه. وتركته يلعن حظه. ومكانها وجد مفتاحاً ضخماً يبرق.

سألت صباح فى ذهول وهل ذهبت طلطلة إلى خيمته؟ قال باهتمام مصطنع أن ملكة البربر طلطلة أحبت الفارس العربى علم.. هزت رأسها فى براءة علامة الفهم. وهى تعدل من جلستها لتقعد بين ذراعيه وقال ونيس: فى اليوم الثالث خرجت طلطلة فى رداء حربى مصنوع من القصب المجدول بالذهب والفضة. وهجم علم هجوما شديدا كأنه السيل المنهمر. وشدت طلطلة عليه حملة شعواء. فكسى الغبار سطح السماء وصمّت الأسماع قعقعة السلاح. فلما انتصف النهار شدت طلطلة عدتها وهجمت بكل قوتها. وضربت ضربتها فأطاحت سيفه الباقى إلى السماء. فهبط لتتلقاه بيساره. وقد أصبح علم أعزل من السلاح. فهتف البربر وهللوا. ووجم العرب واستغفروا. ووقفت طلطلة على جوادها وقالت: يوم لك ويوم عليك. قد أخذت سيفيك فإذا أردتهما ابحث عنهما إن شئت.

صاح علم: ومن تكون؟ . فرفعت طلطلة خوذتها الذهبية فكشفت عن حسناء البرية. وبدر البدور البهية فارَّ عقله. ورجف قلبه. وعاد إلى خيمته حزينا وقد فقد سيفيه رهينة طلطلة التى سميت سلطنة. فترك الجيوش وأخذ حصانه الأشهب. والمفتاح الذى تركته فى خيمته. وراح يشطر الصحراء هائما على وجه. يعيش بين الذئاب والأسود. ويصارع الكواسر والفهود. وقد ترك لحيته تنمو حزينا هائما فى البيداء. يبحث عن تلك التى خطفت منه قلبه وسلاحه. وسار ست ليالٍ قمرية. بلغ به العطش مبلغه. وفى اليوم السابع

كبا جواده وتعثر. فقال له ناءت بى الأيام. وخذلنى الدهر. وفعلت بى صروف الزمن أفعالها. ولم يبق لى سواك فشد من عزمك ولا تهن. فصهل الجواد الكريم. فقال علم: مالك يا أشهب لا تتحرك أى شيء أصاب ساقك. ونزل علم فوجد ساقيه تعثرتا بجدائل شعر حالكة السواد غزيرة. لم ير مثلها. ولم يشم طيب مسكها فى حياته. قال لو كان هذا شعر فتاة فإن حسنها لم يرد على الدنيا من قبل. ولو كان شعر جنى فسوف يهلكنا فلنتبع مصيرنا حيثما يكون. وراح يتتبع الجدائل حتى وجد ربوة عالية. وعلى قمتها قصر منيف صعده بجواده. يمن النفس بمصيره حين وجد فتاة ساحرة الجمال تطل من شرفة قصرها العالية. لم يخطر حسنها على بال. وارتقى درجات القصر الرخامية فوجد بابا ضخما كبيرا وعليه قفل كبير ولما أمعن النظر وجده مكتوبا عليه: مفتاحه مع. قاطعته أمه:

مفتاحه مع لولاف العين.. قفلها صال يا علم..

ضج الاثنان ثريا ونيس بالضحك وضحكت صباح. وقالت أمه وهى تبتسم نشهد بالله أنك مخرف. ولا يوجد من يخرف مثل تخريفك. وقامت ساخطة وهو يدعوها إلى سماع بقية الحكاية. لكنها خرجت مبتعدة. قالت صباح وهى تغفو: منو الفتاه؟. أجابها: سلطنة. مدت أمها يدها لتأخذها منه. تلامس كفها وكفه الخشنة. امتلأ بالارتياح وشبكت الطفلة ذراعيها على صدرها رافضة. فعادت ثريا بساعدها لتسكن بكفها على كفه. فعلت ذلك لأول مرة باستواء نفسى. ودون نتوءات أمضت روحها الساكنة فى أعماق الصقيع وأخذت تلتهب ببطء. وشعر ونيس بكفها الساكنة فوق كفه. ارتعد للمس البشرة الأنثوية. جذب كفه برفق من أسفل كفها وعاد يقبض عليه ويضغطه برفق. فاهتزت بموجات الرعشة والنشوة. فتحت صباح عينيها تسأله بقية الحكاية. فقال: وعاشوا معا فى سلام وأمان. وأصبح علم رمز الشجاعة والحب والعفة. وصار الفتيان والفتيات ينادون من يحبونه

باسمه. أما سـلطنة فقد تركت للبنات وجها جميلا منورا كالبدر وسألها كوجه من؟ أجابت تسأله كوجه من؟ قال كوجه صباح.

أضيء وجهها وأشـرق. واستطرد: كما تركت لهن شعرا أسود حالك مجعد كمـوج البحر. يبلغ الأرض فصارت لهن أجمل جدائل شـعر فى العالم. وعاد يسـأل الطفلة مثل شـعر من؟ سألته فى صبر: كشعر من؟ أجابها كشـعر ثريا. ضغط على كفها الساكن فى يده ونظرت الطفلة إلى أمها التى شـع وجهها سعيدة. وقالت مرددة كشعر ثريا .

- هيا.. جاء وقت النوم.

* * * *

فـى هـذه الليلة نامـت ثريا تضـم ابنتها صباح إلـى صدرها يسـتغرقها النعـاس دون كوابيس كمـا لم تنم منـذ زمن طويل. وطيلة أسـبوع تتنقل من الغرف إلى التعريشـة الخارجية. يعمها هـدوء داخلـى. امتـلأت بمتعتـه. تنتظر مجـيء ونيس وقـد هيأت نفسـها. واعتنت بملابسـها ومظهرها. فبدت جميلة. تفوح منها رائحة الخبز الطازج. تخلق حوله هى وابنتها فراشـات تسـتغرقهما حكايـات البادية وأسـاطير القدامى. وأشـهر قصص العشـق. أو يحكى لها قصـص الغربة. والفتيات اللواتـى عرفهن هناك. وهى تحيطـه بعينيها. ليصبح بقعة مضيئة فـى عالم مظلم. تود فى كل لحظة أن تناديه بكنية ملأتها بالقداسة «يا علم».

فى نهاية الأسـبوع جاءهـا هاتف يدعوها للعـودة إلى مدينة الحضر. فقد حضر عمر من مصـر. أصابهما الاضطراب. لقد تذكرا شيئا كان غائبا. واستعادت ثريا أشباحها السوداء.

* * * *

-19-

عندما وقف عمر ليلا من وراء الشرفة الزجاجية لحجرة مكتبه يشاهد الأسرة التى غادرت لتوها السيارة التى وقفت أمام الفيلا. أسرة من هذه التى تأتى لزيارتهم. تملى بإعجاب من اهتمام الشاب بزوجته. كيف سبقها فى النزول ودار نصف دورة ليفتح لها بابها. كيف مد لها يده، لتستند عليها. قبل أن يحمل الطفلة التى تعلقت به بحميمية طفولة تبحث عن الصدر الدافئ لأبوة مكرسة بالأمان.. ابنته صباح.. لكن هذا ونيس. أما المرأة فهى ...

لم يفكر فيما يجرى أمامه منذ لحظات. فقدوم ونيس الذى ينتظره بشراهة من يرغب أن ينزع شوكة فى كعب حذائه. أطاح من ذهنه غرائبية المشهد. عندما التقوا على العشاء نسى ثريا واستغرق هو فى إقناع ونيس بأن يقنع حميدة بتسليم نفسه. فهو على أية حال لن يستطيع أن يختفى إلى الأبد. وكان عدم ضياع العام الدراسى سيفاً مصلتا على رقبة كل من يحاول تضخيم المخاوف الناجمة عن التسليم. ورغم أن الجميع بلا استثناء يدركون أن تأمين عمر لحميدة لا يرقى للشك. وحده ونيس الذى كان يتهمه بأنه لا يأخذ الموضوع مأخذ الجد. فعقله مشغول بأعماله عن الخطر الذى يتهدد أخاهم الأصغر. وأضاف إنه لا يشك فى مقدرة عمر ونفوذه. لكنه يتمنى عليه التأكد والحذر.

كان الحديث الذى دار بينه وبين صديقه المصرى قد قضى على

فكرة تسلل حميدة عبر الحدود واللجوء إلى مصر. والبحث عن دعم تقدمه المعارضة المصرية. ورغم أنه لم يكن مقتنعا بالأمر برمته. كانت كل محاولاته ترتكز على أن ينبه عمر لاتخاذ كافة الاحتياطات من أجل أخيهم الأصغر. ولذلك عرض ونيس الفكرة على أخيهم الأكبر عمر موضحا أن هروب حميدة لمصر أفضل من أن يقضى فى السجن ثلاث أو أربع سنوات. وهو يؤكد أن أخاهم متهم بجريمة شخصية بالدرجة الأولى. وذكره بأن الرجل الثانى للثورة اقتحم الجامعة شاهرا مسدسه لمجرد أن طلبته اختاروا عبر انتخابات اتحاد الطلاب على غير هوى القائد. وخرج وخلفه عشرات الجثث من الطلاب الوطنيين. فما بالك بمن حرق قدس الأقداس. أنا ننبه فيك قدام باتك والعجائز. خوك حميدة حرق «مبنى اتحاد اشتراكى الحضر».

لكن عمر سخر من هذه الأفكار. وسأله إذا ما كان أخوه يبى يصير جيفارا. ساخرا من فكرة هربه عبر الصحراء. وعندما أشار إلى أنه متأكد من أنه سيذوب مثل قطعة من الآيس كريم خلال ساعة أو ساعتين تحت قيظ الصحراء. ضحك وقام باستخفاف. لم يناقش شيئاً. كل ما قاله إن على هذا التيس الزامل أن يحضر حتى ينتهى من مشاكله. قبل عودته إلى القاهرة الأسبوع القادم. وحذر مهددا أنه لو حاول عبور الحدود كيف السلكاوية سيقوم بنفسه بالقبض عليه فى القاهرة. واستعادته من قفاه وتسليمه بيديه لسلطات البلاد. وأضاف كى يريح الأب وزوجة أبيه التى لم تتوقف عن البكاء «إن كان على المبنى الذى احترق سيرسل على جمعة والمهندس زياد بيش يعيدوه كيف الأول وزيادة. وأنه سيؤثثه أحسن من الأول. حتى ولو حرق مليون دينار بيش عيون الزب حميدة. بس يجي. وأضاف ورانا مصالح ثقيلة واجد لا تسمح بعبث الأطفال. وما فى نقاش.. واضح.. كررها عدة مرات حتى يرددها ونيس خلفه.. واضح..

* * * *

شاهدت ثريا بنفسها كيف ينتصر زوجها على الجميع. وطوال أسبوع كامل لم تلتق بعمر سوى مرة عابرة. كان منشغلا عنهما بضيوف يضعون سياراتهم بعيدا عن الفيلا. أو يأتون بها مطفأة الأنوار. يبدون على درجة عالية من الأهمية والخطورة. ضباط فى ملابس عسكرية أخفوها تحت معاطف مدنية. يظلون حتى الفجر. ويرحل خلفهم فى رحلات طويلة ولا يعود إلا فى اليوم التالى. ليستقبل آخرين. تتابعهم من وراء زجاج نافذتها. يعبرون حمام السباحة. تنعكس ظلالهم على صفحة مياهه الرائقة. هذه المرة جلست عارية لا يسترها سوى قطعتين من مايوه بكينى اشترته لتوها من صديقة قادمة من روما. وعندما أغمضت عينيها كانت تشعر بملمس الماء البارد يلامس بشرتها الحليبية. يغزو أعماقها. وعشرات العيون من ضيوف زوجها يتلمسون عريها بعيونهم النهمة. يتابعونها من وراء النوافذ حتى حل ظلام دامس.

فى نهاية الأسبوع علمت من كنتها أنه سافر إلى أثينا أو لندن لا تعرف. استقبلت الخبر بلا مبالاة أو فرح أو ارتياح. وكأن كابوساً أنزاح عن كاهلها. وتمنت ألاّ يعود. حتى لو بقيت علاقتهما معلقة على سقف وثيقة زواج. بعد أسبوع طلب الشيخ حفيدته. فرحلت عائدة هى وابنتها صباح وهى فى شوق إلى القبة.

* * * *

-20-

.. أريد أن أراها.. هكذا حزم ونيس أمره بعد دوامات من الهلاوس. تخبط فيها بين الحساب العسير واللوم.. يطرق صخور الساحل المهجور بقدمه متابعا زبد البحر القادم من الأفق. تتشكل على سطحه أمواج عاتية. ترتطم بالصخور. يرتفع الرذاذ عاليا ثم يسقط محطما إلى شظايا صغيرة. مستقبله الذى يتفكك موشكا على الانهيار.. هل هى النهاية؟

أجابته فاطمة زوجة صديقه الدكتور رفعت: كيف ؟ قال: لا أعرف. طلب رفعت من زوجته برجاء أن تحاول. وقال ونيس إنها تستطيع أن تتصل بخالتها بواسطة الهاتف.. كانت منزعجة. تساءلت إذا كانت ستقبل؟. سد زوجها عليها الطريق. وقال سواء تقبل أو لا تقبل فلن تنطبق السماء على الأرض. ساد الصمت وبدت المرأة الشابة مضطربة. لكن ضعفت أمام رجاء ونيس وهو يسألها «نبى تساعدينى». هزت رأسها والصمت يرم عليهم. استطرد معتذرا أنا نعرف صرت سخيفاً ثقيلا عليكم. نبى تسامحونى..

* * * *

بعد عشرة أيام حضرت سلمى مع خالتها التى قفلت عائدة وهى توصى فاطمة ترجوها ألا تتأخر. جلست فى وجوم شاحبة كسيفة البال. وقد لمت شعرها عن جبينها، يكشف جبهة مضيئة كبدر فى ليل اكتماله. وجمالها الفطرى سنبلة قمح ذهبية.

حكت مواجعها. قالت بقلق إن إخوتها يشاهدونه مرات كثيرة فى اليوم الواحد. يدور حول الحوش. يثورون وأمى تحدق بى وفى عينيها اتهام.

سألتها: وأنت؟ قالت: أنا.. أنا نشعر به حولى قريب منى. لا أعود أعرف إن كان على أن أشعر بالسعادة أم التعاسة. حتى توطن بى غم على غم ويأس على يأس.

- تظنيه يكف لو طلبت منه.

- وشنو يفيد لو استمر . أنا وهو نتعذب .

- اطلبى منه الآن بنفسك؟

رددت فى عجلة: ما بقدر ... ما بقدر أن أفعل.

سألتها ومتى سيتم الزواج. هبطت برأسها إلى الأرض وقالت بعد أسبوعين. قالت فاطمة: لا سبيل إلى شئ..

- لا سبيل إلى شئ .. قالت سالمين بعد فترة من صمت. وأضافت هل تفعلون ببناتكم كيف هكى فى مصر. قالت فاطمة كثيرا: عموما ترتهن الأمور بالفتاة. لو عزمت على الرفض فلا تستطيع قوة أن تمنعها.

رفعت سلمى رأسها فى حقد وفى نظراتها تموج أمواج الكراهية. وقالت إنها لا تستطيع. وأجابت فاطمة فى إشفاق إنها تعلم. فاستراحت وألقت برأسها إلى كتف الكرسى الضخم تحدق فى السقف مغمضة العينين.

ما لبثت أن سألتها إذا ما كان الدكتور رفعت يؤمن بوجود الله. فأجابت نعم. تساءلت وهى تختنق ولكن من الذى يستطيع أن يزرع ظلما كهذا؟ احتارت فاطمة كيف تجيبها فصمتت ولم تجب.

داهمتها بالسؤال: تظنى أنا غلطانة..؟

- ونيس هو المجروح. عاجز عن تقدير موقفك.

- كـ ..... كنت ..... نريد نتزوج ... كنـ .... كنت أريد نكون سعيدة.. منو يبى التعاسة.. منو يبى الشقاء.. منو يحفر لنفسه قبرا.

قاطعتها فاطمة وهى تحدق بها وقالت فى تساؤل إذا ما كانت تظن أنه (تقصد الله) سلبها سعادتها. نزع عنها هناءها وألبسها ثوب الشقاء. أطرقت سلمى برأسها إلى الأرض حائرة ثم قالت حظ. نصيب بائس لو لم يكن لها أولاد أعمام .. لو لم يتقدم لها أحدهم.

قالت فاطمة عليها ألاّ تلوم أحداً. فمن ذا الذى يمكن أن يتجاهل الزواج بمثلها. وأضافت وهى تؤكد على مخارج الألفاظ «القدر». فهزت رأسها فى استسلام. وكأنها وجدت حلا. قالت وما هو القدر. أليس هو المكتوب. أى أنها مشيئة الله. استطردت فاطمة. وهل أخطأت فى حقه حتى يعاقبك؟

فهزت سلمى رأسها نفيا. أضافت فاطمة بالطبع لم تفعلى الأشياء التى تستوجب قصاصا كهذا. أبدت موافقتها. عادت تسألها إذن تظنين أنه على هذا القدر من الظلم؟

انزاحت برأسها إلى الخلف مندهشة. ونظرت لها بحذر فى شك وريبة وبنفاذ عميق. سألتها وقد ضاقت عيناها عما تقصده: أنا ما يهمنى أن يؤمن رفعت بوجوده أو لا.. أنا شخصيا أؤمن بوجوده وبالمقابل أعتنق المبادئ الإنسانية الأخلاقية التى تعبر عنه.. الخير.. الرحمة.. الحب.. الصدق... الوفاء.. العدل .. العدل .. العدل .. وأظن أن المسألة الأولى لا تعنى شيئاً. هزت سلمى كتفيها علامة على عدم الفهم. استطردت فاطمة إن عليها أن تتحمل مسؤوليتها تجاه مصيرها. فلو كانت على يقين بوجوده. قاطعتها بحماس: نعم على يقين.

- فعليك ألاّ تظنيه ظالما. هزت رأسها.

- باهى دافعى عن مصيرك. صاحت الفتاة غير مدركة للشرك

الذى تجذبها نحوه المرأة الشابة: كيف؟ أجابتها بحسم: تزوجى ونيس.

وكأن قطاراً صدمها.. همست تدافع عن نفسها.. براءتها.. صدق كينونتها.. صدق عجزها.. قالت كيف.. ما فى شيخ واحد يستطيع عقد قرانهما بُكّلْ. ما فى حجر صغير يختفيان تحته. ما فى عم و لا خال تحتمى بكنفه. ما فى أخ يدافع عن وجودها. حقوقها. رغبتها فى الحياة. جميعهم يرون أن الشىء الصائب والطبيعى الوحيد أن تتزوج رجلاً يحمل فى عروقه دم القبيلة.. أى رجل وكل ما عدا ذلك ليس مجرد خطأ اجتماعى، تخلف حضارى، وإنما هو غير موجود فى عرف البوادي.

عدلت من جلستها واستقامت بقامتها تهتف فى ضيق بالغ إذا ما كانت تظنها قادرة على ترك أهلها واستئجار شقة بحى الساحل مثلا. المدينة كلها ستنعتها بالجنون، سيرجمونها بالحجارة وفى قلوبهم رغبة السحل.

- مش ح تكونى وحدك. قالت وهى تشعر بضيق من الحصار الذى يحيق بها سوف ينبذوننا .. يطاردون أبنائى بالطرقات ليقولوا لهم أمكم هربت من بيت أبوها لتتزوج . ولما لم تجد لدى فاطمة اقتناعا كافيا. قالت فى توسل تظنون أنه فى مقدورى شىء وأتقاعس.. نسيتم إخوتى الصغار.. كيف سيواجهون أصدقاءهم وجيرانهم وكيف تستطيع الفتيات الزواج لو لوثت شرف أبى؟

ردت فاطمة فى قسوة أى شرف تلوثه. إنها ستتزوج فقط. وإخوتها سيعانون مما تعانيه هى الآن لو استسلمت، سوف يخسرون حياتهم كما خسرتها.

صاحت سلمى أنا.. أنا.. دق جرس الباب فتوقفت، وعاد لوجهها شحوبه، وصوت الباب الخارجى يفتح. وقفت متهالكة متهدلة الأعصاب، وساقاها ترتعدان. تقبض على مسند المقعد وتتركه لتمسك بساعدها المستند على المنضدة. تحدق بباب الغرفة فى هلع.

دخل رفعت فحياها وتبعه ونيس بقامته المديدة. استقبلته بعيون من الفراغ الحزين. عيون خالية من الشوق. ومدت كفها له. هاله أن تصافحه دون حرارة. وجلست مطرقة دون أن تقدر على مواجهة عينيه . تنتظر محاكمتها فى استسلام بالغ. يكللها شعور بكونها آثمة خائنة. لقد بدأت معركتها الأخيرة قبل الموت المحتوم خاسرة. ران صمت ثقيل. تخيم روح عدائية. نظر إلى سقف الغرفة وخرج صوته جافا يسألها: متى يتم الزواج ؟ فأجابت مدانة بصوت لا يسمع: «بعد أسبوعين».

حدق بنظرة نفاذة يلقى نحوها بسهمه. ويسألها إن كانت قبلت؟. أجابت دون أن ترفع رأسها إنها لم تُسأل فى شيء حتى تقبل أو ترفض. أطرق برأسه إلى الأرض وقام رفعت وزوجته خارجا. فلحق بهما همسا يرجوهما البقاء.

سألها رفعت مندهشا وونيس يتابعهما عن السبب. قالت إنها جاءت كأخته فلا تتركني. نظر إلى ونيس محاصرا فسأله ونيس أن يستجيب لرغبتها. قال بلطف إنه سيحضر الشاى ويعود. بان على وجهها الألم ممزوجا بامتعاض، وجاءه صوت ونيس وقد فهم مقصدها: ابق لا تذهب .. فقال: باهى.. باهى.. ليه التوتر. لحظة وأعود.

صارا منفردين. لمحها تختلس النظر إليه. فقام يعيد تماسكه ويرتب ذهنه. جلس بجانبها وهى خافضة الرأس لا ترفع عينيها نحوه. وجلس رفعت فى ركن قصي يعبث بمجلد لجراحات القلب.

ناداها باسمها فأجابته: نعم. اضطرب جسده وعاودته الشجاعة. قال إنه يستطيع أن يتحدث إليها لأسبوع كامل. أو يكتب كتاباً يوضح فيه لها أو لأى إنسان آخر حاجته الماسة الضرورية إليها. ابتسمت. وفى عينيها قلق. وأبتسم رفعت. واستعادت حدقتا عينيه إشراقهما. وغمرته الراحة. عدد على أصابعه: أنت متعلمة وجميلة. تخلبين لب أى إنسان بكمالك وروعة نفسك.

وهدوئك المشبع بالعمق. وذكاؤك يكفى أعظم شاب كى يزهو بك فى أى مجتمع. ما يزيد خسارتى فيك أننى على تمام اليقين من أن العهد لديك مقدس وأنا أريد عهدك.. صمت فترة ولم يطرف لها جفن. استطرد قائلا نستطيع الزواج.. وأعاد العبارة فى صوت باتر.. نستطيع الزواج ونضع الكل أمام الأمر الواقع.. انظري.

احضر حقيبته السمسونايت. وأخرج مجموعة الأوراق المرتبة. وقال ها هى أوراق الالتحاق بجامعة ميونخ. سأراسلهم كى تستكملى دراستك.

حاولت أن تتحدث فقاطعها قائلا : لا تتخذى قرارا توا. مو هكى دكتور رفعت؟ استدار يطلب تأييده .. فكرى ... فكرى واجد. ثم أشار بكفه قائلا.. انتظري.. وعاد إلى حقيبته وهو يقول: ما فى مشاكل مادية. وعبث فى الأوراق ثم أخرج منها دفترا بنكيا. يريها إياه: انظرى هذا هو رصيدى بالبنك ثلاثة وثلاثون ألف دولار. وبقدر أوفر من باتى مثلهم..

واستطرد وفى صوته رنة الارتياح مؤكدا سنعيش فى أوروبا. الملاهى والنوادى الليلية. نستطيع التزلج على الجليد شتاء. أوعدك نسافر باريس وفيينا ولندن اسألى الدكتور رفعت. مو هكى؟ وأدار إليه رأسه. رآه يحدق فى سالمين ممتقع الوجه. وونيس يستنزف نفسه فى لجاجة ودون فائدة. أعاد ونيس سؤاله. أجاب دون أن يدرى نعم.. نعم .. عاد إليها مستطردا وعندما نعود بعد خمس سنوات ومعنا أطفالنا. ينظر الناس إليك بدهشة واحترام. أسرتك تكون تقبلت بالأمر الواقع .. الأمر الرائع الواقع .. باتك يستقبلك نادما معتذرا عن خطئه فى حقنا. وسيقول لك اعذرينى أنا كنت مخطئا وأنت يا بنيتى كنت على حق. صمت لفترة ثم سألها إذا كان ابن عمها يعرف بعلاقتهما؟ سألها أن تخبره. قالت: يعلم.

- يعلم أنك تحبيننى. أخبريه أنى أحبك. خلى خالتك تخبره.. تحكى الحقيقة. أنا نفسى باتكلم معه.. لن يرضى يكون زوج فتاة تحب غيره.. ح تقولى له. مو هكى. كان جوابها الصمت فعاد سؤاله.

وجـاءه صوتهـا بعيدا منكسـرا مهزومـا يرزح تحت جبال الأسـى والظلم. همست: إنه يعلم.

تغضن وجهه متسـائلا: يعلم شـنو.. علاقتنا!!. هزت رأسـها بالايجاب.

صرخ مندهشا: منو قال له؟.

- خالتى.. أرسلت له خالتى.

- وشنو يبى بعد كل هكى؟! سقط على المقعد منهاراً يفتك به الغضب. وهو يكتشـف الظلام الكثيف الذى اكتنفها. والمصير الذى ينتظرهـا. ردد فى خوف وفزع: وين يذهبون بك.. لا تقبلى بهذا الظلام.. اهربـى من هذا المصيـر. واعتدل يقول بجدية. وقـد حلت على وجهه الصرامة: نذهب ونتزوج قدام القاضى بالمحكمة.. هذا يحق لنا قانونا ..

- لم أبلغ سن الرشد.

- سـن الرشـد قاومى توا وما تقبلى .. اطلبى منهم ينتظرون بيش تنتهى من الجامعة..

عـاد صوتها يأتيه من قاع قبو مظلم: سـوف تجـد الفتاة التى تسعدك.

شعت عيناه بالذعر. حدثته نفسـه بأنها تستهتر بمشاعره. . تخدعه. أجـاب بغضب والتوتر يحل على رفعت لمرأى وجه سـالمين يتجلد فى قسـوة: صار هكـى سـأجد الفتاة التى تسـعدني. بيش وجـدت الرجل الذى يصنع لك قفصا من الذهب. وعلى أنا أن أرحل.. أقفز من النافذة.. لكنك تعلمى أننى أيضا لن أسـتطيع.. وتعلمى أننى لن أجد هاذى الفتاة اللى سوف تسعدنى .. لن أجدها بكّل.

قالت إن مـن حقه أن يهينها كما يريد. ولكـن عليه أن يتذكر الحقيقـة التـى سيكتشـفها بعد شـهر أو عـام. سـيمر الزمن وسـتلتئم جراحه. وسيجد البنت التى ستسعده. كل فتاة تتمنى أن يكون زوجاً لها.. أما هى سـتموت موتا بطيئا والسلوى الوحيدة هى ذكرياتها معه.

استطردت ابقى عليها الله يخليك.. ابقى لى عليها.. سافر أوروبا، كمل دراستك وخود دكتوراه، ح تلاقى سلواك.. أنا فين أجد سلواي؟ خلف خصاص نافذة، أو من ثقوب باب مسكر بقفل.

اهتاج يمزق أوراق السفر: مو نبى نسافر من غيرك.. بدى أفكرك. هكى قلت.

«نرجاهم أثناشر عشر عام بحساب يوم فى شان الوفا».

امتقع لونها، قبضت على مسند الفوتيه، ونظرت إليه فى حقد طاغ ولكنه تابع حديثه صارخا، مو هكى ولا توا نسيت.

جاءه صوتها هادئاً قويا وقالت: ما نسيت. وأنا توا أفعل. حدق بوجهها ومال برأسه نحوها وقال: كيف؟ تقضى حياتك فى قبر.. تقدمى جسدك كل ليلة لرجل تكرهينه.

ازداد وجهها صلابة حتى صار قطعة من رخام، وراحت تزم بشفتيها وهو يواصل حديثه قائلاً: شنو تظنى نفسك ضحية عيد الأضحى لأجل من؟..العيلة..العشيرة .. القبيلة.. الله ما يقبل.

- وشنو يقبل الله.. انزاحت بجسدها منتصبة الرأس واستطردت مو هادى شريعته.

- بالطبع لا.. هذه شرائع بشر لمجتمع قديم، واستدار لرفعت المندهش وقال فى قسوة: شنو فعلت زوجتك. عاد إليها يسألها ساخرا إذا ما كانت تنوى أن تفقد إيمانها. ردت عليه فى إباء جريح: شنو ما جئت أهنا بيش تعظني.

أصابته الضربة فأسكتته وأحست به مهزوما، فأصابها الغم وقالت تواسيه إن كليهما يصطدمان بجدار صلب يستحيل اختراقه.

سرت فى جسده نبرة الحنان الأولى كالطغيان، واستطردت لا تطرق رأسك به.. فعلنا ما بوسعنا.. ودع لى الطريق الذى اختير لى دون أن أريده، وستمر الأيام، وفى كل يوم يمر وأفقده من عمرى وكان

من الممكن أن أكون فيه سعيدة.

بلغ اهتياجه مداه، وظهر الانزعاج على وجوههم. شعرت سالمين به يتمزق وهو يصرخ «أنا مو لص بيش يرفضني باتك، كنت نَبْيكِ وأنت تَبْيِنِي، بأي حق وأي شرع».

نظرت إليه وآلامه تمزقها، والتقت عيناهما فهدأ، ووضع كفه على جبينه، يكبح داخله صراعاً عنيفاً، وأحس بالجميع ينظر إليه، أحنى رأسه لأسفل هربا من عينيها اللتين حملتا نهرين من الأسى والعتاب.

- شنو أسوي.. آسف.. سامحيني.. ما عدت قادرا على التمييز.. لشنو أصرخ.. ترى أنا فقدت اتزاني.. حل الصمت وهم ينظرون نحوه وهو مغمض العينين ملقيا برأسه إلى الخلف، يقول «كنت أنظر للحياة باستهزاء وثقة، حتى الموت لم أكن أخافه، لا أحس جوعا لشيء وليس لدي رغبة في الاعتداء على الآخرين. رفع رأسه.. هذه القيم الساذجة.. الصدق والاحترام، الاعتداد بالذات، الوضوح والصراحة، قال ساخرا.. مثاليات.. رومانسيات مبتذلة.. لم يتبق سوى إعلان الجمهورية السعيدة المنعزلة عن بشر حقراء.. لكني.. هه.. كنت أبله.. بتعرفي؟ أصابعي.. ومد إليها أصابعه.. ترينها؟ لم أعد أستطيع السيطرة عليها.. تتحرك بشكل لا إرادي، فكي ينقبض على ضروسي يسحقها، نظر إلى الأرض.. عندما أتذكرك وأستعيدك معاي وأستعيد عهودك أقول هي صلبة عنيدة، ثم أجدك وحيدة في غابة، ترتفع برأسي أمواج هادرة، ويصيبني صداع قاتل.

أجهشت بالبكاء، كانت تبكي بمرارة من فقدت إلى الأبد أعز الناس، كانت ترى طفلها يسحقه قطار وهي عاجزة عن فعل شيء. نظر نحوها كمن ينظر الفراغ وقال: لا تبكي.. لا تبكي. فجاهدت أن تمنع نفسها. قال يواسيها: لشنو أنت جميلة هكي.. الثوب هادا بسيط يخليك فاتنة، لا أنت اللي تخليه جميل.. تصفيفة شعرك.. يا ربي توا أنت جميلة واجد. لشنو تشعريني بخسارتي، خسارتي

توا مضاعفة عشرات مرات.

همست بصوت يختنق بالبكاء: هاذى المرة الأخيرة.. قال بود: من شانى فعلت هكى. أجابته وهى تجهش بالبكاء: نعم ولكنها المرة الأخيرة. رفع رأسه وردد: هى النهاية. لم تنبس بكلمة. ونظرت إليه ملتاعة.

- أعطنى يدك. مد كفه يمسك بأناملها وهى تقبض بكفها الأخرى بشدة على مسند المقعد. قبلها وحط بشفتيه على راحتها يلثمها. ارتجفت وانسالت الدموع. قاومت نفسها أن تمد يدها تحتضن رأسه وتنهار.

قام. مرر كفه على رأسها.. وجهها.. عنقها.. صفحة ظهرها.. وهى تكاد يغشى عليها. واستدار راحلا. تابعته يختفى من الباب متهدل الكتفين..

ها قد جاءت النهاية.. فراغ بالباب وبقايا شبح فارع. لما اختفى إلى الأبد. وكأن قلبها اقتلع بشفرة سكين. انهارت فى المقعد تحدق الفراغ الذى كان يحوى عما قليل قامته الفارعة.

صامتين .. ساعة لا تريم. ورفعت وزوجته يجلسان . عندما رحلت تلملم أشلاءها المبعثرة. وتحل على وجهها معالم القسوة والسكوت كى تعتمر حياتها فى جبل الثلج القادم حيث الوحدة والصقيع والانتهاك المتواصل.

* * * *

قضى اللقاء الأخير بين سلمى ونيس على كل الأوهام. الزواج واقع لا محالة. سقطت روحه من جراء تشبثه بها يراها نوعاً نادرا. لأيام بقى وحيدا. يتقلب على أشواك من الأفكار المدنسة. عاد إلى القبة. أظهرت المرأة البدوية بشاشتها بعودته. وأسرعت تغتسل وتستبدل ملابسها وتلقى بخصلة شعر على مفرق الجبين. تلبى

طلباتــه عن طيب خاطر. تعــد له طعام الغداء والشــاى والقهوة. وتقدم له عصائر الفواكه المثلجة. ولم تكتف ففعلت ما لم تفعله لزوجها. وأمام الجميع انتقت ثمرة من أطيب ثمرات تفاح ووضعتها أمامه. على بشرتها لاحظ قطرات الماء تلمع كاللؤلؤ.

كانت تقول خذنى. ماذا تنتظر؟ وهو يشــعر بأنه مهاجم بفعل ســيل من ومض ينشــق عن لحظها ينزل به ضربات صاعقة. فلما لا يتناولهــا. وكانــت تنتظر أن يفعــل. راحت تقشــرها. وأصرت أن يأكلهــا. وعندما خرج مع قدوم العصر جلســت أمام المرآة. وراحت تتزين وأسدلت شعرها الأسود الجعد إلى الخلف شلالات هادرة. يمتد على طول كتفها حتى الأرداف. وارتدت ثوباً أبيض موشى بالقصب. وراحت تقلم أظافرها وتعطيها لون خدودها الحمراء. وبقيت تنتظر عودتــه وقد انتابها الضيق لتأخره وعندما أوغل الليل لمت شــعرها مستاءة. ونضت ملابســها تؤنب ابنتها وتقول مسكينة جاء اللى تحبيه ومشغولة بيه ورحل. ولم يكلف خاطره أن يبقى معك شوي.. هيا ننام. قالت الطفلة تحكى لى حكاية.

توســدت أمها تحكى لها قصصاً متقطعــة. وحكايات لا رابط بينها. حتى إنها قالت غير مقتنعة بحكايات أمها إنها قررت النوم..

بعد منتصــف الليل ســمعت طرقاً على الباب. اســتيقظت مسرعة وتوجهت إلى الباب الخارجى على عجل لا ترتدى سوى ثوب نومهــا الأبيض العارى. القصير المصنوع من الدانتيل. فوق ســروال طويل داخلى ذى ألوان مــن زهور زاهية. كانت تعلم أنه ونيس. دخل دون أن يحــدث صوتا وســألته فى الســاحة الداخلية للتعريشــة. بصوت منخفض إذا كان تناول عشاءه. أجاب يكفيه فنجان القهوة. وجلس على مقعد بالصالة. أســرعت إلى غرفتها تغطى جسدها بروب ثــم دخلت إلى المطبخ تعد القهوة. جاءت بها ووضعتها على المنضدة. همت بالذهاب لكنه دعاها أن تنتظر. وسألها أين تذهب؟

أشارت إلى حجرتها «سأنام». سألها أن تبقى قليلا. فجلست وهى تقول إن الوقت متأخر. وإذا ما كان يريد شيئاً آخر؟

رشف القهوة وعيناه تحلقان فى اللا مكان. جذب يدها وهم واقفا يطلب أن تأتى معه. اتجه إلى الكرمة الخارجية. سارت خلفه طائعة وهى تهمس تسأله وين تاخدنى ونيس؟ اكتفى فقط بقوله ما فى شي. تعالى.

سارت صامتة تفيض بإحساس ينبئها أنها على وشك اكتشاف أشياء جديدة غريبة مدهشة. لملمت شعرها وسوت من الروب. عبرا الحديقة إلى غرفة الضيوف الخارجية كانت مغلقة. فدلف للعريشة الجانبية. واستدار حول شجرة شجرة السرو العملاقة وثبت جسدها الفارع على جذعها. وضغط بجسده على جسدها يقبل شفتيها المزمومتين. وقفت مغمضة العينين لا تقاوم ولا تستجيب أيضا.. حاول أن يخلع عنها الروب. قاومته ولم تمكنه. توقف ولكنها بقيت تنتظر أن يعيد الكرة. فعاد يفك أزراره ويخلعه عنها فى عنف. وجذبها إلى الأرض المضمخة بعناقيد الكروم التى جمعت لتوها. فجلست تحدق به فى انفعال. ينضو عن نفسه ملابسه العلوية. نظرت إلى صدره العارى فى بلاهة. وعقلها يتساءل أليس الفراش نهاية الحب.. تناقض

عاد يجلس بجانبها وشرع يقبلها بفظاظة. اعتدلت فى جلستها تتابعه وهو يقبض بكفه على نهدها يعصره. عادت تزم شفتيها بقوة وهى تنفر بفمها عن فمه يمينا ويسارا. فيهرب إلى وجهها. فتتركه ووخز خفيف يتصاعد من نهديها. يتصلبان من الألم إزاء خشونة قبضته وهى تشكل ما تخلفه نشوة العادة السرية المبتورة..

فكرت أليس الجنس نهاية الحب.. هبط بكفه إلى فخديها يفركهما وفمه يبحث عن فمها ثانية. محاولا أن يطلق شفتيها من عقالها دون جدوى. فقد عادت تزمهما بشدة. كان جسدها يتحول

إلى قلعــة حصينة مســتعصية عليهما معا. ظــل طويلا يحاول اقتحامه والنفاذ داخله حتى أيقظته الدهشـــة لقوة المقاومة التى تتضــارب مع وعيها المستســلم له. عاد إلى رشـــده فهمس لها أن تعطيه فمها. فلم تســتطع النطق بشـىء. لثمه ببطء فتراجعت بنفور لا إرادى.. أرخى ذراعيه وهمس يســألها عمــا بها. أجابته فى نبرات مرتعشة: لا شـىء.

خفف من غلوائه، واعتدل ليجلس بجوارها. وسرح بعيدا مكتفيا بجسدها البكر ملتصقاً به مرتكناً إليه فى استسلام وصمت.

مــد يده إلى عناقيد الكــروم وعندما عــاد يعانقها دفعها إلى الربوة العالية الموكة من العنب وهو يلثم جبينها وخدودها ويحيط ظهرهــا بكفه، ويهبــط ليقبل عنقهــا وهو يربت رأســها بكفه. شــعرت بالانعتاق. قالت وهى تخوض بــين عناقيد العنب فى صوت متردد: إن صــ...... صباح ظلت تنتظره حتى غلبها النوم.

أثارتــه بلاهة ما تقولــه، فهبط بكفه مرة أخــرى إلى فخديها. فعاذت تضمها بشــدة، وقد خطفت ناظريها الدهشة. وهام طيف ابتسامة بريئة على وجهها. وهى تلمحه يلثم نهديها الذين اختلطا بحبــات العنب. وقبــل أن يحل بها العجب. كانت تشـــهق من الروح الســديمية للكرمة التى كان يتحول لها المكان. عندما ارتفع برأسه يقبلها. قذفت برأسها إلى الخلف مبتعدة كجواد كميتي. لتنام بين الكروم، تشعر بلسعة العصير المتهتك تحيط بجسدها الإلهى ويداها تجذبان قميصها الذى رفعه عن خصرها العارى إلى أســفل. فاهتاج وإذا بــه يمزق قميصها. جذب عنها مشــد الصدر. بان جذعها الأعلى وســط عناقيد الكروم عاريا. وهبط عليها الذهول وقد حز بشــرتها شــريط من الحمرة القانية. هتفت فى انفعال وهى تنظر رأسه الذى يدور ملتصقا بنهديها وفى صوتها ضيق: شنو تسوى ؟

رفع رأســه ثــم توقف عن كل شــىء. وخر إلــى الأرض منهوك

القـــوى، وانهمــر عليه جبل من الذهــول رفع رأســه وتوقف يحدق مشدوها قال: ثريا .. فأجابته في بساطه: نعم

- تعالى

جذبهــا إلــى عناقيد الكــروم ومددها بينها فتمــددت طائعة، وراحـــت تنظر إليــه. كانت تنام غارية الصدر والخصر وقد افترشـــت تحتهــا نهرا مــن العنب والجدائــل الليلــة تحيط بوجههــا الأبيض وبشـــرتها الوردية الناعمة كالمرمر بدر مكتمل، وعيناها السوداوان الواســعتان تنظران إليه بترقب وانتظــار .. نظر إلى نهدها الصلب يعرك فخديها. كان كل منهما ينشد الآخر في نفور عصابي. نادها باسمها وسألها أن ترخى جسدها. هزت رأسها نفيا، وقالت متوترة خائفة وقد خيم عليها رعب الفشل: ما انى قادرة.

كانت التجربة قوية وحادة عليها فقالت وهو يقبض على نهديها عطشـــانة تريد أن تشرب. سألها إذا كانت تريد الآن. فكررت إنها تبى شوية ميى. فقام يريد إحضاره، لكنها رفضت وأصرت أن تحضره هى.

أزاحتـــه فى رفق وقامـــت تضم قميصها الممـــزق على نهد عار وتابعها ساخطا. كان يعلم أنها لن تعود. وخرجت تملأ كوباً من الماء، ورشـــفت وهى لا تعى إن كانت عطشـــى أم هو الخوف من نفســـها، وبدهشة رآها تعود وتستلقى فى ذات المكان، وكان يظنها لن تعود. قالـــت وبصرهـــا نحو الفراغ، وهـــو يلف ذراعه حـــول خصرها يعض أكتافها الرخامية بأسنانه، ونيس تحبني؟

- نعم

فمدت قدميها وتركته يعاود عراكه على جســـدها المزموم، لم تكن تفعل شـــيئاً، دارت بين يديه دورة الأفلاك الســـماوية وجسدها يسحق حبات العنب فتذوب بشرتها فى خدار يسكره نبيذ الكرمة. وبينما كانت له حلماً من كرة صلبة مغلقة يديرها بين يديه كيفما شـــاء، لكنه عاجز عن النفاذ إلى أعماقه، بلغه الإنهاك ثانية، صاح

غاضبا: ارتخي. ليش تزمين نفسك.

ارتخت ولكنها عاودت الانكماش بعد وهلة قصيرة في عنف. كانت قد انفجرت منذ قليل بين الكروم في شلال هادر من الأورجازم دون أن يدرك ذلك. فلما صاح بها يطلب منها أن ترتخي. قالت وهي لا تعي شيئاً: إهدا.. إهدا شوي أنا تعبت.. ما اني قادرة لا أستطيع. زاد حديثها من انفعاله فهتف بعصبية: لما أنت تعبانة هكي ليش تلاعبيني. دفعها عنه قائلا هيا غادي ابتعدي. استدار منفعلا وقد حل به السأم.

دهمتها اللوعة. وهو يعطيها ظهره والأسى والحزن.. كانت السعادة العابرة طوق نجاة خادع. تركها للأمواج الغاضبة تضرب بها جدار الوحدة الصخري. خيم صمت طويل فلما استدار إليها وجدها ممددة باردة مغمضة العينين. وقد حلت بيدها سروالها. فانهال عليها بحيوانية وفظاظة يستقي لذته وحيدا ويتركها لنار الثلج تنهش عظامها. ضمت جفنيها وعضت على نواجذها في حزن غضوب. وقد عبرت مخيلتها صورة وجه زوجها عمر في ملابسه الرسمية السوداء. وبقيت تحته جريحة تنزف كرامتها المهانة. فلما انتهى دفعته عنها. وقامت تلمم أشياءها المبعثرة ورحلت تبكي في حرقة إلى غرفتها. وقد بانت أشعة السحر الأولى

وفي الصباح عاملته في نفور وجفاء بالغ. وكادت وهو يحدثها أن تحيل ما جرى بينهما إلى فضيحة. لكن خيبة أملها تحولت في الأيام التالية إلى لوم لنفسها. وأخذت ترجع فشلها إلى تصرفاتها وعصبيتها ونفورها. وراحت تنظر إلى ثوبها الممزق الملوث بعصارة العنب ومشد صدرها اللذين احتفظت بهما بدهشة تتحول إلى ابتهاج. ثم ما لبثت أن جمعتهما معا وأخفتهما في مكان أمين تحدق بهما وقتما تشاء. أما ونيس فما إن جاء الصباح حتى رحل وفي نيته ألا يعود وقد شطر وجهه شرخ عميق في المرآة.

* * * *

فصول للموتى

-21-

غــدا تغتصب ســالمين شــرعا. الكل ســعيد. يعبــث به جذل طفولى وسعادة خالصة. إنه الزواج سنة الحياة وسرها. عندما يجرد يصبــح نكاح رجل وأنثى. وعندما يعــاد تركيبه يتحول إلى علاقات اجتماعيــة عريضة ومعقدة ومتشــابكة. تبدأ من صلة الرحم إلى الوثائــق المجهولة بأجهزة الســجلات المدنية والشــرعية التى توثق الســلالة. وتورث الأســماء والــدم والمواريث. وعلى الأطــراف تجتمع كل النقائــض. مــن الصدق إلى النفــاق. ومن الحب إلــى الكراهية. ومــن الوفاء إلى الخيانة. والكل ســعيد: أبواهــا وإخوتها وأعمامها وخالاتهــا وصديقاتها. كل من يرتبط بها بصلة الدم أو الصداقة أو الجيرة. منهم من هو ســعيد لها أو لزوجها ومنهم من هو ســعيد لتلك الفكرة الأبدية المتكررة عن الاتحاد الشرعى بين الذكر والأنثى. والنســل القادم. دوما الزواج والتناسل... عالم من الهلع الكل فيه ســعيد عداها هي: وقفت فى جمود الموتى. شاحبة همدت عيناها الجميلتان رعبا من هذا الشــيء الذى يأتى وئيدا كى يفتح جسدها فــى ثبات الكوابيس. وكلما مر يــوم كلما اقتربت كلابات لا تتركها إلا وقــد نزعت عنها أذرعها وســيقانها وترحل وقــد تركتها بفعل عصابى ممزقة قطعاً صغيرة فى بحر من الدم الدبق.

* * * *

هام في المدينة ساعات طويلة يجوب شوارعها بلا هدف. عابرا الطرقات الرئيسية نحو البحر. وعاد يخترق الوادي أسفل الجسر العام للطريق الرئيسي. وانحرف عند الجسر القديم ملتصقا بحوائط المنازل ميمما شطر حوشها. يحاول الاختفاء عن عيون المارة. يظن أن جميعهم يعرفون سره. يشعر في نظراتهم ازدراء واحتقار ضعفه. أمام محل صديقه صاحب حانوت بغداد جلس صامتا بينما على الذى قدم له الشاي يتظاهر بالانهماك في العمل.

سرح ونيس طويلا يتخيل اغتصاب سلمى فأحس بالغثيان. فلما اقترب علي منه سأله فجأة شنو سوت هادي البنية؟ سأله أى بنية يقصد؟ قال اللي تبى الإجهاض.

انعقدت ملامح صديقه يسأله إذا كان ينوي القيام بعمليات إجهاض. قال بحزن إنه يقبل إذا كن فى حاجة.. وأضاف هن مسكينات والله.

- طبعا لكن كنك تقدر تسوى هكى عمليات.

أجاب في تثاقل «سهلة يا راجل». تشاغل على ودار حول نفسه فى أرجاء الحانوت وفجأة باغته بالسؤال: كم تبي؟

نظره بامتعاض وقال ما نبى شيء بُكّل. نبى لترين من عينه دمها.

- باهى وامتى تكون جاهز.

- غدا .

- تسويها هنا أجهز لك الغرفة الداخلية.

- لا أنا نسوى الجراحة بالمستشفى.

أجاب بانشراح: نشهد الله خير فعلت. وقام ونيس لا يدري كيف ورط نفسه.

وفي ظهيرة اليوم الثاني وكان قد وجد استحالة عمل العملية بالمستشفى. فتح باب شقته عن علي. وبجواره فتاة مذعورة

مختفية في عباءة. لما كشفت عن نفسها سأله شنو هذا؟

- اللى اتفقنا عليه بالأمس.

- لكنها مو هادكاهى البنت.

همس علي: الأخرى انتحرت. نظر مشدوها ونادها: تعالي شنو أسمك. أجابت في خوف«ريم». استدار يحدثه: هادى طفلة أجلسى.. ما تخشى شيء. وشنو تعملين ؟. قالت بوجل: ندرس.. أنا طالبة.

- فى الثانوى؟

- لا في الإعدادى.

عندما شرع بالعمل ارتعشت يديه. ولم يمض وقت قليل حتى بلغ به الاضطراب مداه. وقف رفعت على باب الغرفة يحدق فى ونيس مشدوها لا يصدق عينيه. وفجأة تقدم هامسا: توقف.. توقف.. ستقتلها بين يديك... ما الذي تفعله الجننت؟.

نظر إليه ونيس بدهشة وسأله: كيف دخلت؟

- الباب مفتوح وأنت تصنع لنفسك قبرا.

خلع رفعت بذلته وراح يغسل يديه مسرعا بمطهر. وارتدى قفازاً طبيا. وأزاح ونيس الذى أوشك على الانهيار. همس ونيس: وينه علي ؟

- طردته وأغلقت الباب .. هات قطن .. أزاى سمحت لنفسك. عاوز تقضى على مستقبلك. أجاب مهتاجا : باهت فيها.. طفلة هادى.

- يخصك إيه؟.. تشرع الكون .. أمسك فخديها جيدا.

- عندك دم من عينتها .. مجنون مفكرتش في سمعتك.. هل تطمئن إلي هذا الحمار؟ مش ممكن يفشى سرك.. مش ممكن يحضر لنا الشرطة الآن!.

- لن يفعل. سأله عن ما دعاه للتورط إذا ما كان فلوس.. موقف أخلاقي.. وأضاف: فاكر نفسك ملاك الرحمة حضرتك.. كنت فاكرك عاقل.

- مين هو العاقل.. نتركها تنتحر كيف الأخرى.
- انتبه.. نسكت شويه لحد ما ننتهي من المصيبة دي على خير.

* * * *

جاء يوم عرسها، أغلق عليهما الباب برتاج خارجي، تصاعد صوت الدفوف وأغانى الأفراح، والنسوة والأطفال والفتيات يرقصن، ويغنين لها، فى صخب ومرح شديد، يخفى صراخاً يتصاعد من داخل غرفة العرس التى فاحت برائحة الدنس.. وسالمين تصرخ تناديه فى قاع وعيها، تتمنى لو يأتى ليخطفها من بين يدى مغتصبها، لكن الوقت كان يمضى، وبفعل قوة قاهرة قيدت بأذرع شدت عليها فى عنف، طعنت طعنة ليتها تميتها، لكنها ستبقى عليها معذبة بانتظار الموت، أو مهيأة لأمراض العصاب والهوس الهستيرى، وانطلقت من أعماق جسدها المشدود صرخة تنعى طفولتها السعيدة، وانفجرت فى بكاء شديد حتى هبطت عليها سحابة ثقيلة من الظلام، وهى تعض نواجذها تشهق فى خفوت، تروض نفسها على اغتصابها اليومى القادم .

* * * *

هام على وجهه بالمدينة يجوب أحياءها القديمة والجديدة متنقلا من حى المنار إلى باب شيحة، ومن السوق إلى باب الشرق، وحى الساحل، كان ينهك جسده ليخفف عن رأسه عبء العواصف والأعاصير التى تتلاطم داخله، هام حول منزلها، سمع ضجيج الأفراح فانتابته قشعريرة الموت، وأحاطت به وحدة قارصة، وفى آخر الليل قفل عائدا إلى شقته متشرنقا بعالم من الوحدة، ولم يخرج إلا نادرا .

ومر أسبوعان منذ رحيل ونيس، وأمه وأبوه يتحدثان عنه فى سخط، لم تدر ثريا سببا لغيابه، حتى جاءت عائشة إلى القبة، علموا بزواج سالمين، وأن أخاها المعتكف فى فراشه مريض لا يريد أن

يرى أحداً، ولا يستقبل أحداً، بكت أمه بينما أعلن أبوه سخطه.

مريومان وثريا في القبة ذئبة حبيسة سجنها غير المرئي يحرسه عشرات الأوصياء. حموها الذي يجلس على باب الحوش مثل حارس قلعة. كنتها التي لم تتوقف عن البكاء منذ جاءت عائشة. أهل القبة الذين يراقبون زوجة أكبر أثرياء الشرق تهذر وحيدة. وهواجسها النفسية. وهذا الغول المخيف المدعو عمر أقوى شخصيات البوادي والحضر، وأكثرها نفوذا الذي يعيش خارج البلاد. يأتي وقتما يأتي ويرحل وقتما يشاء.. غير عابئ بها ولا بحقوقها الزوجية.

ثمة رجل ملقى وحيدا شعرت أنه في حاجة إليها. ربما هي التي في حاجة له. وبقرار مفاجئ، مالت على أمه وقالت لها «بترك لك صباح وأنا بروح غرناطة بيش أشوفه. يمكن يكون محتاج شيء. نظرت لها الأم بامتنان، وهي تعلم أن ذهاب ثريا إلى أخي زوجها الاشكابلي بداية لإعلان كارثة عن نفسها. عندما خرجت مالت على أمه وأخبرتها أن صباح نائمة، وأنها أخبرت حماها أنها راحلة إلى الحاضرة الشرقية تعود أختها المريضة.

في الثالثة ظهرا أدارت محرك سيارتها البيان فيو الحمراء طراز 520 وتحركت باتجاه طريق الساحل. وعندما بلغته اتخذت اتجاه الشرق. على الطريق الساحلي تجاوز عداد السيارة البيان فيو مائتين وعشرين كيلو متراً في الساعة. المتعة أم الغبطة الشعور الطاغي بالبهجة أيهم هو الذي وهبته لها السرعة الفائقة التي تقارب خط الموت. وفي منتصف المسافة التي تجاوزت حافة الاندفاع إلى تخوم الخطر تنسمت المعنى الكامن للمسافة اليسيرة بين الموت والحرية.

أسفل إحدى العمارات الضخمة أوقفت سيارتها بجانب الطريق وهبطت منها لتدخل البناية المواجهة. وعندما طرقت الباب فتحت فاطمة. سألتها ثريا وهي مبهوتة: هادي.. هادي شقة

الدكتور ونيس بوزوي.

- نعم.. تفضلي.

دخلت تنظر فاطمة باستغراب وحرج، ووقفت جامدة الملامح تخفي اضطرابها، تنتظر منها أن تدلها على مكانه.

على باب حجرته وقفت، وجدته ممددا على الفراش، أشعث غير حليق، ممتقع الوجه، شاحب الملامح، وبجواره الدكتور رفعت، رآها هتف باسمها، فحيته باضطراب، قالت من مكانها: خير ونيس شنو بيك، باتك والعجوز قلقانين عليك، والعجوز تبكي واجد.

- تعالي.. ادخلي، بقيت في مكانها مسمرة، وشعر رفعت بالموقف فقال « سنرحل أنا وزوجتي الآن . وأعود لك غدا، عايز حاجة».

-أشكرك بالله ما تنس توقع الأجازة من المدير.

- اطمن .. خليك في حالك واهتم بنفسك.

عبر رفعت الباب فأفسحت له ثريا المكان دون أن تنظر إليه، وجاءت فاطمة تحمل بقايا الطعام للخارج، وتعود له بفنجان القهوة، وكوب من عصير الموز المخلوط بالفراولة لها، حيت فاطمة ونيس من الباب، وحيت ثريا فلم تزد عن أنها حركت شفتيها في صوت غير مسموع، عندما سمعت صوت الباب يغلق تحركت نحوه، وقد ركزت نظراتها عليه، مد لها يده ليجلسها على الفراش قبالته قالت: شنو بيك ونيس ليش ما تجئ وحشتنا واجد؟

أجاب في حزن: تعبان كتير، تعبان، نفسي أرحل لبعيد.. نفسي اختفي في آخر الدنيا.

سألته: لشنو؟ حبيبتك تزوجت، أغمض عينيه علامة الموافقة.

- برغبتها، رفع رأسه وأجاب أرغموها، عاد يسكن حزنه.

نادته: ونيس.

- نعم

- باهي .. وين ما تروح خدني امعاك..

بقيت الكلمات تائهة عاجزة عن النطق. وحل على المكان القلق والحيرة. وقفت أمامه. تابعها بعينه تنضو عنها الجاكيت وتعود. لتندس بجواره في الفراش. دون أن ترفع رأسها إليه. ومد ذراعه كي تتوسده. لكنها عدلت وضعها. فتحت أزرار قميصها. وجذبته ليتوسد صدرها. فلما استقر بينهما. ضمته بذراعين حانيتين. واتكأت برأسها على رأسه.

كان مجهدا فنام نوماً عميقاً. وبقيت هي مستيقظة تلمح تقلصات وجهه. تحكي كوابيس حياته. فتحاول مثل أم أن تأخذها عنه. ترقيه وتدفع أناملها تفرق شعره الغزير حتى يهدأ وينزاح توتره.

في العاشرة ليلا استيقظ. كان عاري الصدر يتوسد صدر زوجة أخيه. قام للحمام وهو يفكر فيما يحدث حوله. سألها إذا ما كانت قد تأخرت على العودة. عارضا استعداده أن يعيدها القبة. أخبرته بنعومة وهي تغطي عريها عن كونها أخبرت الشايب إنها راحلة إلى الحاضرة الشرقية لزيارة أختها المريضة.

وقف يحدق بها ثم قال وأمتى تروحي . أجابته «توا».. وصمتت طويلا قبل أن تستطرد «إذا بتبي؟». دار حول نفسه لا يدري ما الذي يجري؟ .. ولو.. لقد أصبح الآن على يقين من أنها جاءت لتمضي الليل معه. قال بأخذك الحضر الفجر.. صمتت.. وعندما عاد إلى الفراش غط في النوم سريعا ولكن كان عاريا عري آدم.

هي أيضا فعلت. وقد عزمت امرأة أخرى غيرها أن تصير غانية. وبين يديها. وفي أحضانها جسد يقول لها خذيني.

عمر الحاضر بينهما. لم يغب. وبينما كان ونيس يظن أن الطريق الذي ارتادها معا منذ عودته من ألمانيا. كان سينتهي إلى هذه اللحظة. عزمت ثريا أن لا تفكر لا في ماض ولا مستقبل. مكتفية باللحظة التي تنالها الآن وتوا.

في العاشرة كانت تلمسه بأناملها وتتلاعب به وتفر منه. قبل

أن تســـتعيد نبضاته المتوالية فى رتم وجودى بين كفيها وفمها كما ينبغى لامرأة أن تفعل.

فى الثانية عشـــرة قـــام إليها تدفعه الرغبة فى الجســـد الذى ينتظره. لقد بدأ عراكا بين حيوانين يبحث كل منها عن ســـر الآخر. منافـــذه مكامن العشـــق والرغبة. وفى الثالثـــة صباحا كانت ذئاب وأبناء آوى جبل الفتايح تردد وراء ثريا عواءها.

وفى هـــذا الليلة تألقت البدوية مثل نجمـــة من نجوم الفلاوات. وطـــوال ليـــل طويل كانت تنصهـــر وتصقل بين ذراعيـــه. تزيح بحار الاغتراب وتشبع جوعها العاطفي. وعندما رحلت فى ظهيرة اليوم التالى لم يكن هناك وسط فيض السعادة والبهجة مكان للندم.

* * * *

-22-

مر شهران على مجيء ثريا الأول لغرناطة . كانت الحياة بالمدينة تجرى وسط مظاهر الاستنفار العسكري. والفتية والفتيات يسيرون فى شوارعها الناعمة بملابس المقاومة الشعبية. وهو يستقبلها على مرات متباعدة خلسة. آنذاك كان يعامل نتوءات نفسيتها برقة وصبر واحتشام أثلج صدرها. وجعل مشاعرها تتفتح كأرض بكر تتلقى مواسم البذار المتأخرة. تحت أمطار تشكلت من مشاعر وعواطف غريزة.

عندما سألتها أمه بقلق بعد عودتها من أول ليلة أمضتها بين أحضانه. أين أمضت الليل قالت ببساطه فى غرناطة. ولم تجرؤ الأم أن تستكمل استفسارها .. أى غرناطة ؟ غرناطة عائشة أم غرناطة ونيس. وعندما سألها الشايب عن صحة أبيها ونيته أن يزوره. نهرته العجوز أن يفعل. وقد ذكرته بحجم العداوة بينه وبين عمر.

ابتسمت ثريا موافقة. سرها الآن بينها وبي ن أمه. وعلى العكس من ذلك. لقد شعرت أم ونيس بأن العالم ينهار من حولها. فعمر الذى سيعرف ولا شك. لن ينتقم من ثريا قدر انتقامه من ونيس. والكارثة التى حلت بناصر ابن ضرتها لم تهمه كثيرا. والآن يحف بابنيها معا حد السكين. الأول تعبث به امرأة أخيه. والثانى هارب فى قلب البادية حيث الصحراء مترامية الأطراف لا يعلم عنه أحد شيئاً. ماذا جرى؟

وماذا يجرى؟ ولماذا الأيام على هذه الشاكلة من القسوة؟

«جاءت القحبة»..

مع الوقت ران على ونيس مشاعر سأم سريع. عكس شعورها المتزايد بتعلقها به. الآن يفاجئها بعادات أوروبية مبتذلة. يجبرها على أن تجاريه إياها. وأن تقبل مداعباته السافرة. وبدون أن تعى عادت تنكمش على نفسها. غير قادرة على أن تتوقف عن تذوق شعاع الشمس الذى برز فى حياتها المظلمة فجأة. رغم طعمه الذى راح يملأها بمرارة العلقم .. الآن عندما تجيئه وتظهر بشقته كان يعاملها بشكل آلى. مستاء من شعورها السوداوي. وهو يهتف فى سره «جاءت القحبة»..

وفى الأحاديث الخلفية بغرناطة لبيوت المال ومجالس كبار الضباط شاع سرها دون أن تدرى. ففى مدينة صغيرة لا يبقى بها أسرار. ترددها المتكرر فى سيارة عمر بوزوى المعروفة بطرازها ولوحتها الخاصة. تقودها سيدة شابة فى جمال ثريا. تصفها فى الأزقة الجانبية للبناية التى يسكن بها ونيس. كان لابد أن يثير بمحض الصدفة التساؤل والاستفسار. لكن الإشاعات تأكدت عندما أشار أطفال عائشة لسيارة زوجة خالهم.

إنها هى.. غمغمت عائشة.. ماذا تفعل تحت عمارة ونيس.. وعادت بأطفالها إلى منزلها. وطوال الليل كانت السيارة لا تزال فى مكانها.. اليوم التالى رأت عائشة زوجة أخيها غير الشقيق تغادر فى الصباح الباكر منزل أخيها الشقيق.. شهقت من الرعب..

وجه النقيب مفتاح الشهيبى زوج عائشة، تحذيرا صارماً لونيس. فلم يبد اهتماما وقال بسأم«هى تجى أنا ما نبى منها شىء». قالوا «وخوك»

تطلع إليهما والدموع تترقرق فى عينيه تغيم بالجثة السوداء المدلاة من حبل المشنقة وقال«خلاص ما عادنا خوت».

أخذت السيارة منها لأسباب لم تفهمها وبيعت على الفور. وأصبحت بلا سيارة. ولم يمض أسبوع حتى أعيدت ثريا للحاضرة الشرقية عنوة.

شعوره بالارتياح استعاده مع ريم التى كانت تجيئه وتمضى الليل معه. كانت ماجنة تهاجمه بابتذال ووقاحة. وتتقبل مداعباته وتجيد تكرارها فى سرعة وسهولة ويسر.

تعرف عليها فى آخر أيام الشتاء. والغروب على الطرقات الفارغة بالعتمة. وأضواء مصابيح الطريق الشاحبة. من أحد الأزقة سمع صوتاً يناديه. وعندما دقق النظر لاحظ شبح فتاة بين العتمة. عاد بسيارته إلى الوراء ليقف أمام الزقاق. اندفع شبحها ووقفت على نافذة السيارة تصيح به «وحدك». ولم تنتظر إجابة. فتحت باب السيارة وقفزت داخلها. وهى تصيح «هيا دكتور.. بالله عليك عجل».

- وين تبي الذهاب؟

- وين ما تبغى توا. بس ها المرة نصف ساعة.

مضى بالسيارة إلى الطرقات المظلمة يتجنب وسط المدينة والشوارع والأحياء المزدحمة. سألها عن اسمها. صاحت به مؤنبة : ما تفتكرنى؟.

- اعذريني.

- أنا ريم.

سألها فى دهشة «شنو.. أنت..!».. تذكر الفتاة التى أجرى لها يوما ما. وهو فى حالة سكر بين عملية إجهاض. وأنقذه صديقه من كارثة. قالت «نعم .. هادى هى أنا..»

سألها ابنة من تكون. قالت بدهشة ما تعرف؟ لشنو أنت سويت العملية. ضحك لفرط وقاحتها. لشنو تظنى.. رأفة بحالك؟

- هـا باهى أنا بنت الـزروق عمزان قال بدهشة «صاحب الاتحاد العربى للمقاولات». مالت برأسها تقول«مو بالضبط.. أنا بنت أخوه»

- ما فى فرق، لكن واضح إنك تلعبى، تبى تسوى إجهاض ثانى وثالث. قالت بغنج عندما يصير صديقها ستقطع لديه كارنيه. ضحك حتى ترقرقت عيناه وهو يعقب كارنيه ومجانا. سألته إذا ما كان متزوجاً، فنفى، وتساءل لماذا السؤال. قالت ما نبى شيء. نزلنى أهنا.

- كيف ما تبى. أمسكت بكفه تحييه، وهى تغمز له بعينها «تشاو.. نراك مو هكى؟». هز رأسه بالموافقة.

فى إحدى نزواتها سألته وهى ممددة عارية بجواره تدخن الحشيش فى سجائر الدانهل «تزوجني.. فكر شوي.. أنا ريم بنت الزروق عمران نضمن لك أسهما معقولات فى الشركة التى يبى باتى يكونها مع خوك.. وما تخاف من شى. ما تدفع درهم. هم يبحثون عن مين يكمل العدد القانوني. الأقارب والثقاة وإلا اللواء القائد يأم فيهم. ترى أنت تقدم لهم خدمة.. فكر يا دكتور. أنا نعرض عليك عملية مالية مربحة. هم يحتاجون ثلاثين عضوا يبون مشاركتهم الاسمية مو جديات، وبدون رأسمال. تأخذ أرباحا كاملة. وأضافت وهى تهجم على جسده وتعتليه بعريها «وتاخدنى كمان على البيعة. شنو رايك فى هكى صفقات. ضحكت ملتاعة بالهوى والغنج وقالت وهى تلمس له بأصبعها شفتيه» يا دكتور أنا نتكلم جديات».

حدق بالفتاة التى لم تتعد الرابعة عشرة وقال مستاء وهى ممددة فوقه تبحث عن ما تسكنه ما بينها لا تجده. كان يثبتها كى لا يمكنها من تحقيق رغبتها.. ضحكت بجشع. وأضافت «باهى فكر بدك تدير بيزنس على.. لوتارية يا دكتور». صمت قليلا ثم قال «هذا يجنن عمر .. لكن ما انى فى حاجة لهكى». وأمسك ساعدها بخشونة وقال بقحة «تأكدى من تناولك الحبوب. ما تتحملى جراحة إجهاض تانى.

قالت تثيره بغنج «وشنو يؤكد لك أنى واخدات حبوب.. ويلى

تثق بي أنا!!!!!!!».

فتح عينيه بانزعاج «ولشنو ما تاخدى الحبوب». ضحكت وهى تدير له ظهرها العارى تستعد للنزول من على الفراش وتقول « نبيك تتورط معي.. نروح لبوى ونقوله هكى عريس أنا نبغاه. أنا نشيل ابنه فى حشاى. تضطر تتزوج بي. ولو تفكر جديات. وتكون عملى. هاذى تكون مصلحتك واجد.. واستدارت تقبل أذنه وهى تهمس: حق النبى أنا نتكلم جديات يا دكتور.

جذب ساعدها وهى تضحك. وقال غاضبا «مصلحتى أعرفها أنا ما نتزوج. ما نبغى نجيب أطفال نهائى فى عالم كيف هاداكاهى. لو حملتى أنا ما نديرلك عمليات ولا نجهض فيك. أنا نخنق فيك أنت حتى إن نطلع فى روحك بين يدى هادى.

هزت كتفيها فى لامبالاة وهى تدير رأسها فى رقة كاشفة عن كتفٍ عارٍ «شنو أسوى مع بنى آدم ذكى .. كنك مو غبى.. خلى عقلك يستريح شوى» وضحكت فى غنج وهى تقول « كيف ما تبى بس أترك يدى حبيبى».

جذبها بعنف. وأطلقها على الفراش. فانطلقت تضحك. انقض فوقها بثقله يضغط على جسدها الرقيق المدد فى رقة ورقة السيجارة. وهى لا تتوقف عن ضحكها تستفزه.. عاهرة فى جسد طفلة. تلوت بمتعة. وكأنها تستقى لذتها من الاختناق. وكلما خفف من قبضته عادت لضحكها الصاخب بتحد وشبق يدفعها دفعا لحواف الخطر والإثارة.

وعندما وضع مقدمة إنسانه لم تتوقف عن الضحك. كان غاضبا. ولشدة غضبه أدار ماكينته بقوة وعنف. دون أن تتوقف عن الضحك. وكأن ما يجرى لا يخصها. واصل مشوراه حتى يأتى بها من عالم اللامبالاة. وقام بها وهى متعلقة برقبته ينبئها بوجوده.

حتى عادت إلى عالم الاستجابة. هذا الذى حدث بعد زمن طويل. ولو لم تبدأ فى اللهاث. لتهاوى منهزما. ألقى بها إلى الفراش من عل، كتم أنفاسها. حتى توقفت عندما سألها دون أن يدرك لماذا كان سؤاله «ترى تربون فى كلب؟» هزت رأسها بالإيجاب.

- شنو نوعه؟ . لم تتمكن من الإجابة فرفع كفه عن فمها. عندما قالت: دوبرمان.

تراجع مذهولا.. وقف مندهشا ينظر لها وهو يفكر فى عمق. طرقع بيديه يدعوها للقدوم. فقفزت نحوه. أشار لها بأصابعه أن تجلس على الأرض ففعلت وهى تضحك.. كانت على أربع تهز مؤخرتها. حمل المياه بكفيه فمالت تلعقها. وإذا كانت قد بلغت نشوتها وقامت ترتدى ملابسها راحلة، وهى تقول له بوقاحة أن يفكر جيدا فى عرض البزنس الذى تعرضه عليه. وكان يغوص متجهما فى قلب الصدمة. أمسك بها ثانية. وهى ترجوه ضاحكة أن يتركها ترحل، وكان سيفعل لولا أنه سمعها تغمغم خلاص باهى عرفت نشهد الله أنك أقوى منه.. هنا استعادها ثانية. وألقى بها أمامه على الفراش. مستخدما قفازاً طبياً ومرطباً. وبقسوة متناهية ضاجعها من الوراء.

فى البداية لم تفهم.. ربما أخطأ طريقه. لكنه لم يكن.. حل بها السكون. وبينما كان يفعل ما لا يريد أن يفعله. كانت دموعها تنهمر بغزارة. وقد توقف جسدها كلية عن الاستجابة. وعندما انتهى قامت تبكى. ورحلت صامتة تمسح دموعها دون أن تنظر نحوه. كانت تظن أنها تسعده. وكان يظن أنها تقهره. وهاهما كلاهما يقهر الآخر.

* * * *

استدعيت ثريا على الفور من البوادى، فجاءت ومعها ابنتها. بلغت الحاضرة الشرقية فى العاشرة صباحا، ودخلت الفيلا وهى فى حالة من الانشراح النفسي، وأقبلت على العائلة بشوق ومودة لم تعهدها بنفسها من قبل، لكنها استقبلت ببرود جاف. ومع مضى الساعات داخلها يقين بأنها تعامل بإهمال. وعلى ملامح الأخت الصغرى صديقة نظرات لا تخفى الاحتقار، فأسرعت تختبئ فى كهف العزلة، متشرنقة داخل صدفتها الصغيرة. صعدت إلى غرفتها، ولما حان ميعاد الغداء، وارتفعت أصوات طرق الأطباق والملاعق بالمائدة، مصحوبا بضجيج الجالسين، حتى حفت الملاعق بقاع الأطباق الفارغة، لاحظت برعب أن أحداً لم يدعها، أصابها الفزع، وغرقت فى لجة من الأفكار السوداء، شرعت تبحث عن غيبوبة تهرب بها من المكان والزمان، وعندما ساد المنزل سكون الظهيرة نزلت وطفلتها إلى المطبخ متسللة كلصة يدفعها الجوع، متسولة بقايا الطعام وهى تخشى أن يراها أحد.

طوال اليوم كان يدفعها بعيدا عنهم حائط صلد ظهر مؤخرا فى وجوههم. فى إحدى المرات دفعتها صديقة من كتفها بخشونة كى تفسح لها طريقاً، دون أن تبدى اعتذاراً، فلما صعدت إلى غرفتها وساقاها لم تعدا قادرتين على حملها. فى اليوم الثالث ارتدت ملابسها وهى تختنق وحدثت كنتها بأنها ستخرج فى سيارة عمر لساعة وتعود فلم تجبها. تابعها الجميع بنظرات جامدة وهى تعبر الصالة الداخلية بصحبة ابنتها إلى الباب الخارجى. فى السيارة لم يدر المحرك. أخذتها العصبية وهى تعيد المحاولة. فكرت أن تستنجد بأحد، لكنها لم تفعل، فلما رفعت غطاء المحرك وجدته بدون البطارية. شعرت بمن يراقبها، رفعت رأسها لأعلى. وجدتهم جميعا بالشرفة يتابعونها فى اهتمام. عندما التقت نظراتهم لم ينبس أحد بكلمة، وأخذوا ينسحبون إلى الداخل واحد بعد الآخر، حتى فرغت منهم الشرفة جميعا وبقيت وحيدة. عندما

وجدت الشايب فى الباب يصيح فيها بخشونة وهو يدعوها بيده للدخول«هيا ادخلى هيا.. وبن تبى تدهوري». صعدت غرفتها ممتقعة اللون. وخلفها ابنتها متعلقة بردائها منطوية على نفسها.

مر أسبوع عاشت بينهم منبوذة. محاطة بمشاعر العداء والكراهية. وهم لا يتورعون عن دفعها من طريقهم فى صمت وكراهية. لم تسلم الصغيرة من اضطهادهم.. فكانت تنتابها الرغبة فى الثورة عليهم جميعا. ولكن وازعا داخليا كان يطفئ روحها الثائرة ويدفعها إلى انتظار عودة زوجها من القاهرة..

لكن ماذا كانت تعنى عودة عمر لها..؟ ..كانت تعنى الرعب..

وفى مساء أحد الأيام صاح عليها الأب أن تجهز حاجياتها. وتستعد للانتقال إلى حجرة حميدة. تساءلت دهشة عن السبب. فلم يجبها مباشرة بل حدث امرأته بأن تخبرها بأنهم يقومون بعمل إصلاحات بالطابق العلوي. وأشاحت الأم بعينها صامتة وهى تعنى أنها تسمعه. الوحيدة التى حملت لها مشاعر الإشفاق فى نظرات عينيها كانت أم ونيس. لكنها كانت تتحاشاها. ولم تسع لحظة لأن تقترب منها. أو تتبادل معها كلمة. كان أى تعاطف معها يعنى موقفا معادياً لكل من الأب وعمر. وكلاهما عات فى عدائه. مدمر فى كراهيته.

وعلى مدى ثلاثة أسابيع أزيلت حوائط الطابق العلوي. فتحت شقة عمر على شقة ناصر التى كانت منزل عرسه الذى تحول إلى مأساة. وعمد بموت العروس. ليتحول الطابق بأكمله إلى شقة واحدة. غرفة نوم واسعة كبهو. وفتحت صالة الاستقبال على غرفة الطعام. ملحق بها بار كبير. وأعيد تشكيل الحوائط على هيئة أقواس دائرية. زخرفت بديكورات من الخشب الماسيف. وتحول الحمام لقاعة بمسبح صغير ملون. ملحق على غرفة النوم الرئيسة. زينت حوائطه بالمرايا واللوحات الزيتية. وتعددت ألوان الحجرة الواحدة

على النمط الأوروبى الحديث. وعلقت مجموعات من الكريستال التشيكى والنجف الإيطالى. وبعد أن انتهوا بيومين. وقفت شاحنة ضخمة بمقطورة فاختفت النسوة وراء الأبواب. وتحت إشراف أحد المهندسين امتلأت الفيلا بالعمال الذين قاموا بنقل قطع الأثاث الثمينة الفاخرة المستوردة رأسا من أعرق محلات الأثاث الإيطالية بروما. لحساب بوزوي. وفى كل غرفة وكل ركن ثمة تحفة حديثة أو فازة من الصينى الثمين. ولما هتفت ثريا من الإعجاب جاءتها إجابة حازمة وسريعة من صديقة بأن هذه الأغراض ليست لها.

تحت بشرة رأسها الرقيقة دارت دوامات من الأفكار السوداء. هى الآن ريشة فى مهب رياح الغضب. فرخ حمام فى عاصفة من الرعب. يمامة تنتظر انقضاض ثعبان كوبرا. وقبضة عمر بوزوي. ولن تستطيع أن تجد ملجأ لدى أحد. خاصة حوش أبيها الذى يكن لها عداوة وكراهية منذ خذلانها له يوم خدعه عمر خدعته الكبرى.

عندما أتى المساء تحولت الهواجس العريضة إلى حدس. والحدس إلى حقيقة غير معلنة. الكل يعرفها ولا يجهر بها. ليس عن خوف منها. ولكن لكونها أقل شأنا من أن يبالى بها أحد. سوف تأتى امرأة جديدة تحتل مكانها. فمن هي؟

فى الصباح عرفت غريمتها: فتاة فى الثامنة عشرة. أخت إحدى الشخصيات السياسية الرفيعة التى تتبوأ موقعا رئيسيا فى الحلقة المركزية العليا للثورة. عراب عمر بوزوى منذ صعوده. إذا فقد انتهت ثريا وانتهى عصرها. وبعد أن كانت امرأة على عرش الحاضرة الشرقية صارت خرقة عفنة يمرغ بها فى القاذورات.

من يستطيع أن يجعلك تضمحلين حتى تبلغى حد التلاشي؟ كنت ثمرة شهية اقتناها عمر حتى تعفنت بين مقتنياته وها هو يلقى بقاياها إلى المجارى العامة.

الصمت والتيبس العقلى والفراش القديم المتهرئ. وطفلتها

التى تذوى فى سكون حلفاء الغرفة التى قذفت إليها فى الباحة الخلفية للدار. وكلما ارتفع الضجيج والصراخ وارتطام الأشياء المعدنية بالأرض وطرق أذنيها الأصوات المجهولة المختلطة لأشخاص تصيح بآخرين. بأصوات آمرة وسعادة. مختلطة بأصوات غلق وفتح المزاليق الخارجية. والحركة المتصاعدة تنبئ عن العرس الجديد. تسحب الحياة من أمامها. تبهت الأصوات وتخف الضجة وتختلط الأضواء الشاحبة بالظلال. وتضيق رحابتها حول أشباح راقصة.

تضيع منها سيارتها البيان فيو، وأسفلت المدينة وبحيراتها المترامية وأبنيتها الحديثة الدالة على ما بلغته فى زمن قياسى من النعيم والثراء. تتلاشى حوانيتها المتلألئة بالسلع الأوروبية الحديثة. سوق الظلام المزدحم بالمشترين من أجناس مختلفة. وثراء السوق الجديدة. وغرفتها السابقة المكدسة بفساتينها وملابسها الداخلية باهظة الثمن وعطورها الباريسية. وتلك الأشياء التى تجعل منها امرأة مستوحشة وحيدة. امرأة مكتفية صلبة تخمش الهواء الذى يحيط بها فيتساقط قشورا هشة. ليحل محلها رعب مهول وخوف مذهل. لقد جعلوها حشرة ضئيلة تنتظر وقع ضربات حذائه. وابنتها تتابع هذه الأم المتغيرة فى دهشة واستسلام وبراءة.

ضوء من كوة الأمل والوهم أفاقت عليه. أن يخطفه الموت. ولو بفعل قوة غامضة مجهولة. أو حادث عارض؛ لتحررت من سطوة طغيانه المريع. من كابوس يجثم على أنفاسها.. لهذا ظلت تردد.. لو مات.. لو مات..

صلت لله تدعو موته.. أن تنقلب به سيارته على الطرقات. أن تنفجر طائرته فى الجو.. لو مات ستمنح جسدها اللذة الكاملة. ستستعيد عشرين عاما من الجفاف.. الدهماء والمشوهون والعجزة وحمالو البناء التى تفوح من أجسادهم رائحة النتن. البدو الغلاظ القساة ستمنحهم كل ذرة وكل خلية من جسدها. حقا غير

منقوص من المتعة الجسدية. أخوه الأصغر والأوسط وأبوه لن يفلتوا من سطوة جسدها. ستحطمهم وتحطم كل رجل وسيم الملامح. ستذله، وتذل جسده... لو مات..

لو مات ستطلق نهديها للريح وتلقى جسدها الرخامى للماء البارد. ستجعل كل حياتها حمامات للسباحة والعرى. ستستعيد طفولتها. سترتدى الملابس البيضاء الطاهرة كملاك جميل. وتحج بيت الله الحرام وكعبته المقدسة، وتزحف على ركبتيها بين الصفا والمروة. لأن الله أنقذها من براثن عائلة بوزوى: الحاج مفتاح وزوجتيه، وعمر والكلب ونيس الذى تدفع ثمن إيمانها به الآن. وحميدة الضائع فى صحراء البادية هربا من المطاردة.. وستجعل من ابنتها أسعد أطفال المدينة..

لو توقفت الحياة بى عند صدر أمى.. لو أن هذا ليس سوى حلم مزعج لكابوس لا يعاود حضوره. لو أستعيد لحظة اختيار حياتى من جديد. لابتعدت عن هذا المكان الذى يوجد فيه بمائة طابية ولعبرت صحراوات البادية، واحات النخيل، وعيون الماء وتبعت الشمس من مشرقها حتى تغيب فى الأصيل.

الصمت والتيبس العقلى والأيام التى تمر، كانت هى الأخرى تخفف العبء العصابى، مستسلمة فى الهروب من ظل اللحظة، إلى شمس التهيؤات وهى تتحول حقيقة واقعة.. لكنه الباب يفتح عليها فجأة وهتاف طفلة تنادى «بابا» فتعيد الحياة انسحابها السريع.

جمدت ثريا من الرعب الذى حل بها واستدارت فى بطء تقاوم تجمد أعضائها. فكأنها باب حجرى يقاوم ثقله. سمعته يهتف باسمها بصوت خال من التعبير «ثريا ».

كانت تنتظر صفعات وركلات ميتة، ولما لم يحدث انبعث الأمل، تعلقت باسمها، الذى نطق به، فأجابت وهى تستدير إلى قامته

المهيبة كفهد فى لهفة «نَعَمْ ».

استقبلها بوجه منشرح. وعلى شفتيه وفى صوته ابتهاج. فتلفعت بمشاعر الاطمئنان. ووضعت فى وجهها الخالى من الدم ابتسامة اغتصبتها من عشائر الخوف السبعة تتقدمها المسكنة والذل والحيرة .

- كيف حالك ؟
- بخير عمر.
- بالله ضعى توقيعكْ على الأوراق هاذى.

ألقى إليها بمجموعة من الأوراق ضمنها شيك وأوراق أخرى لفتح حساب باسمها فى أحدْ بنوك ايطاليا. همست: شنو هذا عمر؟

اقترب منها فانزاحت بجذعها إلى الخلف مذعورة. لم يلتفت لرد فعلها. وقال تعلمين الثورة تصدر قوانين تأميم وهكى تصادر أرصدة فى بنوك والأملاك. لكبار رجال الأعمال. باهى وهم يصادرون أرصدة أسرهم. ودفع ابنته إلى الخارج دون أن يأبه لبكائها. انتبهت وهو يخرج عدة شيكات تحول أرصدتها التى تبلغ ثلاثة عشر مليوناً وستمائة ألف دينار فى بنوك وطنية مختلفة لحسابه. وقال لابد من سحب هذه المبالغ اليوم. بيش يرحل ايطاليا غدا. ليودعها باسمها فى أحد البنوك الإيطالية. حتى يتفادى تجميدهم.

وقلب ظهر كفه. اهتزت وأخفت فى سرعة وجهها بين يديها. تجاهلها. وقال وهو يستدير إلى الباب فى تأكيد مصطنع « تعرفى.. أنا توا نحط باسمك مثلهم». هزت رأسها موافقة وهى تحدث نفسها .. هذا ما يريده باهى.. باهى.. يأخذها.. يأخذها .. يأخذ كل ما يريد كل ما أعطانى إياه .. ويتركنى .. نبغى أنفذ من بين يديه.

كانت ترتعش ويدها غير قادرة على الإمساك بالقلم. كى ترسم اسمها وراحت إلى الأوراق تتفحصها بعينين مغرورقتين بالدموع. بحثت عن الصك بأصابع مرجفة. وهى تخشى على عينيها من

أصابعه التى تقترب حد الملامسة.

جسدها المرتجف. ساقاها اللتان لم تعدا قادرتين على حملها.. ها أنا أنتهي.. ها هى النهاية تقترب.. وأخيرا وجدت الصك .. صفته على عجل.. إلا أن القلم خذلها فوقع على الأرض. انحنت تستعجل النهاية وهو يقف أمامها عمودا حجريا ضخما .

دون إنذار ضرب مؤخرة رأسها بكفه فانكفأت لتصطدم بالطاولة المصنوعة من الزجاج الصلب.. تساءلت وهى تسقط بين شظايا الزجاج غير قادرة على الصراخ من الألم. وفمها مفتوح على مصراعيه. كيف تجمعت كل هذه القوة فى قبضته. رغم هذا قامت تبحث عن الأوراق لتوقعها دون أن تأبه للدم الغزير المنثال على وجهها. جن جنونه استسلامها السريع. واقترب وفى وجهه وعيد الشيطان. غطت وجهها بساعديها من الرعب. كان يلف جدائل شعرها على ساعده كحبال سفينة غارقة.

انتزعها من الأرض فارتفعت خلف شعرها وفروة رأسها مصعوقة من قوة الألم وقد شق نتوء المقعد ثوب نومها فبدا ظهرها عاريا. وتهدل نهداها إلى الأمام. فزاد ذلك من ثورته وهياجه. دفعها إلى المائدة وهو يصيح «لشنو ما تبيي توقعي.. هه.. لشنو». وكانت ترد عليه وقد خنق البكاء والألم حلقها فى صوت غير مسموع.. أنا نوقع... أنا أسوى اللى تبيه.. يستطرد لشنو ما توقعى الصك تشكى بي.. هذه فلوسى أنا.. هذا مالى أنا.. يدفعها بقوة. تصدم بالحائط لتسقط على الأرض. لكنها تجمع قوتها لتقف تبحث عن الصك والقلم كى تنتهى من هذا الوحش الهائج الذى كان ينفضها ويرتطم بها فى كل ما هو صلب. وهى تردد دون صوت سأوقع.. سأوقع..

وتركها حتى أمسكت بالقلم بعد بحث متعثر. فلما وجدته قبض ثانية على شعرها وجذب رأسها إلى الخلف وهو يصيح.. لكنك لا تبى توقعى.. لشنو ... بدى أعرف.. تبى تسرقيها؟ وهبطت

يـده الأخرى بقوة علـى خدها. فاندفع الرأس إلـى الناحية الأخرى.. ترك شعرها فاندفعت محشورة بين الأرض والحائط. وقد شعرت في فمها طعم الـدم المالح.. ووقف بينها وبـين المائدة صامتا. تحاملت ثريا وهى تهتف بنفسـها فى رعب.. يجب أن أوقع كـى أنتهى منه.. زحفـت على أربـع. تحاول بلوغ ظهـر المائدة. فلمـا وجدتها تعلقت بحافتها تحاول النهوض فلما اسـتقامت ضربهـا فى فكها ضربة خطافية بقبضته اليمنى. طارت بسـببها إلـى آخر الغرفة. كانت صباح تبكـى وتدق الباب فى الخارج. وسقط إلى جانبها يفح كثعبان.. أنا اللى يؤكل لحمه يا قحبة يا شـرموطة.. أنا الذى تلوث سـمعته بين البوادى للحضر. وهبط على وجهها كفه الذى يساوى مطرقة. فراح يضربها بحزامه الجلدى ويركلها بحذائه. وحيثما كانت تتهيأ للضرب كانت تغمض عينيها مخفية رأسها بين يديها فى صمت

.. لو شـئت قتلتكما ولكنكما حشرات جرباء. كلبة ساقطة. وتيس زامل.. مو أنا الذى يؤكل لحمه وقعى وإلا قتلتك .

وزحفت ثانية وقد انهال الدم من وجهها وجسدها. حتى بلغت المنضدة المهشمة. رسمت اسمها على الصك. فلما انتهت جاءتها دفعـة قوية من الخلف فسـقطت إلى الأمام وقد اصطدم رأسـها بالحائط .

لحظات كالدهر قبل أن تستفيق وتعتدل فى جلستها: ارتكنت بجذعها على الحائط مفترشـة الأرض. ممزقة الملابس ممددة الساقين عارية ينثال الدم منها. وقد اهتزت الغرفة فى رأسـها. لا ترى سوى الظلام. حتى سـكنت وهى تسـتعيد ملامح العالـم تدريجيا فى عينيهـا. كان منتصبا وسـط الغرفة يعطيها ظهـره. يلم الأوراق داخل حقيبته السمسونايت. سمعته يقول شيئاً تخيلته كما لو يكون «أرحلى غادى حوش التيس أبوك»

امتلأت عيناها بظهره: عملاق شـرس. تابعته يخرج من الباب.

فإذا به يغيب. ويعود الباب إلى عينيها المنسحبتين من الحياة. لقد خلت الحجرة منه. تمددت بصعوبة على أرض الغرفة الباردة. صدرها يتنفس فى ثقل. ببطء رفعت يدها تقترب من وجهها. وبصعوبة وضعت أصبعها فى فمها تمصه كطفلة تحدق فى الفراغ.

أصداء.. أصداء.. شاهدت نفسها تعبر مدخل حوش أبيها المظلم. مترجلة على الأقدام. بدا وهى تلمح فى عينى أختها خيرية سيول سوداء من الشماتة. زنزانة مظلمة للتعذيب.

أصوات عاصفة تنطلق على ظهر خيول الريح الفسيحة فى رأسها ترجه.. أصداء تعبث برأسها.. أصداء تتجمع من هذا الفضاء لتصب شلالاً هادراً تحت سطح قشرة رأسها.

أصداء قرعت رأسها على طاسة نحاسية مثبت عليها تاج شوك. التوت عيناها وتهاوت. تستمع إلى الضربات البدائية لضجيج العالم المشكل من ملكوت السماء وقاعه السفلي.. وذلك الإنسان الضعيف السادر جهة الظلام الأبدى .

أصداء.. أصداء.. تغرق مساحات شاسعة من منطقة الوعي. تختفى داخل مناطق الظلال. تفتح فمها لتصرخ. يخرج فحيح ريح قادمة من كهوف بدائية تشكلت من صخر الزمن.. تجحظ عيناها بالعذاب. ها هو المخ ينفجر فى نزيف دموع تحت قشرة الرأس.

ثمة شيء باق من وعيها يجعلها تتحرك ببطء للخارج. هناك حيث حمام السباحة وقد امتلأ بالمياه وانعكست على صفحته الأضواء. المعد خصيصا للفرح القادم. حمام السباحة الذى بنى من السيراميك الإيطالى الفاخر تقسمه مربعات الحياة بخطوط الذهب والفضة. وتتوسده السيدة العارية القاطنة بأسفله تنادى التائهين. حمام السباحة الذى كان وعدا بالمحبة وهدية مودة منه. سيصير لأخرى قبل أن يرتاده جسدها كما حلمت من قبل طويلا.

ها هو يود لو يستقبلها. يشدها تدفعها إليه حاجة من بقايا وعيها الذى يتلاشى منها.. نقطة الضوء الأولى تنبعث من فوهة سرداب أبيها المظلم. حيث هى ملقاة بقاعه. مقيدة بعشرات من ثعابين الحكايات القديمة. وأفاعى الذكورة. العالم الذى لا تنتهى إليه المسافات. القهر.. الألم.. الهلع.. الانفراج عن ساحة من الفرح الضوئى.. آلاف الألوان لقوس قزح. يوشى سماء شمسية من أسلاك الذهب اللا نهائية بحبات الزمرد.

ضحكت وضحكت وصرخت.. خف وزنها فجأة وراح ثقل الاختناق. لا تحمل شفاهها سوى حركة خامدة. ترحل بعدها موجة وحيدة فى بحر اللا نهايات لتغمرها الراحة الأبدية.

* * * *

فى الصباح أشار أحد عمال الطلاء إلى المسبح الحديث. هناك كانت طفلة تبكى جسد امرأة مشوقة القوام لموديلات الحداثة. تطفو فوق المياه عارية: عرى لا يكسوه سوى قطعتين شديدى الصغر لمايوه بكينى من أزهار الزنبق. مصلوبة على سطح المياه. وجهها الذى كان ينظر شمس الصباح يحيط به هالة واسعة من الليل المجدول بشلالات من جدائل الشعر الحالك لامرأة بدوية. ترسل رسالة الحياة للكون. وفى عيونها الخامدة كانت بقايا من أسئلة موجهة للرب..

إلهى..

لم أكن الأنثى الأولى التى ولدت وحيدة من رحم البرية..

ولم تعطنى رسالة لبشر تعساء ..

ولم أكن عذراء..

ولا مريم المجدلية..

فلم جعلتنى مسيحك؟

لم صلبتنى على صليب من المياه البدئية؟

لم يا إلهى جعلت صليبى أوسع مدى..
لم ثبتنى بأشد قسوة من مسامير الناصرى..
وجعلت نهاياتى أشد عذابا من النهايات المكرسة على طريق الجلجلة..
وإذا لم أكن مرسلة..
وليس فى فمى رسالة..
أسأل حضورك الكونى..
لو أننى أستحق هذه النهاية..

عندما أخرج جسدها الوردى من حمام السباحة، كانت ثريا قد أعلنت عريها بثوب من الصمت السرمدى. لم تكن ميتة بأى حال، رغم كونها قد عزمت على الهرب من تلك الحياة التى عاشتها، وتلك التى تنتظرها، بحثا عن مكان آخر، لا تعرف أين يمكن أن يكون فى مملكة الله المعروفة، وربما خارجها.

* * * *

فى صباح اليوم ذاته كان عمر على ظهر الطائرة المتجهة إلى روما، يحمد الله ويشكره، فقد كان فى حقيبته الأوراق التى تتيح له تهريب أرصدته جميعها للخارج، إنها لحظة فاصلة فى حياته، ولن تمضى ساعات حتى يكون قد أعاد إيداعها فى أحد البنوك الخاصة التى يصعب تتبع أرصدتها.

لهذا كان لعبارة إنها مصابة بشلل فى المخ، وفقدان فى الذاكرة، التى أبلغ بها خلال مكالمة هاتفية فى مطار روما، صدى مريح استلزم منه التوجه بالشكر والحمد لله، وقد عزم على التصدق للفقراء والمعوزين، وأن يسهر سهرة حمراء بين غانيات روما، فما يقارب من نصف ثروته كان باسمها، وها هو الآن مودع باسمه فى بنك روما ناشيونالتى، وهو أيضا ارتاح من حمل الانتقام وهمومه، أو الطلاق بفضيحة تهز الحاضرة الشرقية، وأصداء انتحار

درية عروس ناصر لا زال يحلق فى ذاكرة الحضر.

عندما عاد من روما استقبله الجميع بالصمت. ربما يخفى حزناً. فثريا على أية حال. امرأة صغيرة هجرها زوج تضج الحضر والبوادى وروما والقاهرة بمغامراته النسائية. كان الوحيد الذى يضحك. إلا أنه مشغول البال بكيفية الانتقام من أخيه الأصغر ونيس .. لنؤجل الأمر..

لكن القدر لا يؤجل شؤونه. فمنذ الصباح الباكر لأحد الأيام الأولى من شهر أبريل. أطلق الموت على مدينة الحضر الشرقية مناجله. كانت الطرقات ترجف من البرد. والناس يسعون لشؤونهم وفى قلوبهم رجفة. لا يتوقعون الهول المنتظر فى سماء المدينة. وفي الثالثة ظهرا. تلك الساعة المشئومة من الزمن. المسروقة من عمر العشائر التى استوطنت الشرق منذ قرون خلت. وحيث تعودت أن تغلق المحلات التجارية أبوابها. وتجري السيارات مسرعة في الشوارع الخالية من المارة. والمنازل والأحواش تغفو قيلولتها الباردة. وقف عدد قليل من النجارين فى منتصف ميدان البلدية أمام مبني الاتحاد الاشتراكي الذي كانت آثار حرائق المظاهرات الطلابية في يناير الماضى بادية عليه. يجمعون عروقاً من خشب. ينصبونها واحداً بعد آخر. ربما كان كبيرهم يعرف ما ينوى تشييده. ربما رأى مخططات الموت تسم علاماتها على الميدان فى رسوم تفصيلية. ربما كان عماله يعرفون. ربما لم يكونوا بشراً. وإنما من أعوان الشيطان. فهذه مهمة قاسية لا يتركها إلا لأتباعه ومريديه. ورغم ذلك لم يلفت تجمهم انتباه المارة. منصة مسرح شيد فى منتصفها أربع دعامات عالية من الخشب مد بين كل اثنتين منهما عارضة قوية. فماذا يمكن أن يتوقع: منصة احتفال سياسى لم تستكمل. سرادق فاخر ستأتى من أجله وفود البوادى والحضر لعزاء شخص مهم . مسرح للفن ليس من المتوقع تشييده فى هذا المكان..

أشياء كثيرة لتوهمات واحتمالات عديدة عبرت دون أدنى اهتمام

أذهان المارة العائدين من أعمالهم والمتسكعين فى الجوار. لكن فى اللحظة التى صعد فيها أحد العمال ليلقى من منتصف العارضة الخشبية الممتدة بين الدعامتين حبلاً من التيل القوى ينتهى بعقدة للشنق ليهيئ منصتى إعدام من المشانق. ارتعدت المدينة وحل بها الرعب. والخبر ينتشر انتشار الهشيم فى سماء المدينة الوادعة: ثمة مشنقتان منتصبتان فى قلب ميدان البلدية.

الذهول الذى انتاب العدد القليل من المارة وهم يتطلعون إلى ما لم يسبق لهم أن رأوه أو توقعوه خارج الصور المدرسية. والأفلام التسجيلية المصورة التى تحكى عمليات إعدام المجاهدين والتى كانت كل ما تحتويه ذاكرتهم. لم تكن لتستطيع الصمود أمام الوقائع العيانية التى تنتصب الآن فى قلب المدينة معلنة بأن المشهد الماثل أمامهم ينتمى للزمن الحاضر. وأن الوقائع الملموسة رؤى العين تلقى بالضرورة بعلامة استفهام طافت سماء الحضر.

من الضحيتان اللتان تنتظرهما أعواد المشانق؟

سؤال عبر سماء المدينة ووجدانها فى سرعة البرق. كانا هناك ينتظران فى عربات مصفحة ينتظران مصيرهما. لا تحايا .. لا هتافات.. لا وداع من الأهل.. لا عناق مع الأحبة.. لقد لحق بهما العار. وهما يعاملان معاملة الخونة.

وقبل أن تبدأ الشوارع في استقبال الضجة الاعتيادية للمتسوقين الخارجين للنزهة في طقس ربيعي معبأ بنسمات البحر القادمة من المتوسط. التف حبل المشنقة بقوة علي عنقي الطالبين اللذين اقتصا من المبني الذى أطاح بالعشرات من الرفاق. فاختطفوا منهما الحياة. وتدلي في رداء الموت الأسود جسدان غضان فى شرخ الشباب لم تتعد أعمارهما العشرين. معلقين من أعواد المشانق الحزينة وقد غطي وجهاهما بالبرقع الأسود للمحكوم عليهم بالإعدام شنقاً. والذى تم استعارته من محاكم التفتيش

الإســبانية. ومحارق الســحرة. والفتك بأعداء الكنيسة الرومانية. والأعداء الطبيعيين للملوك. وقطاع الطرق واللصوص.

تحــرك الجســدان كبنــدول الســاعة. فارتجف قلــب المدينة مع كل اهتــزازة. وبرز كفا قدميهما المكلــل بالزرقة ضعيفا.. ضعيفا.. كضعف الإنســانية أمام الطغاة.. تتدلــي الأصابع التى غاب عنها لون الدم تقول لن أســتطيع أن أدب علــي الطرقات ثانية.. لا يهم .. لن أحتاج لهما بعد..

.. الآن أنا فى طريقى طائرا إلى ملكوت الرب.

التحم المارة في حلقة تتســع شــيئا فشــيئا. وقد وقف علي رؤوســهم الطير. وبــين المفاجأة والدهشــة ثمة فتاة فــي الثامنة عشــرة تعلق بها طفل صغير. شــرعت تكســر الحلقات البشرية المحلقة حول الموت. كانت تقترب من الجثث تبكي في هدوء تحيط بها الهالة المقدســة لارتباط الأحبة بضحايا الطغاة.. تتكســر الدوائر وتتسع.. تنتشر جحافل الحزن.. يكلل وجه المدينة بالسواد..

منذ الســابعة مســاء لم يغادر أحد منزله. ليلقى الموت الذى شرع مناجله فى سمائها. وأغلقت المحلات فى احتجاج صامت أمام نزعة الطغيان التى عصفت بالمدينة. واختفي المارة من شــوارعها. واختفت من الطرقات أضواء السيارات وبقيت أنوار الشوارع الباهتة. سيارة وحيدة قادمة من مدينة غرناطة الشرق التى شيدها حجاج أندلسيون عابرون للحج. هربا من مجازر ملوك الطوائف ومعابدهم المشــيدة من جماجم الخصوم والأعداء والحلفــاء والأصدقاء لا فروق ولا مبــررات. ســيارة وحيدة كانــت تنقض على الطريق الرئيســية قادمة من الجبل الأخضر. استجابة للرسالة الهاتفية الباكية التى تحاملت بها زاهية على نفسها لتقول:

«أستاذ ونيس تعال توا.. نرجوك.. خوك معلق على الطرقات»

الكتلتان الســوداوان اللتان كانتا تدليان من أعواد المشانق وهو يلقى بســيارته فى ناصية شــارع عمرو بن العــاص. تحولتا فى ثوان

لبرقعين يخفيان رأسين لجسدين معلقين من رقبتيهما فى قلب ميدان البلدية. خانته أقدامه وهو يتقدم وسط الأعداد القليلة. لكنه عزم على بلوغهما. سار يدفع كل معارفه وأهله الذين تجمعوا ينظرون ابنهما صغير السن الذى جرى إعدامه عقابا على حرق المبنى الذى يمثل فكر الثورة. الوحيدة التى أخذها تحت كتفه. وسار بها قدما ناحية المشنقة كانت زاهية حبيبة أخيه وصديقته ورفيقة أيامه الأخيرة. كانت تتمتم وتقول «والله حرام.. ما يستحق.. كان كبير واجد وقتلوه»

حاولت الشرطة منعه من الاقتراب. لكنه بدا هائجا للدرجة التى جعلت الضباط يتركونه يمر من الكردون المقام حول المشنقة.. وهناك أمسك كل منهما بواحدة من أقدامه. يبكيانه بضراوة وهما يقبلان أقدامه. وحولهما وحتى التاسعة مساء تصاعدت تلاوة القرآن من أفواه أهله والوقوف القليل عندما أنزلت الجثتان.

وهناك حيث عشق وجوده. فى أديم الجبل الأخضر. سارت سيارة وحيدة. طبقا للأوامر العسكرية. تحمل جثه أحد عشاقه. عندما انحرف النعش عن الطريق الساحلى كان بانتظاره أهالى القرى والدساكر وخيام البدو واقفين للتحية وعلى رؤوسهم الطير مشيرين بأصبعهم إليه وهم يغمغمون آيات من القرآن الكريم..

* * * *



بعد سبع سنوات

- 23 -

البادية مرة أخرى.. مرة ثانية مصر تضيق بأهلها (بما رحبت).. تغلق كل سبل الرزق أمامى وأمام كثيرين من أبناء جيلى الذين انخرطوا فى الحركة الطلابية وكافحوا يوما من أجل تحرير الوطن. وكأنها تنتقم منا.. وكأنها لا تعلم أنه لولانا لكان السادات قد وقع صكوك الاستسلام ولأصبح العار يجلل هامات الوطن حتى هذه اللحظة.

مياه كثيرة جرت منذ قاتلت مصر من أجل استعادة سيناء. وعندما أرتفع العلم ذو الشريطين الأزرقين على الأراضى المصرية. كان الرد العربى مقاطعة جماعية وإغلاق غالبية سفارات الدول العربية. حتى أصبح السفر لكثير منها دربا من المستحيل..

لم يكن أمامى سوى اللجوء إلى صديقى (خالد منصور) الذى يحظى ولا يزال باحترام شديد فى العواصم العربية . فكتب لى خطاب توصية لقيادة البادية الذين قادوا وجهة نظر الصقور فى معسكر الصمود والتصدي. ولم يكن أمامى سوى السفر إلى واحدة من الدول التى تحولت إلى محطة يسافر منها المصريون إليها.

وهناك عشت فى تونس الخضراء أياما كثيرة. وقد أخذنى سحرها. وسيطرت على وجدانى سهوب الخضرة الممتدة لمرج البحر. تحتضن أمواجه وزرقته الصافية. وشوارعها الواسعة النظيفة.

تنتشر فى أرجائها محلات بيع الزهور. لم أفكر فى الاقتراب من سفارة البادية. مفضلا دخولها بالشكل المعتاد بدلاً من اللجوء لخطاب التوصية.

أنا مواطن عربى ومن أوليات حقوقى دخول كل بلاد العرب دون تأشيرة ولا تصريح. ناهيك عن استخدام واسطة تمكنى من دخول وطنى الأكبر. ولذلك تركت خطاب التوصية فى الفندق ونزلت متوجها للقنصلية. وهناك فوجئت بطابور طويل من المصريين ليس له نهاية. وقفت أنتظر الساعات الطوال. حتى بلغت الموظف القابع خلف الزجاج:

- شنو تبى؟

- أبى أدخل البلاد.

- عمل ولا زيارة؟

- عمل.

- معك عقد عمل؟

- لا.

- ممنوع.

- طيب أبغى زيارة.

- أنا ما نى سألتك عمل ولا زيارة.

- ما فهمت سؤالك يا أخى.

- باهى يا أخ .. معك دعوة؟

- لا.

- ممنوع.

شعرت بالواقف خلفى يزيحنى ليأخذ دوره. ويقدم جوازه للموظف.. وفى لحظات وجدت نفسى لست خارج الطابور فقط. ولكن خارج الموضوع بأكمله.. وقفت غير مصدق. فأنا عربى والبادية أرض العرب.. لكن يبدو أن هذا كان قانونى الخاص. وسط حزن وأسى شفيف أيقنت أن على أن أفعل ما ليس منه بد. وفى الفندق أدرت

قرص التليفون على رقم خاص فى عاصمة البادية. رد على أحد أهم الشخصيات المقربة من القيادة السياسية. بعد أن بحث له باسم الأستاذ خالد منصور انتهى النقاش وطلب منى على الفور الذهاب صباح الغد إلى السفارة والالتقاء بالسفير والتحدث معه مباشرة.

فى الصباح الباكر كنت أقف أمام مبنى السفارة أطلب مقابلة السفير. عندما أخبرتهم باسمى. فُتِحَتْ الأبواب على مصراعيها واحدا خلف الآخر، حيث وجدت نفسى فى لحظات أجلس فى صالون الاستقبال فى منزل السفير. ومدير المنزل يسألنى بأدب شديد تشرب إيه!؟

حضر السفير بعد قليل كان يبدو عليه أنه يعرف بشخصية ضيفه. وبعد كلمات المجاملة العادية طلب منى المرور على القنصلية لاستخراج التأشيرة. وشدد على ضرورة إبلاغه شخصيا بموعد سفرى.

«القنصلية تانى»... بلغتها ولا تزال آثار لقاء الأمس عالقة بذهنى. ولكن ما أبعد الصباح عن البارحة. فهناك تخطيت الطابور الطويل الممتد كالثعبان. وتوجهت مباشرة إلى الموظف القابع خلف الزجاج. قلت له «أنا دكتور رفعت بيومى» و... قبل أن أكمل ابتسم الرجل بترحاب شديد قائلا : وينك أنت يا مصرى؟.. اتفضل يا رااجل.

فُتح باباً صغيراً قريباً منه ودخلت... وبطرف عينى ألقيت نظرة إلى الطابور الطويل. فوجدت البشر قد تجمدوا فى أماكنهم. وعيونهم مصوبة إلى هذا القادم الذى تجاوز وقفتهم المضنية بساعات طويلة. وفتحت له الأبواب بترحاب. لا أنكر ما داخلنى من مشاعر الغرور ولكن بعد ثوان طاف بالخاطر إحساس غير مريح.. ماذا يمكن أن يظن هؤلاء الناس بى ..

خلال دقائق كانت التأشيرة فى يدى. وموظف القنصلية

يخبرنى أن هناك طائرة تغادر إلى البادية الليلة ويمكننى اللحاق بها.. شعرت بالخجل مما انتابتى فى طابور الصباح من أحاسيس أمام أقرانى من المصريين.. لا أعرف لكنى قررت البقاء قليلا قبل الدخول فيما لم أعد مهتما بدخوله.. لكن فى المطار وقبل أن أركب الطائرة تلفنت للسفير كما طلب منى برقم الرحلة. وهناك فى مطار العاصمة كان فى انتظارى مندوب من طرف الشخصية الهامة التى تلفنت إليها. عرفنى بنفسه وبأدب شديد طلب منى مرافقته. وبنظرة من عينيه تراجع موظف الجمارك الذى كان يهم بتفتيش حقائبى. خارج المطار انتقلنا فى سيارة خاصة إلى وسط المدينة. حيث أبلغ إدارة الفندق الصغير الذى نزلت به أننى «ضيف القيادة». منذ تلك اللحظة عوملت معاملة (V.I.P.). شىء ما جعلنى أرفض ذلك وأكرهه..

عندما جلست فى المساء وحدى أتأمل ما جرى فى الأيام الأخيرة من حياتى. شعرت بالظلام يخيم على المستقبل. والامتهان يزيغ النفس.. كيف وأنت خريج واحدة من كليات القمة. لا يشفع لك ذلك فى الحصول على حياة كريمة تعفى أبيك الذى طحنته السنون من عبء الإنفاق عليك بعد أن أفنى عمره ليضعك وإخوتك فى ظروف أفضل من تلك التى عاشها هو. وها أنت كى تبحث عن فرصة عمل ترحل بلاداً كى تعبرها لبلد عربي. وموظف القنصلية يرفض إعطاءك تأشيرة الدخول لأسباب واهية عبيطة لا معنى لها سوى أنها تتركك فريسة لتسول حقوق الحياة الطبيعية ولا تأنف أن تلقى بك للغربة تغتالك وحيدا بعيدا عن الأهل والأصدقاء.. ثم فجأة يتغير كل شىء وتفتح أمامك الأبواب. ويستقبلك السفير. لا لأنهم اكتشفوا أنك قيمة فى حد ذاتك. ولكن لأنك تملك «الكارت السحرى» الذى يحمل اسما هاما بكل المقاييس.

تاريخك..نضالك..دورك الكفاحى فى الحركة الطلابية والسياسية لا أحد معنى به.. أرفض ذلك وأكرهه..شعرت أن ما يجرى حولى ليس

سوى فصل من مسرحيات العبث واللا معقول.. ويا الغرابة ورغما عنك كنت أحد أبطال هذه المسرحية.. ما الذى أعادك إذن إذا كان هذا حالك.. ولماذا رحلت إذا كنت مضطرا للعودة؟.

«البادية مرة ثانية..» بعد سبع سنوات أمضيتها فى مصر تدهورت كافة التوقعات التى عولنا عليها لقيام معارضة مصرية قوية.. لم نكن لنعرف ذاك الوقت والحياة تذوى من بين فروج الأصابع. وبعد كل ما أدركناه وتلاشى ما سعينا لبلوغه ها نحن نكتشف أن الحياة جعلت منا هدفاً ينبغى بتره.

جيلى الذى صهرته معارك الغضب من أجل تحرير الأرض المحتلة. جرى طرده خارج مسرح الحياة. وألقى به للعراء. وبعد أن كان النضال ضد السلطة واضحاً كالشمس. والسجون والمعتقلات جنات فردوسية. تحول الأمر إلى كارثة.

لا تجتمع الثورة والفساد. وشيطان شريف خير من ثورى فاسد. فالضرر الذى يخلفه الأخير أفظع مئات المرات. الفارق أن الأول يضعك أمام خيارين الجحيم أو الفردوس السماوى. بينما الثانى يجعلك تكره فردوسه وجحيمه ونفسك معا. ولا يتيح لك سوى خيار وحيد: تيه لا متناهى فى مفازات العماء..

هذه خلاصة التجربة المصرية فى نصف القرن الأخير.. الآن أنا هنا أحاول البحث عن ترياق للشفاء من جرعات الألم التى تناولتها رشفة بعد رشفة. وجرعة بعد جرعة من أصدقاء كانوا لى فوق الشبهات. لا يخفف عنى الكابوس الذى أعيشه سوى أصدقاء آخرون كانوا قطعاً من الماس النقى ولا يزالون. هم حاولوا إثنائى عن الرحيل. لكنى عزمت ورحلت. كل الذى طلبته منهم أن يودعونى. لأنى كنت فى حاجة ماسة لوجوههم أحملها معى كى تصاحبنى غربتى الموحشة..

* * * *

فى الصباح سُئلت عما أرغب. طلبت العمل فى مستشفى غرناطة العام حيث كنت أعمل من قبل. نظروا إلى بدهشة. وسألونى إن كنت أرغب فى أى شىء آخر؟ قلت مطلقا هذا كل ما أبغيه. فى اليوم التالى حملت خطاب تعيينى، وسافرت فى نفس اليوم. كانت بى رغبة ملحة فى رؤية المدينة التى بناها الأندلسيون مرة ثانية. أحياؤها المشيدة على ظهر الجبل الأخضر. سهل الفتايح. بحرها المتوسط. ساحلها الشريطى الضيق يفصل بصفرة رماله الذهبية بين زرقة البحر وخضرة الجبل. هواؤها البارد. نسائمها المنعشة. لا أستطيع أن أخفى حقيقة كونى متيم بها عاشقاً لعرائشها. مدينة النساء.

فى صباح اليوم التالى تقدمت بخطاب تعيينى لمدير المستشفى. لم يكن هذه المرة الدكتور جمد البرغثى. لكنه كان رئيس اللجنة الشعبية الأخ مصباح عبد اللطيف. الذى عرض على منذ سبع سنوات العمل مع الثورة على طريق الزعيم الخالد عبد الناصر. أذكر لحظتها أننى ابتسمت موضحا أننى عزمت النية على ألا أعمل بالسياسة منذ اللحظة التى أغادر فيها أرض مصر. حيث تذوب المسافات وتتلاشى الحدود بين العمالة والخيانة لرفاق تجمعهم السجون. وحيث يصعب الحفاظ على الشرف الفردى وللحقيقة تقبل الأمر. الآن ها هو يلاحظ شعورا من الدهشة حاولت إخفاءه عندما قدمه لى الزملاء بوصفه المدير العام للمستشفى. ورغم ذلك كان ودودا. يحاول أن يكون أيضا صارما ربما كى يسد النقص الناجم عن شعوره بعدم أهليته لمنصبه.

فى البداية سار كل شىء ببساطة. استلمت تعيينى بعد الانتهاء من الإجراءات الروتينية التى استمرت سبعة عشر يوما. أقمت خلالها لدى أقارب لى. وبعد استلام عملى انتقلت للإقامة فى سكن الأطباء مؤقتا. لحين الحصول على راتبى.

ما إن استقرت الأمور حتى بدأت فى البحث عنه: دكتور ونيس بوزوى صديقى القديم الذى أجرى أولى عملياته الجراحية تحت إشرافى، فنجح. أثناء بحثى بدا لى أن الشخصية التى كنت أعرفها تلاشت، لتحل محلها شخصية أخرى.

كانت الأخبار تصلنى عن سكير خطر، تدور حوله الأقاويل والإشاعات، من تعدد العلاقات النسائية، إلى العمليات الجراحية القذرة بدءاً من الإجهاض حتى صناعة غشاء بكارة للواتى فقدن عذريتهن مبكرا، وسط شهرة ترددت بالاحترام والتقدير لكونه أفضل جراح فى الولاية الشرقية، حصل على الدكتوراه فى طب الجراحة من جامعة بون بتفوق. ورغم هذا لم أستطع مقابلته، فقد قيل لى إنه فى رحلة لحضور دورات تدريبية ومؤتمرات طبية فى أكبر المراكز العالمية لطب الجراحات المتخصصة فى الولايات المتحدة وأوروبا.

فى تلك الآونة عشت حالة المغتربين، أمضى حياتي بينهم وأعاني ما يعانون وهو كثير.. ولأسباب تتعلق بتأخر تأشيرة الإقامة لم أستطع توقيع عقد العمل، ولهذا السبب البيروقراطى الدنىء لم أقبض راتبى لمدة طويلة تجاوزت سبعة أشهر، أمضيتها بلا دخل أعيش منه. ولم يكن أمامى سوى الاعتماد على مساندة بعض الأقارب العاملين في الحَضَرْ، كان وضعاً يصعب تصوره. لكنه للغرابة كان يطال آلاف المصريين العاملين هناك..

كيف؟ و«نحن أبناء أمة واحدة» عبارة تصفعنا صباح مساء..

صرت شديد الحنق والغضب، فهناك زوجة وطفلان فى حاجة لمصروفات الحياة وأب آن له أن يستريح من أعباء أولاده.. لكن شيئاً ما بداخلي كان راضياً لأنني أعيش حالة المعاناة الحقيقية للمصريين المغتربين الذين لا يحملون «كروتا سحرية»

كانت هذه فرصة ذهبية للتعرف على مجتمع البادية الحقيقي الموجود خلف كواليس الشعارات التي يرفعها النظام السياسى.

إعلام يحسده عليه الأطفال المنغوليون. تليفزيون يعلن عن سهرة مع خطاب للقائد ألقاه في الحضر منذ ثلاثة أعوام. وكأننا سنمضى الليل على موعد مع فيلم ليوسف وهبى أو أنطونى كوين.. والخطاب إجبار بطعم الاختيار. وليس هناك بدائل.. بعد نشرة العاشرة مساءً تبدأ السهرة تعرض تسجيل لأهازيج وهتافات أبناء البادية بحياة الزعيم القائد. وفى منتصف الليل موعد وقف الإرسال التليفزيونى يخرج المذيع ليقول نكتفى بهذا القدر وغداً إن شاء الله سنذيع الخطاب وتصبحون على خير..

هذه الفترة بما رأيته كانت كفيلة بأن تجعلني أعيد التفكير في قناعاتي السابقة. وقد توصلت بالفعل إلى أن هذا النظام بكل ما يرفعه من دجل حول القومية والانتماء العروبي. يقدم بعد زواله البوادى والحضر على طبق من فضة لأشد النظم معاداة للعروبة. وأن أمتنا العربية وأوطاننا لم تعد بحاجة إلى مزيد من مهرجين بطعم العسكر ولا لنياشينهم التى منحوها لأنفسهم. وأن الحرية هي الحل الوحيد: حرية الفكر والعقيدة. حرية التعبير. حرية الانتقال. حرية تداول السلطة. وأن الديمقراطية هي السبيل الوحيد لأوطاننا كي تعيش بكرامة وتلحق بالعصر.. الطامة الكبرى أننى وصلت إلى قناعة أن وطناً يحكمه أمثال الزعيم القائد ليس فى حاجة لأعداء.

ما أزعجنى أننى علمت بطريق الصدفة. بعودة دكتور ونيس بوزوى من الخارج منذ أكثر من أسبوع دون أن يحاول لقائى. رغم أن الأخ مصباح ذكر لى بعفو الخاطر أنه أبلغه بحضورى يوم عودته.

ذهبت أبحث فى كل مكان فى المستشفى. قيل أنه يشرف على تجهيز مجمع للعمليات الجراحية الطبية الدقيقة. وأنه يستقبل وفداً من ألمانيا الشرقية قدم بالخصوص. وبين مجموعة من الوجوه الجرمانية. بحثت عنه وكان هناك وقد تغيرت ملامحه

كثيرا. قامته المديدة. وجهه العربي الملوح بالسمرة مغطى بلحية هوجاء. شعر منكوش غزير تتدلى على جبينه العريض خصلاته الشعثاء. وملابسه التى كانت دوما تتسم بالأناقة والذوق لم تعد كذلك. بل ملابس متنافرة تجمعت كيفما اتفق لتعطى انطباعا عن شخص ينتعل صندلاً وجورباً ولا يهتم بنفسه. ورغم ذلك كان الناس يتعاملون معه باحترام شديد. هل بسبب شخصه أم بسبب كونه يمثل الدولة الثرية أمراً مجهولاً. تقدمت نحوه بحرارة مخترقا الوفد الجرمانى مدفوعاً بشوق السنين. وبينما توقعت استقبالاً حارا وأحضانا صاخبة تنعشها ضحكاته الجلجلة. وجدت شخصا آخر ينظر نحوى بامتعاض وبرود. ويطلب منى أن أنتظره فى عيادته. لحين الانتهاء من عمله.

هل عرفنى ربما لا.. لكن دشا من الماء البارد وقع على أم رأسى. ترددت فى انتظاره. وفضلت ترك الأمور لتكشف عن نفسها. ولذا قررت تناسى الأمر بجمله وضمه لأرشيف الذكريات المؤلمة.

لكن غرف العمليات جمعتنا بالضرورة. ولما شعرت بتجاهله لى. لم أهتم وانكببت على عملى أؤديه كما ينبغى. وكما تعودت.. ومع الوقت تبين لى أن ثمة خطراً قابعاً دوما فى عملياته. وأن يده المرتعشة أصبحت القاسم المعتاد للحظات الجراحة الحرجة. ومع الوقت لم أعد أعرف ما يتعين عمله. سوى أننى عزمت على أن أكون قريبا منه دائما. حتى جاءت اللحظة التى كنا نجرى فيها عملية دقيقة لعروس شابة مصابة بورم ليفى يمنعها من الإنجاب. كان مضطربا منذ البداية. يحاول السيطرة على أعصابه بقسوة شديدة. وارتعاشات يده التى أشاع عنها مريدوه والمتحلقون حوله أنها ذروة فنه الجراحى توشك أن تسبب قطعا غائرا فى جدار الرحم سينجم عنه حتما إزالته. لتنتهى العروس الشابة التى جاءت بحثا عن الأبناء إلى عاقر مدى الحياة. ساعتها علمت أنى أفعل ما لم أسامح نفسى عليه قط. كانت رائحة الخمر تفوح منه. خرجت من

فورى واستدعيته لغرفة التعقيم، وطلبت منه بوضوح أن يرحل من فوره إلى منزله، وإلا سأتخذ إجراءات عقابية صارمة فى حقه، ولن أبالى حتى ولو انتهى الأمر للقضاء على مستقبله الطبى. كنت عنيفا للدرجة التى نظر إلى فيها بتحدٍ، توقعت فضيحة لم أرغبها. فى تلك اللحظة خرجت من باب جانبى خديجة عبد السلام حنيس طبيبة جراحة من الخريجات الجدد، التحقت للعمل بالمستشفى حديثا مع عدد من زميلاتها. طلبت منها بلهجة آمرة أن تدخل من فورها غرفة العمليات. نظر بيننا مثل أسد يفكر، وقبل حدوث الكارثة خلع معطفه وملابسه المعقمة الخاصة بالعمليات واستدار بكبرياء الليث ورحل..

خديجة بن حنيس طبيبة جراحة موهوبة بالسليقة، ترتدى عوينات طبية، وابنة للثورة، وعضوة اللجان الثورية، متوسطة الطول ترتدى الملابس القصيرة الضيقة، شعرها القصير العملى كان لافتا لبدوية من الجيل الجديد الأكثر عصرنة، قدمت من العاصمة بغرض الإشراف على مشروع تطوير قطاع التمريض فى مستشفيات غرناطة، وهى مكروهة دون أن تدرى سبباً ذلك، تعيش مع أعمامها الذين قدموا من الغرب مع جريدة حبيب.

خديجة بن حنيس كان يحلو لها منذ دخولها غرفة العمليات أن تتابع مهارته بإعجاب شديد.. الآن دخلت بديلة عنه، دون أن تدرى السبب، أو ربما عرفت لشدة ذكائها وبراعتها الشخصية والمهنية.

عندما أنهينا العملية بنجاح عزمت على الذهاب والاعتذار له عما حدث، لكنه لم يكن موجودا، وعلى مكتبى شاهدت مفكرة قديمة ترجع لسنوات مضت، لم أهتم كثيرا، وفى نهاية اليوم مددت يدى أحاول معرفة مصدرها ، لكنى فوجئت بالصفحة الأولى التى كتبت بخط نسخ جميل: «مذكراتى أنا حميدة بوزوى»

وكأن مطرقة من مطارق العصور الوسطى سقطت فوق أم

رأســـى، وأمامـى تدلـى جســـده الجيفارى الغـض التشـكيل من حبل المشـــنقة التـى نصبت فـى مدينة الحضر يوما ما بميدان البلدية أمام مبنـى أيديولوجية الثورة «الاتحاد الاشـتراكـى».

وفـى الجوار كتب ونيس بالقلم الرصاص جملتين

أنت تخليت عنه

وأنا ونيس بوزوى سلمته لهم بيدى..

أيام طويلـــة مضت قبل أن أجرؤ علـى أن أقلب الصفحات. لكن شعورى الممتلئ بالخوف من لقاء ونيس صدفة كان يدفعنى لقراءتها كعقاب ملزم يوقعه بى..

ماذا ســطرت يا من اُختطفَ شاباً على مضارب صحراء الحرية. وصدمتنى أول كلمة بمذكرات طفل فى الثانية عشرة من عمره..



"مُذكراتي"

"أنا حميدة مفتاح بوزوى"

رمانة الميزان وقسطي العدل

أنا حميدة .. تعجبنى ابتسامة ونيس .. لكن أنا حميدة
ما أصير كيف عمر ولا أدير له شغل بُوكل
أنا حميدة أصير حميدة .. حتى الحضر ما نبيهـا ..
اليوم تكتمل أسرتى .. مضى على ذلك زمن طويل
مثل الأيام القديمة .. أيام كُنا جميعًا فى
القبة .. عائشة لم تتزوج بعد ، عمر ، ناصر ،
ونيس ، ما زالوا طلابًا ، وأنا لم أتعد العاشرة
مِن عُمرى .. تلك الأيام كانت بهيجة ، أبهج
ما فيها الأفكار الصغيرة التى نمت وأينعت بين
هضاب الجبل الأخضر وقممه التى تُناطح السحاب .
هنا يتشكل مِن أديمه الجسد وتعلو الروح علو
قممه السامقة ، وعلى مروجه ينمو العقل ويختلئ
بتلك الأسرار الصغيرة التى يتوجب حلها ، مثل
كيف تكسب الأسرة رزقها ؟ الكسارة ؟ .. الشاحنتان
.. رعى الأغنام .. بيع صوفها الوفير الذى يجـز
بعد ذهاب الربيع ومجئ الصيف ..

أما كيف تلد الخرفان، فهذا سر عجيب، وما
أجمل تلك الحملان الصغيرة عندما تمد أقدامها
الأمامية كي تحاول الوقوف بعد خروجها إلى الحياة.
أختي الصغيرة صديقة، لماذا لا تحب أمي مثلما
تحب أمها؟ كما تفعل أختي الكبيرة عائشة
التي لم ألاحظ أنها تفرق في المعاملة بين الاثنتين،
أما هذه الفردة فهي لا تترك حضن أمها قط
ولا تذهب إلى حضن أمي. أنا حميدة لا يذهب
إلى حضن أحد.

الشيخ عثمان يقيمون له كل عام مولدًا، يضعون على
ضريحه علمًا أبيض، هل يستطيع حقًا أن يستجيب
لرغبات أمي ويجعل أبي يحبنا ويحبنا
.. أنا وونيس وعائشة أكثر من أن يحب امرأته
الأولى وأبناءها عمر وناصر وصديقة.
هكذا قالت جدتي لأمي وجعلتها تذبح له خروفًا

صغيرًا اشتريناه سرًا .. أنا أرجو ذلك، ولكن مَنْ
يدري أن امرأة أبي لم تفعل الشيء نفسه ..
على أنني أحمد الله أنني قد جئت ولدًا
ولست فتاة .. هكذا تقول لي جدتي، فلو أنني
جئت بفتاة ما تعادلت القسمة ولصار لدى امرأة
أبي ولدان وبنت، أما لأني جئت ولدًا فنحن نتساوي
والقسمة تكون متعادلة، فحمدًا لله، وللشيخ عثمان
الذي انتبه إلى هذا الموضوع وإلا كانت ستحدث
مُشكلة.

لكوني أصغرهم يجد الكل ما يشغله ويهملني، هذا سيئ ..
أبي لا يراني، وعمر دائم الشجار مع الجميع
لو يهتم بدراسته لصار موظفًا في الحكومة، ولا اهتم
به الملك.

ناصر يتحمل رعونة عمر، ويقوم بما كان يجب عليه
عمله، فكيف يهتم إضافة إلى دراسته.
ونيس منهمك دائمًا في مذاكرة دروسه ورعي
الأغنام.

ويكفى أمى أن تقوم بدورها فى أعباء المنزل
فمن ذا الذى سيهتم بى .. هذه هى المشكلة..
فلو أن أحدًا فعل لأجابنى .. أين ينتهى الجبل الأخضر؟
قال عمى عدى غادى .. ولم يكن ناصر موجودا
ونيس قال عند البحر .. تعجبت ..
ألا تساوى عدى غادى عند البحر..
انتظرت اليوم الذى أخرج فيه إلى الرعى أتجول
فى أنحاء الجبل
يعلمه البرد قيمة الحطب الجاف.
يعلمك المطر كيف يغسل الجبل، ينظف حجارته،
يُنقى هواءه
يرصع أوراق الشجر والأعشاب بحبات اللؤلؤ
كنت لأترك لأقدامى كل رابية وهضبة حتى أبلغ الأفق.
لكن عند آخر بيوت التنك يُصبح ما عدا ذلك مُحرما على
البدو يخطفون الأطفال، يأخذونهم للحَضَر ..

فى الصيف يبدأ موسم اللعب، الرجال والعجائز يلعبون السيجة

تسعًا وأربعين خانة، أنا أجيدها عندما نكون خمسًا وعشرين

أصنعها من الأجر، أجعلها مدورة فى حجم غطاء البيبسى

إذا قررنا اللعب أُخرجها مِن حيث خبأتها وأسرع فى العودة

سأكون عازمًا على هزيمة أحدهم، خاصة جمعة المتعجرف

فى أحد الأيام سرقتها صديقتى !!

شنو العمل مع القردة الصغيرة، أضربها ؟ ستقتلنى أمى..

وكلت إلى الشيخ عثمان بأخذ حقى منها.

ضحك عمر وناصر وونيس، وغضبت امرأة أبى

أمى لكزتنى فى خاصرتى، ماذا سيفعلون بى لو كنت ضربتها - أبتعدت وذهبت للجلوس بجوار ونيس.

بعد أسبوع أصبيت بالحمى : كيف أتوقع أن الشيخ عثمان سيهتم بطفل، ويستجيب لأمنيتى

حملتها امرأة أبي إلى المستشفى العام.
استأت كثيرًا، فطالما تمنت أمي أشياء كثيرة منه،
ولم يهتم
حتى أنا طلبت أن يكسب فريقي في الكرة، وخسر
فلماذا يستجيب إلى هذه الأمنية الشريرة ؟..
خيم الحزن على المنزل، وقفوا يودعونهم على باب
الحوش..
قبل أن تركب صديقة الشاحنة..
نادت على امرأة أبي : تعال يا حميدة..
لم أتحرك من مكاني.. أنا أعلم أن الجميع غاضب
مني.. بدأت في البكاء.. قالت: تعال ما تخاف..
اقتربت خائفًا.. وضعت يدها على كتفي، قالت:
حميدة سامح أختك صديقة على ما فعلته
وسأحضر لك ضامة من غرناطة. فقلت لها لا
أريد شيئًا يا حنا..
ثم أنا لم أقصد أن يضربها الشيخ عثمان كل هذا الضرر.
قالت بأهي ادعى أن يشفيها فهو يستجيب إلى

دعاء الصغار.

ولنشنو .. ؟

لأن الأطفال أحباب الله.

باهي نو أنا نذهب للصلاة، وغادي أصلي لها كل يوم ركعتين.

شرعت في الصلاة وكلما سجدت كانت مخيلتي تمتلئ بصديقتي وخاصة في الليلة الأخيرة، كانت تبكي من كل جسدها.

لم أسترح إلا عندما عادت ..

اجتمع حولها كل إخوتي، أنا فقط الذي بقيت وحيداً، كنت متأكداً أنها ما زالت غاضبة مني ولكن ما ذنبي أنا؟..

لقد سمع الشيخ عثمان أمنيتي واهتم بها أكثر من اللازم - ليحتفظ تفارقهم جميعًا، تقدمت نحوي وفي يدها علبة جميلة ..

وقفت أحدق بها مسحوراً .. وهي تعطيني كل الأنسيلم ضامة ودومينو .. قلت: لا أنا ما نبيش شيء.

قالت: خذها بدلاً من قطع الآجر التي ضاعت.

أستطيع أصنع غيرها، ومن ناحية أخرى نوا أنا

نلعب الكرة مع جمجمة المتحجرف .
بان على وجهها الغضب وقالت : اشتريتها لله –
وتو أنت ما تبيها
استدارت إلى أمها تصيح : مابيش بأخذها .
لمحت نظرات أمي تكاد تقتلني قتلا
صرخت خوذ اللعب مِن أختك يا تبس . .
وقامت إليّ ومن عيونها شر ويا لطيف منها ساعة شرها.
قلت مسرعًا : سآخذها .. ليش المشاكل ؟ . .
.. باها سآخذها أنا فقط كنت أريد أن أوضح ..

. . . . .

قال جدي : لولا الأغنام لمتنا جوعا .
نظرت إليها في امتنان وشكر ، وامتلأ صدري لها بالحب،
وقلت في نفسي : لأحمي من الشيخ عثمان أن ينفي عليها.
ويزيدها صحة عله يستجيب كما استجاب لدعوتي
الأخرى المشؤومة .

. . .

إذاً فهي الحرب . .

لم تعد صورة جمال عبد الناصر التى لدينا الصورة الوحيدة فى القبة ، بل صار منها كثير واحد .. من حوش الشهيى والعوامى أحواش كثيرة صارت تستبدل صورة الملك وتعلق صورته ..

إذن فهى الحرب ..

قلت لنفسى : باهى .. نأكل الآن فالحرب لا تغنى عن الأكل .

على مائدة الطعام تذكرت بندقية أبى ، هتفت بأبى

أجابنى دون أن يلتفت إلى :.أيش تبى يا تبس ؟

قلت وأنا أتوقع منه الاهتمام : تحارب اليهود ؟

قال وهو يلوك طعامه فى برود غريب : لا .. صدمنى .. شعرت بالاستياء .. كيف ..؟

كنت قد تخيلت التجريدة التى سترسلها القبة إلى الحرب ..

تضم الجميع

البوادى على الخيول تتقدمهم الرايات

الحضر في تتكات الدبابات والبندق على أكتافهم..
لكن ما يكون باى معهم ..!!!
هذا يصير عار ما تتحمله العيلة ولا تتحمله الزواوية..
وشنو نفعل ببندقيته؟ خطرت لى فكرة..
قلت: باهى باى .. توا أنت ما تحتاج لبندقيتك؟
أجابنى بذات الطريقة الباردة وكأنه لم يفهمنى: لا..
باهى. أقصد إذا ساءت الأمور وجاء اليهود هنا
سآخذها.. لم يجب، تجاهلنى تجاهلاً قطيعا
رأيت اللعينة صديقة تكتم ضحكتها..
صرت أسنانى وأنا أقول: الفردة مبسوطة..
أنا حميدة ما أيأس. ذهبت لعمر لا شك سيهتم،
وكان بمفرده..
سأنبهه إلى أمور خطيرة: هل سيجئ اليهود هنا؟.
أجابنى: لا..
كانت هذه أيضا مشكلة قلبت الأمور رأسا على عقب،
فإذا كانوا لن يحضروا هنا فلا داعى للبندقية، طب

عليش كل هاذى الهرجة.. قررت أن أقول ما أعتقد،
فقد يأتى اليهود على غرة.
أقول لو جاء اليهود مثلاً، علينا أن نتأكد أن هنالك
خرطوشاً كافياً للبندقية.
حدق فى قليلا ثم انفجر فى الضحك، وسارع ينادى ناصر
وونيس، يقول لهم: التيس الصغير هذا يبى البندقية
والخراطيش بيش يحارب اليهود..
هكذا عمر يسخر منى دائماً، تركته غاضبا، وأقسمت
ألا أتدخل فى هذه المسألة بعد الآن..
وفجأة قامت الحرب، تحلقنا جميعاً نحن الذين نسكن فى
القبة على بعد كيلومترات من الطريق الذى يمر بها المللح
حول المذياع، نهلل فرحين، نتابع سقوط الطائرات،
كان منا الكثير الذين يصوبون أنظارهم إلى السماء بحثا
عن الطائرات التى تهاوت..
ولكن كما قامت الحرب سريعا، حل الصمت سريعا..
لتأتى بدل الطائرات الأغنام..

كنت أول من سمع غناء ~~الخضاء~~ أول حمل لأغنامنا هذا العام..

باء .. باء .. أنا هنا .. باء .. باء .. جئت استيقظوا.

عدوت خارجًا إلى زرائب الأغنام وعلى باب الحظيرة وجدت النعجة مستلقية على الأرض تخور، والحمل يتعثر ويترنح بحاول الاحتفاظ بتوازنه حتى وقف.

وفي اليوم التالي حدث هذا ثلاثين مرة، لم أر مشاعر أمي تجاه مفارقة عائشة لنا بعد أشهر قليلة إلا هذه الأيام، المشكلة أن الأمهات إذا عانين مشاكل في الوضع أو الرضاعة تعاف وليدها من فورها، ويصبح الوليد غريبا بلا أم، لا يجد لبنا يأكله، كلما اقترب من نعجة ضرعها مليئة باللبن رفسته رفسة قوية، فلا يكتفي فيناله الضربات المتوالية حينًا بالرفص وحينا بالنطح، يحتار الجميع، هذا يخمن وهذا يقول الحمل جوعان يثاغى .. ماء .. ماء .. عايز آكل .. عايز آكل.

في النهاية نلجأ لعائشة، فهي قوية الذاكرة تعرف كيف تعالج الأمر.

تضع كل حمل أمام أمه، تقف الأم بعيدة عنه تمد رأسها
تشمه، تسترجع رائحته بصعوبة، ترفع رأسها، وتأخذ
فى النخير والصياح فرحا وبيدفع ناحيتها الوليد، ثم يبدأ
فى البحث عن طعامه فى ضرعها على الفور بدفعه الجوعى
جوع ونهم شديد ..
كان اختيار عائشة صحيحا ..
صاحت أمى نجاة تواأش لدبروا العام القادم ؟
صمت الجميع فالعام القادم سيأتى، وعائشة فى بيت
زوجها، قالت أمى آنا نقول لباتك إنك لسه صغير
بيش يوخر جوازك ..
صحت أنبه أمى هاذى تريد تركنا اليوم قبل بكره أنا
ندرى .
استشاطت عائشة غضبا، قذفتنى بالإناء الذى فى
يدها وهى تنهرنى : عدى ياتيس يا قرد .
قالت أمى بغضب : ردى بالك عليه شويه..
قالت فى غضب : نشهد بالله، السجن أحسن من أمها .
قالت امرأة أبى تكاد تستلقى على ظهرها من الضحك :
آبوه .. صارهكى .. ياهنا البنية ما عادت تبى تظل معنا
.. هنيا لك يا مفتاح .

عندما نطقت اسم مفتاح ضحك الجميع، يبدو أن أعصابها لم تعد تتحملها ، فاستدارت تبحث عني، وكأني السبب في كل هذا ، جريت خلفي تقذفني بالطوب وتصيح :
أنت السبب يا ونيس.
جريت أصرخ : باهي .. باهي ياعائشة أنا ما نتحدث في هكي بعد اليوم .

. . . . .

الصيف الأخير الذي اجتمعنا فيه معا. زادت مشادات عمي عمر مع أبي. أبي يريده أن يعمل بالكسارة، ويذكره كل مرة أن امرأة أبيه طردته من الحوش، فخرج إلى الحياة ليبدأ من الصفر. وناصر بدأ يستعد للالتحاق بالجامعة.
ذات يوم جاءنا خطاب بكت بسببه أمي كثيرا، ونيس يسافر لألمانيا .. سبع سنين ما نشوفه .. أمي تبكي وونيس يضحك، وابتسامته على فمه عن آخرها.
سألت : ماذا حدث ؟
ونيس يدرس الطب .. سيعود طبيبا. كان أمراً مبهرا حقا، نظرت إليه بفخر، ها هو لا يخيب ظنونا

تخيلته وهو يرتفع عاليا فى الطائرة يعبر الجبل الأخضر
والبحر لبلاد بعيدة ثم يعود وهو طبيب. قلت مرضيا
نفسي: باهي نجي كل أسبوع.

أنا! .. لا .. ما اجي إلا فى نهاية العام.
اسنأت: ما فيكم غير عائشة تجئ مرة كل أسبوع
قالت لي إنها سوف تأتى إليها كل أسبوع
ضحكوا وقالوا: حتى ولا عائشة.
جلست مصدوما، أردت أن أتأكد فسألته: شنو؟
قال الفتاة وين ما تذهب حوش زوجها ما تشوف أهلها
بوكل.
تخيلت الحوش فارغا. حزنت حزنا شديدا. لن تبقى
سوى هذه القردة المشاكسة، والتى تحب أمها أكثر
من أمي..
وجدتني أذهب إلى ركن قصي وأبكي.
يد حانية شعرت بها تربت على ظهري، رفعت ناظري
كان ونيس.. كيف عرف مكاني. عشان هكي أنا حميدة
نحب ونيس وما أبغى أصير كيف عمر بكل..

لحيته وأنا جالس القرفصاء، كان طويلا فارعا ضخما،
هو الوحيد من فريقنا، وعائلتنا وكل قبيلتنا سيذهب
إلى ألمانيا.

يجب أن تفرح لي.

نعم أنا سعيد لكنك ستغيب كثيرا.

جلس بجانبي ووضع يده على كتفي: سوف أرى الدنيا.

تتركني مع هاذى القردة الصغيرة..

معك أمك وبابك وعمر.

عمر لا يهتم إلا بنفسه..

يا هر تعلم كيف تهتم بنفسك..

فتحت عيني مندهشا، فكرت..

لقد كبر ونبس وها هو يدوى في حكم وأمثال.

قلت: وحدى!.

نعم.. عليك أن تجد لنفسك مكانا.

ألست صغيرا بعد؟

لا بلغت الثانية عشرة من العمر، ستدخل العام
القادم المدرسة الإعدادية وتكون مسئولا عن المنزل

وعن صديقتي .

يالها من مسؤولية سخيفة : لا .. سأكون مسؤولا عن نفسي فقط ، فصديقتي رأسها مثل الحجر . ولكن علام الحديث ؟ .. لقد رحلت هي الأخرى في آخر العام مع أمها إلى الحضر ، وبقيت أنا وأمي في القبة .

. . . .

والآن حان وقت الخروج إلى الجبل الأخضر ، في الخامسة صباحا استيقظت مسرعا .. غسلت وجهي ورأسي بالماء البارد من العين ، ودخلت مسرعا على صوت أبي يدعوني للإفطار ، وكان هناك عمر ووليد وكان ناصر ذاهبا إلى العاصمة ، ولن يعود قبل ثلاثة أيام ، وحين خرجنا أعطتني أمي جرابا علقته بحبل حول كتفي ، وقد كدسته بالخبز الطازج وعلبة ملأتها بالمعكرونة والفاصوليا والهريسة ..

كانت هناك قطع من اللحم خصيصا لي بمناسبة خروجي إلى الرعي للمرة الأولى ، وفي جراب عمر كان هناك كوز ، وخبز وسكر وشاي .. هذا كان طعام اليوم وشرابه . أنا حميدة أذكر ذلك جيدا .. أذكر وسأظل أذكره ..

ما إن تخلف القبة وراءك، وتيمم جهة الشمال، وتنحرف قليلاً جهة الغرب، حتى تجد أجمل ربيع في العالم
حيث تمتد سلسلة هضاب متوالية في غير نسق
كأن الطبيعة لا تهوى التماثل.
لن يكفيك أن تراه بسهولة
بل عليك أن تبحث في كل مكان وكل قطعة هنا..
يا اللـــــه ..
هضاب تتخللها وديان صخرية تبدو كأنها في متطاول يديك
ثم ها هي فجأة تكشف عن هاوية لا قرار لها
عندها وعلى سفوحها تختلط الصخور بالتربة الطينية الحمراء بالعشب الأخضر بالشجيرات بالأشجار بالأفق ..
من يستطيع أن يرسم هذا ؟.
شممت الهواء مغسولاً بمطر الشتاء ..
شممت الهواء قادماً من البحر ..
رأيت الأرض تحنى بيبيسر مرتين وثلاثاً وعشراً وخمسين بلا رقابة ..

فجأة تصعد مدارج العشب سلسلة الجبال العالية
والوديان السحيقة.
أضع أصابعي الصغيرة على أديم الجبل
أشعر به كأنه يتشكل بها
يحنى لها، يرضخ لرغباتها العابثة
أركض هنا وهناك وأعود أشم رائحة الأغنام وعبق
روثها الطازج.
مع عمر أشعر بالأمان .. لا أخشى الذئاب مثلا، بالرغم
من أنه يصعب على التفاهم معها.
هو عادة يأمرني .. أحضر هذا وأجلب ذاك.
مع ونيس وناصر يمكن التفاهم.
عندما بدأنا السير سألني عمر: مجه مبسوط بالرعي؟
قلت بحماس: نعم وأنا أبغى الخروج كل يوم..
ضحك وتيقنت أنه يسخر مني.
باهي نوا ترعى الأغنام وحدك.. خلي باتك يفرح بيك.
لم أفهم مقصده .. سألته: ليش تسخر مني دائما.
بان عليه التكدر والحد وقال: ليش تظن هكي.. توا أنت
صغير، كيف نتنافش أنا وياك.

استرجحت قليلا لتبريره وقلت: باهي وللشنو قصدك؟
أجابني بجدية: الأمر بسيط.. ناصر ونيس راحلين، وأنا لن أبقى أهنا، وهكي بابك صار لأول مرة يواجه هاذي المشاكل العويصة.
ما تحبي رعي الأغنام؟.
هذا عمل يقوم به حمار أو بغل صغير.. الولد اللى ما يروح مدرسه، نعلمه الرعي، أنت لازم تنتبه لدروسك، إحنا نحتاج توا متعلمين ومثقفين.
أردت أن يعترف بجمال الجبل الأخضر قلت كحمار حرون: ولكنني أنا حميدة ما أترك الجبل الأخضر.
إهي أبقى هنا وشب مثل الحمار، ما تخاف شي، سنأتي لزيارتك بالعطلات.
استأت فقلت غاضبا: أنت ما تحب الرعي وما تحب الجبل ومنو التيس اللى يحب فيهم؟
تعثرت في التعبير، بعد فترة صمت قلت وأنا أكاد أبكي: ليش تريد تتركنا، ليش كلكم تتركونا؟
قال برصانة وجد: توا النفط يصير ذهب، يرمون في الحضر على الطريق، أظن أنه يجب أن يكون هناك

من يلتقطه، أما الجبل الأخضر هاذا نبقيه للعشاق وقارئ الروايات الغرامية ورعاة الأغنام أمثالك..

توا من الآن فصاعدا تصير الصحراء أجمل عشرات المرات من جبلك اللعين، وتوا اتركني واصمت شوى.

لم أكن أتحدث معه ثانية بعد أن أساء إلى مشاعرى وسفه منها، ولكن كانت هناك الفتنة، لم أعرف كيف استطاع عمر أن يقودنا بمثل هذه الطريقة التى جعلتها تبرز فجأة، ولم أستطع أن أكبح جماح نفسى عن حوشنا الآن، وعن العشاء الطازج الذى ينتظرنا نحن الذين قمنا بكل هذا العمل الشاق؛ وأمسكت بجرابى وأنا أطوح به فوق رأسى، وانطلقت أعدو فى سرعة هائلة نحو الحوش.. وأنا أرمح كما الجواد يرمح رماحة فى ميدان الحرب.. وتابعت قدماى الصخور والأرض تتلوى من تحتى، وأنا مشتاق لوجه أمى وصدر عائشة..

كنا نظن أن عمر هو آخر من يغادرنا، بل إن أبى كان يستبعد ذلك تماما، ماذا يستطيع أن يفعل دون شهادة؟

هل سيحمل كاتبا؟ أمرآه مثيرا للضحك أو الإشفاق، ولذا ضغط عليه بشدة كي يبقى وبديرمعه في الكسارة ، ولم يكن أحد يظن أن عمر قد يستخدم أسلوبا سيدفع أبي إلى الاستسلام أخيرا. "

أذكر يوم خروجنا نحن الثلاثة؛ أنا وناصر وعمر، حين تغافى عمدا عن ثلاثة أغنام، عنف أبي ناصر دون أن يحدث عمر، لكن ناصر فرغ صبره وأخيرا قال: ما تصرخ في، هو تغافى عن الأغنام - يقصد عمر- نبي الحق تصرف امعاه هو إذا بتفدر. وخرج ناصر راحلا عن الحوش لأحد أصدقائه.

في صباح اليوم التالي جهز عمر نفسه للرحيل ظانيا عن الفتيه، بدأنا أنا وناصر نخرج بالأغنام. وبعد أسبوع واحد قابلنا أبي في الحادية عشرة ظهرا بقود شاحنته، ومن الخلف أطل علينا وجه غريب تشع نظرات عينيه بالذعر، كان أبي قد دخل الحوش وقد نسيه، فقد عاد وهو يصيح بالرجل وبلكنة غريبة لم أسمعها من والدي من قبل:

انزل يا عم أحمد.

تقفز الرجل أسمر على وجهه ملامح تعب وبؤس شديدين، تبرز من صدره جوانب جلاليب عديدة، ارتداها واحدة فوق الأخرى، في يده اليسرى صرة وباليمنى صندل قديم مهترئ، نظرت إلى قدميه، كانت حمراء منتفخة كعجلة سيارة قديمة. وقف مترددا مرعوبا مثل فأر وقع فريسة قطط متوحشة.. سمعت أبي ينادي على ناصر وأشار إلى الرجل: المصري هذا خذه للبراكة، خلى عائشة تحضر له بيش يأكل، عدي معاه يا عم أحمد. بدا أنه لم يفهم ما يقصده والدي، وبقي أبكم. عيط أبي عليه: عدي معاه.

سار الرجل خلف ناصر، وكتفاه متهدلتان.. أسرعت إلى أبي أسأله: تشو باتي.. مصري هذا؟

أيوه.

أيش تسوي بيه؟

يرعى الأغنام بدل التيس عمر.

عندما حمل ناصر الطعام إليه، وجده يغط في نوم عميق.. حاول أن يوقظه لكن أبي منعه: المصري

هاذاكاهو مسكين ، جاء سبرا على كراعيه من مصر .

صاح الجميع : معقوله !! . .

أيوووووه . . مصريين واحد في على طريق الساحل . .

وليش لا . . هادول خبراء في الجري . كيفما جروا قدام

اليهود كيفما يجي جري لحد هنا .

مع مجيء عم أحمد حاجات كثيرة واجد تغيرت ، وبعد

سنتين ، دخلت الجامعة حضرنا جميعا في منزل أخي عمر

في الجامعة التقيت بمفتاح إسماعيل والتقيته بأخته زاهية

مات مفتاح بالرصاص يوم اقتحمت اللجان الثوريه بقيادة

نائب الزعيم الجامعة وهي تطلق الرصاص ما تفرق بين حد . .

وأنا حبيتها عشقتها . .

كنت أخاف مصيري يكون نفس مصير ونيس . كانت تطمني

تقول الهمن واجد إنا نتبع فيك آخر الدنيا . .

أنت دير بالك على حالك وأنا وهبت لك نفسي . .

ما أنا محتاجة موافقة باي ولا حد . .

أخي عطاني لك وبعدين قتلوه . .

ما اني محتاجة موافقة حد بعده . .

في البوادي وين ما كنت هربان
هاداك اليوم اللي حضر فيه ونبس وعائشة
وثريا والعويلة . .
هنالك وين ما تبتدي الكثبان الرملية . .
حين ما تسيطر على الصحراء والوجود . .
حين ما تكون زرقة السما غطاها . .
والشفق الأرجواني ملء النظر . .
وهبتني نفسها . .
أنا حميدة بوزوي وهبتني زاهية إسماعيل نفسها . .
صرت ما بي شيئا . . لأنه ما عاد هناك شيء أبغاه . .
زاهية عطتني الوجود عطتني الحياة . .
مين تهبك من تحب نفسها . .
مين تصير أنت وهي واحد . .
مين تحل فيها وتحل فيك . .
ما ينبغي غير الخلود . .
هكي أنا حصلت الخلود إمعاها . . زاهية إسماعيل . .
أنا بروحي تمنيت الموت من فرط ما خدت من الحياة . .
أيش بده يصير إذا سمعت كلام عمر وسلمت نفسي؟
يعذبوني . . يسجنوني . . بموت . .
كيف ما يكون . .

هاذى الصحراء ..
هاذى البوادى ..
هاذى الجبال ..
صارت أنا حميدة بن الحاج مفتاح بوزوى :
وصرت هى .. صرانا واحدا ما ينجزأ ..
هكى قال فارس العرب «علم» ..
هكى قالت ملكة البربر «طلطلة» :
إذا تريد الحياة ؛ أطلب الموت ..
وأنا حميدة ما عدت أهتم ..
بيش أنا
بين البوادى والسحر
على أطراف السماء وحد الفلا
حصلت حريتى .. وما عدت أبغى شيئا .

-24-

إذا كنت تريد الحياة: أطلب الموت..

ها قد أمضيت سبعة أشهر كاملة حتى حصلت على الإقامة. وعندما وقعت العقد فوجئت بكارثة محققة. إذ أن راتبى لم يكن يتجاوز ثلث ما يحصل عليه زملاء دفعتى في التخرج لنفس العمل بحجة أنني حديث الحضور. وعندما تسلمت حقوقى المادية أخيرا عن الفترة التى أمضيتها دون إقامة «سبعة أشهر». دون راتب وجدتها لا تكفى كى أسدد منها ديونى التى استدنتُها من أقاربى طوال الفترة الماضية.. لعنت الحياة والدنيا.. فهذا نفط أسود من السواد.. أى نوع من البشر أنا.. إذا كان الموت ما يريدونه لنا فليكن بشرف.. كنت قد لمحت على شاشات التليفزيون بعض الزملاء من مصر.. ما الذى جاء بهم هنا.. علمت أن هناك أحد المؤتمرات القومية. فقررت أن أرحل خلال أيام للعاصمة والذهاب لتحيتهم.. وعزمت بالمرة المرور على الإدارة الطبية العامة للبحث فى حل مشكلة راتبى إما أن يرفعوه أسوة بمن هم فى خبرتى أو أغادر نهائيا. وليكن ما يكون..

* * * *

فى العاصمة لم أجد صدى لمطالبتى بالمساواة فى الراتب. لابد من الرحيل إذن ومغادرة البلاد.. وقبل أن أستخرج تذاكر الطائرة. أجريت اتصالاً مع صديقي الأستاذ محسن الجمال رفيق الحركة الطلابية فى السبعينيات وأحد قادة الاتجاه الناصرى بجامعة عين شمس. وقد أصبح من كبار المهندسين العاملين فى الخليج. شرحت له الظروف في ليبيا وسألته عن إمكانية السفر إلى الخليج فوعد بالرد خلال أيام.

وبينما أنا فى انتظار رده حتى أحدد محطة سفرى القادمة من طريق الغربة الطويل قررت العروج على المؤتمر لمصافحة الأصدقاء.. وهناك قابلت الشاعر الكبير عبد العاطى سلام. والأستاذ الفنان عبد الرحمن جمعة. وقابلت زميل الدراسة الدكتور عادل مندور.. كان هو الآخر أحد قادة الحركة الطلابية السبعينية. والمتزعم للاتجاه الماركسي في جامعة عين شمس. وكان يتمتع بذكاء حاد وشخصية كاريزمية هائلة..

وفى الكافيتريا فوجئت به يتجاهلنى تماما عندما حاولت مصافحته. واضطر عندما فرضت نفسى عليه أن يوضح أنه ليس الشخص المقصود.. فى اليوم التالى قال لى فى مكان منزو أنه دخل البلاد بدون تأشيرة. يومها دار بيننا حوار طويل.. وبعد أيام قليلة اتصل بي محسن الجمال وطلب مني أن أذهب لمقابلة أمين المؤتمر الشعبى العربي.. قلت لنفسي لن أخسر شيئاً وذهبت للمقابلة.

في مكتبه التقيت بمدير مكتبه وطلبت منه أن يبلغه بحضوري.. كنت أشعر أنني أعرف هذا الرجل فهو مصري وملامحه ليست غريبة علي .. وأثناء دخوله لإبلاغ أمين المؤتمر بوجودي قفز اسمه فجأة إلى رأسي . هذا هو الأستاذ (غ شكري) المفكر المصري المعروف والذي كنت أقرأ مقالاته بعناية فى مجلة الطليعة والكاتب وأرى صورته أحياناً في الجرائد.

انفتح الباب فجأة وجاء نحوى الأستاذ (غ) قائلاً بأدب جم تفضل وظل ممسكاً بالباب حتى لا يغلق قبل دخولي.. تقدمت حيث يجلس أمين المؤتمر الشعبى، صافحته وجلست وقبل أن يغلق مدير مكتبه الباب طلب منه المضيف ألا يسمح بدخول أحد وألا يحول له أي مكالمة تليفونية، طوال فترة وجودي.

بدأ الحوار الذي استمر قرابة الساعتين بأن أبدى الرجل السياسى المرموق اندهاشه لأنه سمع باسمي من طرفين كل منهما قيمة كبيرة في حد ذاته، وكل منهما يمثل تياراً فكرياً مستقلاً وكل منها تقييمه سلبي للآخر. الشيء الوحيد الذي اتفقا عليه هو الاحترام والتقدير لاسمي المتواضع وسمي لي هذين الشخصين وهما المهندس محسن الجمال والدكتور عادل مندور الذى ذكر له أسمى خلال نقاش جرى بينهما أجهله..

ثم دار الحديث حول القضايا العامة وهموم المنطقة وكانت فرصة أن أنقل استيائي من ظهور خريطة مصر في تليفزيون البوادى مظللة باللون الأسود، والحديث عن القاهرة باسم العاصمة المقهورة، فهذا لا يليق بمكانة مصر ولا بدورها التاريخي، حتى ولو كان هناك عداء مرحلي مع نظام الحكم القائم فيها.. فالنظم زائلة ولكن تبقى الأوطان..

وانتقل الحديث إلى استيائي من موضوع المرتب فابتسم ومد يده وجذب ورقة من مكتبه وبطريقة لافتة للانتباه مهر توقيعه عليها، رفع رأسه وقال: إنسى اللي أنت بتقوله، وهذه ورقة بيضاء عليها توقيعي اكتب الرقم اللي يخطر على بالك . وأنا موافق بس تشتغل معانا..

وبينما كان يشرح لي المحاور التي يتحرك فيها المؤتمر الشعبى العربى، تمثلت أمامى جثة حميدة المدلاة من أعواد المشانق.. ها قد جاءت لحظة البيع وقبض ثمن الصمت والسكوت.. كم يساوى

ثمنـك يا فتى؟.. ليـس الأمر مخالفات العقيـدة ولا النضال من أجل الحرية. ولا الكفاح من أجل قيم العدالة والمساواة.. شعرت في هذه اللحظة بطعم الخيانة ورائحتها تخيم على فضاء الغرفة ..

سـمعته يقول وقد أصبح يفصل بيننا جثة الفتى: لدينا ثلاثة محاور المحور القومي ومحور القضية الفلسـطينية ومحور الفكر العقائدى النظرى..

دارت أفكار كثيرة فى خاطرى .. أحل مشاكلى جملة وتفصيلا أم أختـار شـرفى.. فى الحقيقـة كان المطروح على الطاولة شـرف آخرين..

شرف وطنى..

شرف تاريخ الحركة الطلابية. شرف رفاق ناضلت بينهم وناضلوا معى قرابة عقدين من الزمان..

شـرف ونيس صديقى الضائـع بين متاهات الحداثـة النفطية وأصالة تراثه البدوى التاريخى..

شرف حميدة الذى قصف عمره عشقه للحرية. وظن للحظة أنه يمكن للمعارضة المصرية أن تحميه لكنها تخلت عنه..

وكمـا أن الخيارات التى عرضت علـى طيلة حياتى كانت قليلة ضنينـة.. كان خيـارى ليس معروضا علـى الطاولة.. سـرحت وأنا أنظر إلى اليد الممدودة لى بالورقة البيضاء إلا من توقيعه أتسـاءل كم من هذه الأوراق وأشـباهها مرت من هنا.. وكم هى الأوراق التى خُطـت عليها أرقام تجاوزت سـتة أصفار حملها رجال جلسـوا فى نفـس المقعد وغـادروا ومعهم أوراق كتلك. بعـد أن تركوا حريتهم هنا وإلى الأبد.......

كانـت المفاجـأة غير المتوقعة بالنسـبة له. هو أننى شـكرته معتذرا عن عدم قبولي عرضه السـخي. قلت بالحرف إنني قادم من

مصر لأعمل هنا طبيباً فقط.. وبحكم كوني من المعارضة في مصر وإذا أعطيت لنفسي ما هو أكبر من حجمها فسأقول إن غيابي عن مصر يخصنم بالناقص.

في هذه اللحظة سمعت طرقات خفيفة على الباب. ثم دخل المفكر القدير الأستاذ (غ) مدير المكتب بهدوء شديد ليقدم للرجل إحدى الأوراق وهو ينظر إليه بغضب للمقاطعة. مر على الأوراق بعينيه بسرعة وتمتم ببعض الكلمات التي تعنى عدم الاهتمام.. وبعد خروجه التفت إلى قائلاً تعرف من هذا؟

قلت بالطبع ومن لا يعرفه. لكن من المفروض أن تسأله هو إذا كان يعرفني أم لا؟.

ترى تظن إنا نشتريك كيف هاداك.. أنت تفكر أنا نشترى فيك.. هذا خطأ واجد. أنا وأنت عرب ناصريين نصير ونسير معا يدا بيد على طريق الزعيم الخالد جمال عبد الناصر.

قلت وأنا استجمع قوتى بصعوبة لى أصدقاء وطنيون شرفاء.

قاطعني قائلاً بسرعة «أيوه وهادى معروفة أكو شرفاء من كل نوع.. حتى الحمير بينهم شرفاء.. صعبة هادى مو صعبة» لكن أنت تقول إن غيابك عن مصر يخصم بالناقص أعلم إذن يا رفيق أن وجودك في البادية يحسب بالزائد. لدينا آلاف الأطباء ولكن ما لدينا مناضلون ثوريون من أمثالك كتير .. رفع الورقة ودفعها أمام عينى وهو يردد بهياج أن أضع رقما أى رقم وسيستجيب له دون مناقشة..

شكرته مرة ثانية ورددت بالنص «إن وجودي في البادية لا يمكن أن يحسب بالزائد. لأن الثورة في البوادى والحضر في الحكم. تمتلك السلطة. وبالتالي هناك الكثيرون حولكم ممن هم أفضل مني. ممن يقولون لكم ما تحبون أن تسمعوه.. وأضفت ثم إنني مستمتع جداً برؤية التجربة هنا. وأعتقد أنني أراها بأفضل مما تراها أنت»..

تراجع مندهشا ينظر نحوى وكأنه يسألني كيف؟.. فأكملت

.. «أنــا أرى أن فى بلاد البادية مجتمعين متضاربين على طول الخط.. ولكنهما اتفقا على التعايش وتقســيم الأدوار بينهما.. الثورة لها ميكرفونات الإذاعة وشاشــات التليفزيون وصدارة المؤتمرات.. والثورة المضــادة لها بقيــة المجتمع بأكملــه.. والطرفان تعايشــا على ذلك ورضى كل منهما بنصيبه.

رأيــت طيفاً من عــدم الارتياح على وجه الرجل. أحسســت به ينهي اللقاء طالباً أن أعطي نفسي فترة أفكر فيها جيداً ثم أعطيه الــرد النهائي.. والذي لم يختلف بعد ذلك عما قلته في اليوم الأول فوعد بغير حماسة أن يتدخل لتسوية المرتب. والذي لم يتجاوز في النهاية نســبة 75% من راتب زميل التخرج. ولكنه على الأقل ارتفع إلى نسبة من راتب..

لــم يكن لدى خيار ســوى القبــول ولو لزمن قصيــر أنهى فيه بعــض الضروريــات الحياتية. قبل أن أخوض رحلــة جديدة فى رحلة اغترابنا نحن المصريين.

عدت لغرناطة حيث لاحظت أن شــيئاً ما تغير فى دكتور ونيس. هــذه المرة اســتقبلنى بطريقة أقل بــرودا. وبدا أنه توقــف عن تناول الخمر أثناء العمل. انعكس على تصرفاته بعصبية. فكان يثور لأتفه الأسباب.. أعطيته دفتر المذكرات الخاص بحميدة. دون أن أنبث بكلمة. وهكذا بقيت علاقتنا فاترة يشوبها البرود. طبيعى فثمة جسد حيا معلق بيننا فى السماء وعلى مشارف الصحراء لا يمكن عبوره.

لــم أحاول اختراق الحاجز الصلد الذى أقامه حول نفســه. وفى إحدى العمليات التى جرت مؤخرا وأنا عاكف على تجهيز أوراق عودتى للوطــن. ثــار دكتور ونيس فى إحدى ثوراته التــى كانت قد بدأت فى التلاشى. أسرعت على صوت الضجة القادمة من حجرة العمليات. وجدته يقف خارج الغرفة يقذف بطاولة الأدوات فى جميع الأنحاء. وحولــه الجميع يقف لا يجرؤ علــى الاقتراب أو الهمــس.. وفى ذروة

غضبه طلب أن يعطيه شخص ما كوباً من المياه.

خديجة بن حنيس التى أصبحت طبيبة جراحة بامتياز، تلازمه أغلب عملياته. تنظر لبراعته بإعجاب تجاوز القداسة. استدارت وفى لحظة كانت تحمل بين يديها كوباً من المياه الصافية. لا يعرف أحدا من أين جاءت به.

تناول الكوب برعونة ويده تهتز بشدة. شاهدت المياه تسقط على ثوبها المصنوع من الجبردين، ليلتصق بفخذها. رأيته يركع مضطربا دون أن يهتم بالمحلقين حوله من طاقم العمليات وأهالى المريض. وهو يعتذر بغضب عن رعونته. وشرع يجفف المياه عن ثوبها فى واحدة من اللحظات النادرة التى استعاد فيها ونيس المدمر ونيس القديم.

كانت خديجة تبتسم بحياء .. وعندما انتهى ووقف يعتذر لها هامسا: اعذرينى دكتورة خديجة .. أنا آسف واجد..

وللغرابة رأيته يحدق بها مبهوتا. كانت تهمس له بوداعة:

طاسة أصحاب الصوب ملاينة غلايين بددت

لقد بدا لى فى هذه اللحظة غريقاً تقاذفته الأمواج والعواصف النائية طويلا. وها هو يتطلع لجزيرته التى أطلت من قلب الرياح والغيوم والظلمة بعد طول عناء. سمعته يسألها مستفسرا:

- شنو .. !!!
- ...
- هل تعرفين أغانى "العَلَمْ"

فتحي إمبابي

روائى وكاتب



المؤهل: بكالوريوس الهندسة المدنية - كلية الهندسة- جامعة عين شمس

دبلوم تخطيط نقل- المعهد القومى للنقل - 1986

دبلوم تخطيط انفاق- ألمانيا الاتحادية - 1988

المهنة: خبير أنفاق - مدير عام الهيئة القومية للأنفاق

الأعمال الإبداعية

العرس - رواية -1980 طبعة أولى 2000 طبعة ثانية دارميريت

نهر السماء - رواية - 1987 عن دار الفكر المعاصر
مراعى القتل - رواية - 1994 عن دار النهر
حاصلة على جائزة الدولة التشجيعية
أقنعة الصحراء - رواية - 2002 عن دار ميريت
شرف الله - رواية - 2005 عن الورشة
الطبيعيون - مجموعة قصصية - تحت الطبع

دراسات اجتماعية وتاريخية
سهام صبرى زهرة الحركة الطلابية المحرر عن دار ميريت
الروافد الاجتماعية لجيل السبعينيات عدد من المثقفين عن مركز الفسطاط

الدراما
طيور الشمس - مسلسل تليفزيونى - قصة سيناريو وحوار - قطاع الانتاج 2002
نهر السماء - مسلسل تليفزيونى - قصة سيناريو وحوار - لم ينفذ بعد



أنا حميدة أذكر ذلك جيدا.. أذكره وسأظل أذكره..
ما إن تخلف القبة وراءك. وتيمم جهة الشمال. وتنحرف قليلا
جهة الغرب. حتى تجد أجمل ربيع فى العالم
حيث تمتد سلسلة هضاب متوالية فى غير نسق
كأن الطبيعة لا تهوى التماثيل.
لن يكفيك أن تراه بسهولة
بل عليك أن تبحث فى كل مكان وكل قطعة هنا.. يا الله..
هضاب تتخللها وديان صخرية تبدو كأنها فى متطاول يدى
ثم هاهى فجأة تكشف عن هاوية لا قرار لها.
عندها وعلى سفوحها تختلط الصخور بالتربة الطينية الحمراء
بالعشب الأخضر بالشجيرات بالأشجار بالأفق..
من يستطيع أن يرسم هذا؟
شممت الهواء مغسولا بمطر الشتاء..
شممت الهواء قادما من البحر..
رأيت الأرض تنحنى بيسر مرتين وثلاثا وعشرا وخمسين
بلا نهاية..
فجأة تصعد مدارج العشب سلسلة الجبال العالية والوديان
السحيقة.
أضع أصابعى الصغيرة على أديم الجبل
أشعر به كأنه يتشكل بها
ينحنى لها. يرضخ لرغباتها العابثة
أركض هنا وهناك وأعود أشم رائحة الأغنام. وعبق روثها الطازج.

أحدث إصدارات روايات الهـلال

العدد	اسم الرواية	المؤلف	التاريخ	الثمن الجنيه
٦٩٩	نبيذ أحمر	أمينة زيدان	مارس ٢٠٠٧	٧,٠٠
٧٠٠	جنة مجنون	أسامة أنور عكاشة	أبريل ٢٠٠٧	٥,٠٠
٧٠١	ن	سحر الموجى	مايو ٢٠٠٧	٨,٠٠
٧٠٢	بذور الشيطان	لينا كيلانى	يونيه ٢٠٠٧	٥,٠٠
٧٠٣	الفراق	أحمد شرف	يوليو ٢٠٠٧	١٠,٠٠
٧٠٤	ثقوب فى جدار الزمن	عواطف أحمد البتانونى	أغسطس ٢٠٠٧	١٠,٠٠
٧٠٥	قبل آدم	جاك لندن	سبتمبر ٢٠٠٧	٥,٠٠
٧٠٦	حرمتان ومحرم	صبحى فحماوى	أكتوبر ٢٠٠٧	٦,٠٠
٧٠٧	رجل وأربع نساءج١	إبراهيم يسرى	نوفمبر ٢٠٠٧	٩,٠٠
٧٠٨	رجل وأربع نساءج٢	إبراهيم يسرى	ديسمبر ٢٠٠٧	١٠,٠٠
٧٠٩	مسألة وقت	منتصر القفاش	يناير ٢٠٠٨	٥,٠٠
٧١٠	لعبة الحب	مصطفى بيومى	فبراير ٢٠٠٨	٥,٠٠

بطاقة فهرسة الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إمبابى ، فتحى
العلم، فتحى إمبابى
ط١ - ٣٧٤ صفحة ، ٢١ سم (روايات الهلال)
تدمك ٧ - ١٢٩٥ - ٠٧ - ٩٧٧
١ - القصص العربية
رقم إيداع ٧١٧٠ - ٢٠٠٨